حنان اللحام

تفسير سورة التوبة



بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة التوبة / حنان لحام .- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٧ .- ٢٦٤ ص؛ ٢٥ سم .

١- ٢١١,٩ ل ح ا ت ٢- العنوان
٣- لحام

تفسير سورة التوبة

حنان لحام



لرقم الاصطلاحي: ٢٠٠٥,٠١١
لرقم الدولي: ISBN: 1-59239-643- 7
لرقم الموضوعي: ٢١٢
لموضوع: التفسير
لعنوان: تفسير سورة التوبة
لتأليف: حنان لحام
لتنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٢٦٤ ص
ياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

ار الفكر بدمشق

رامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
اكس: ٢٢٣٩٧١٦
اتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.con
e-mail: info@fikr.con

هيكل سورة التوبة

المقطع الأول الآيات [١-٢٨]

تنظيم العلاقات مع المشركين

المقطع الثاني الآيات من [٢٩-٣٥]

تنظيم العلاقات - المناسبة لذلك العصر - مع أهل الكتاب

المقطع الثالث الآيات [٣٦-٤٠]

أحكام وتوجيهات تتعلق بالقتال

المقطع الرابع الآيات [٤٢-٩٦]

التمييز بين المؤمنين والمنافقين

مُقَدِّمَة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد:

كنت قد توقفت عن الكتابة منذ ظهور كتابي الأخير (مقاصد القرآن الكريم)، فقد رأيت أني قد قدمت كل ما لدي.. ويوجد في الساحة الفكرية الآن من يكتب أفضل مني بكثير ولله الحمد. لكنني في غمرة الأحداث التي نعيشها والتي لطخت أطراف الأرض بالدماء.. حتى بتنا نمسك أنفاسنا.. كمن يراقب بركاناً بقربه.. يدمدم منذراً بالانفجار... رأيت أنه لا بدَّ من الكتابة.

كثيرون ينظرون بتشف ولسان حالهم يقول: عليَّ وعلى أعدائي..

وآخرون قابعون في الزوايا يرتلون صلواتهم وقد فقدوا كل ذرة من أمل..

وفي الشرق أصوات تهمهم وتدمدم: الجهادَ.. الجهادَ..

بينما أبواق الغرب كلها تعلن النفير لمكافحة الإرهاب..

فما الإرهاب..؟ وما الجهاد..؟

قال مسؤول أمريكي: الإرهاب هو ما يفعله عدونا.. لا تضحكوا.. لقد عبر عما يفكر به الطرفان.. وكل طرفٍ يوجه التهمة للآخر.

وأما الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام فقد حَجَّمه كثيرون في صورة (القتال).

كيف يمكن للمسلم أن يدرك شيئاً وسط هذا اللغط والضجيج الذي يكاد يصم الآذان.. خاصة إذا تذكرنا أن المسلم قد نسي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١/٩٦].. بل يكاد يكفر بها وهو يهتف مع الشاعر: السيف أصدق أنباءً من الكتب ..

وسط كل هذا.. بل ورغم كل ذلك.. دأبت طاقة من المؤمنات على اللقاء لتدارس سورة التوبة. وها نحن أولاء نتأمل ما أطلق عليه بعضهم (آية السيف):

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التوبة: ٥/٩].

ونتأمل قول القدماء بأن آية السيف قد نَسَخَتْ آيات العفو والصبر والإحسان كلها.. ونتأمل قول صاحب الظلال بأن آيات (التوبة) تحدد العلاقات النهائية مع المشركين ومع أهل الكتاب.

وحين يدمدم البركان.. وينذر بالغليان.. هل يجدي أن نتساءل: لماذا حدث هذا الغليان كله؟! بل كيف يمكن إيقاف البركان.. وإخماد هذا الغليان؟

ربما سيجتاحنا البركان بحِممه... عاجلاً أو بعد حين.. لكن ألا يمكن أن نترك رسالة لأبنائنا.. بل لأحفادنا.. نحكي لهم فيها كيف بدأت حكاية البركان.. فلعلهم يمسكون بزمامه.. وينجحون في إخماده.

سألني مسلم من السويد: لماذا وقع المسلمون في فخ العنف؟

قلت: إنها حكاية طويلة.. بدأت منذ أول نزاع وقع بين ابنيْ آدم.. وحتى الآن ما زالت صيحة ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ [المائدة: ٢٧/٥] هي المسموعة... وجاء القرآن بفكر مستقبلي ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨/٢]

لكن العرب كانوا أولاد عصرهم ولم يهضموا روح هذا الفكر.. ولهذا كانت الخلافة الراشدة قصيرة المدى.. وقتل من خلفائها الأربعة ثلاثة.. وكان قاتل آخرهم يتوهم أنه يتقرب إلى الله بفعلته.. ومنذ ذلك الوقت ارتبطت المعارضة بالعنف والسلاح.. وبقي الخوارج هم سادة الساحة على الرغم من تنديدنا بهم.. وبدلاً من أن تشتغل العقول بفصل المعارضة عن العنف وتطهيرها من السلاح وحثِّها على الجهر بالحق بعيداً عن قعقعته.. صارت تحث على السكوت وترك المعارضة لحماية الأمة من الفتنة ..﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٩/٤٩].. واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء الاستعمار الغربي ومارس القتل والاحتلال على المسلمين وسَلَبَ البلاد والأرزاق. فازداد تعلق المسلمين بالسلاح.. إن عالم الكبار الآن يدفع المظلومين بأساليبه كلها إلى العنف والسلاح.. ثم ينادي بمكافحة الإرهاب..!!

فكرت بهذا كله وأنا أتأمل سورة التوبة.. وهي التي يرى فيها كثيرون سيفاً مسلطاً على رقاب غير المسلمين لا يمكن إغماده.. وآيات القتال فيها من أواخر ما نزل.. فمن يجرؤ على تجاهلها..؟ وهل يمكن الاجتهاد فيها..؟ وكيف نجتهد مع وجود النص؟! وهل يلغي النص حركة العقل؟! أم هل يمكن فهم النص دون تفعيل العقل؟!

إنني أعرف أنهم أحاطوا عقولنا بأسوارٍ من الأسلاك الشائكة.. بل والمكهربة أحياناً.. لكنني سأقترب من هذا (اللامُفكَّر فيه)..

قد يظنه بعضهم طيشاً.. بل ربما تجديفاً وكفراً.. لكن من أجل أحفادنا.. لابد من الصمود.. أفلا يستحقون؟!

إنني لا أخاف على أجسادهم فقط.. بل على عقولهم وأرواحهم.. إنهم يكادون يفقدون إيمانهم.

الدين غذاء للروح.. وليس إزهاقاً للروح.. الدين حيوية للفكر وليس إلغاء له..

الله محبة ورحمة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦] ورسولُهُ رسول الرحمة للناس جميعاً .﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧].. فكيف نكفر بما عند الله من محبة ورحمة؟!

وهل نترك أحفادنا ما بين خيارين أحلاهما مر..

أن يتخلوا عن دينهم ليتبرؤوا من الإرهاب.. أو ينخرطوا في سلك ما ظنوا أنه الجهاد.. ويزيدوا من تأجيج البركان..

ولا أدعي أنني أستطيع أن أجلي لهم الأمور حتى تتوضح الرؤية تماماً.. لكنني أطمع على الأقل بأن أقول لهم: انتظروا لحظة.. وأعيدوا النظر في آيات الله في الكتاب وفي الآفاق والأنفس..

لقد سبق لي أن كتبت في تفسير عدد من السور.. لكي أحقق لنفسي وللقراء تواصلاً أفضل مع القرآن الكريم.. لكنني هذه المرة سأكتب في تفسير سورة التوبة لأنني أحس (حال الخطر) وأتمنى أن أساهم في الإنقاذ.

وبكل خفض الجناح.. وبقدر من الشجاعة الفكرية التي تعلمتها من القرآن الكريم سأدخل هذا الحقل الصعب (اللا مُفَكَّر فيه) لأتلمس بعض معالم طريق الإنقاذ..

وإني على يقين من عونك ربي.. كما عودتني دائماً.. فباسمك أبدأ.. وإليك أخطو.. فخذ بيدي.

حنان لحام
٢٣ شعبان ١٤٢٦هـ
٢٦ /٩/٢٠٠٥م

مدخل إلى السورة

قبل أن نبحر في آيات السورة.. لابد لنا من رحلة عبر الزمان لنعيش - أو نحاول أن نعيش - في ذاك العصر وهاتيك الظروف التي كانت تتنزَّلُ فيها الآيات.. فهي من أواخر ما نزل من القرآن.. في العام التاسع وبعد فتح مكة.. قد لا نستطيع أن نجزم بالمواقيت الدقيقة لنزول مقاطعها.. لكن يمكن أن نرى عبر الآيات ثلاث مراحل: مرحلة ما قبل غزوة تبوك.. وثانية أثناء الاستعداد لها وفي ثناياها، وثالثة بعد العودة منها.. كما نلاحظ أن القسم الأول منها نزل في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج الذي أمَّر فيه النبي ﷺ أبا بكر على الحجيج.

لنتصور أن آلة الزمن قد حطت بنا في ذاك الزمان والمكان.

محمد ﷺ والمسلمون معه في استنفار دائم.. وقد مضى على الدعوة حوالي عشرين عاماً.. في مكة ثم في المدينة المنورة مع عرب الجزيرة.

بدأ محمد ﷺ قومه بالحب والنصح، وخاطب عقولهم بالبراهين العلمية ولم يستعمل معهم أي إكراه لإدخال الناس في هذا الدين.. حتى إكراه المعجزات.. فقد رفض الله الاستجابة لطلب الكفار المعجزاتِ القاهرة.. وصب المشركون على النبي ﷺ والمؤمنين أذاهم ومقاومتهم الشديدة.. حتى هاجروا بأيد خاوية من المال؛ نظيفة من المعارك والدماء.. فقد أمرهم الله بالصبر وكف اليد. وفي المدينة وقبل أن يستبرد المؤمنون أنفاسهم.. صعَّد المشركون أذاهم وشنوا الهجمات المستمرة

على المجتمع المسلم الوليد، ومارسوا حياله أنواع المكر والغدر الممكنة كلها في ذلك العصر.. من ادعاء بالرغبة في الإسلام ثم غدرٍ بالدعاة كما حصل في يومي الرجيع وبئر معونة.. إلى انتداب المتآمرين لقتل النبي ﷺ، إلى حشد العرب وشحنهم في جيوش ضد محمد وأصحابه.. إلى صد المسلمين ومنعهم من العبادة في المسجد الحرام.. ثم إلى نقض صلح الحديبية الذي نص على تسامح كبير مع المشركين رغبة في السلام وإعطاء الفرصة لهم لإعادة النظر في الإسلام. فما كان منهم إلا أن أغاروا على جيران الحرم من المعاهدين مما تسبب في عودة الحرب وفتح مكة.. واستمر المشركون في الجزيرة كلها يحاربون رسول الله ﷺ كلما وجدوا القوة والفرصة.. وأثبتوا أنهم في حالي الضعف والقوة لا عهود لهم وأنهم لا يؤمن غدرهم .

وأما أهل الكتاب فقد كتب النبي ﷺ عهوداً بينه وبين اليهود منذ أن دخل المدينة.. فخانوا ونقضوا.. وكانوا يتربصون الفرص ويحيكون المؤامرات لقتل النبي ﷺ، ويحرضون المشركين على قتاله ويتحالفون معهم، ويحزبون الأحزاب ضد المجتمع المدني.

وأما النصارى فكان أهل الجزيرة منهم أفضلَ في التعامل مع المسلمين.. لكن الروم كانوا قد أزمعوا على اجتياح الجزيرة والقضاء على الدين الوليد فيها منذ أن أرسل النبي ﷺ إليهم يدعوهم إلى كلمة سواء.. ورغم أن هرقل قد عرف من تحرياته أن محمداً ﷺ هو النبي الموعود.. لكن التشبث بالملك يعمي ويصم.. ولهذا جيَّشَ الجيوش لقتال المسلمين وهاجم تخوم الجزيرة.

إنني أرى سفينة المسلمين تحيط بها العواصف والأخطار.. ولابد من إطلاق صافرة الإنذار واستنفار كل ما يمكن من حذر وانتباه.. إنها لحظة المجابهة والإنذار للمتربصين والغادرين والطامعين كلهم الذين كانوا

يجمعون فلولهم عازمين على استخدام آخر حيلهم وأسلحتهم.. وطائفة المنافقين هناك في قلب الجسد الإسلامي تتضامن معهم وتتواصل عبر (مسجد الضرار) الذي أسسوه ليكون مركزاً للكيد والتبرير والتواصل مع الأعداء.. حتى إنهم ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٩/ ٧٤].. لقد هموا بقتل النبي ﷺ واغتياله ليلاً أثناء العودة من تبوك.

وسط هذا الكيد كله كان لابد من صيحة إنذار توجه لهذه الحشود كلها.. ولأن الإسلام وفاء وذمة وأخلاق قبل كل شيء.. فلم يباغت القوم أو يبادرْهم بالهجوم.. ولأن الله حريص على الناس ومحب لهم - مهما كان شأنهم - فإنه يرسل تحذيره إليهم ويمنحهم فرصة للتفكير والاختيار أربعة أشهر.. ربِّ ما أحلمك..!! أليس هذا كثيراً على المتآمرين الغادرين..؟

أليس عجيباً أن يطوف منادي الرسول ﷺ على حجاج القبائل كلها في المناسك والمشاعر ألا ليبلغ الشاهد الغائب: أن الله بريء من عهود الغادرين.. وأن لديهم مهلة أربعة أشهر ليعيدوا النظر ويختاروا قرارهم عن بينة.. أليس هذا كثيراً جداً عليهم..؟!

ويأتي الاستثناء لكل الملتزمين بالعهود ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٧].. بل يأتي الأمر بإجارة من زعم أنه يريد الاطلاع على دين الله وسماع الآيات ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٩/ ٦].. الله أكبر.. إنه في ذمة المسلمين وعليهم أن يوصلوه إلى بر الأمان.. بعد أن سمع كلام الله.. ورفض الإيمان والاتباع.. أليس هذا كثيراً يا حكام العالم كله..؟!

وهل تطيقون ذرة من هذا التعامل أيها المستكبرون في الأرض؟!

فكرت بهذا كله وأنا أتأمل آيات سورة (براءة).. والتي يرى فيها الناس

صيحة إبادة وامتشاق حسام ضد كل من لم يسلم.. إنهم يرون فيها زلازل وبراكين تتفجر تحت أرجل كل الناس من غير المسلمين..

فقلت: رب ما أحلمك..! رب ما أكرمك..!

بل إنها صيحة العدل والإحسان.. صيحة الوعي النبيل.. فلست بالخب وليس الخب يخدعني.. إنها صيحة الوفاء الذكي.. والحرص على إيقاظ الغافلين وتحذير المفترين المخدوعين بجحافل الروم الخاوية ..﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

لقد رأيت في (براءة) منتهى العدل والإحسان.. والحرص والإشفاق على قصر نظر الإنسان.. ورأيت فيها الخلق والوفاء والحرص على حقن دم الإنسان ..

فأردت أن أبين ذلك.. وليتني أقدر على بيان بعض ذلك.

فهل لهذه الظروف علاقة بالاسم الثاني المشهور لهذه السورة (التوبة)؟

إن الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة مليئة بالأخطار.. عاش فيها المسلمون ما يشبه حالة الطوارئ.. وفي مثل تلك الحال تكثر الأخطاء، فلابد من الاسترواح الدائم بالعودة إلى الله والتوبة كرَّة بعد كرَّة.. وهو ما تذكرنا به السورة في ثنايا الآيات وبين مقطع وآخر.. فانهلْ أيها المؤمن من معين التوبة إلى الله كي تحظى بالسلامة وسط ظلمات الكيد والغدر والرغبة في الانتقام.. هناك بين يدي الله تغسل قلبك وتزيح الأثقال عن كاهلك فتنطلق إلى كفاحك من جديد وقد ارتقت نفسك وتألقت روحك.. وأدركتَ عظمة رسالتك وروعة دورك.. فأنت تحمل مشعل الخلاص للآخرين.

تفسير السورة

المقطع الأول الآيات [١-٢٨]

تنظيم العلاقات مع المشركين

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾
وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ
إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ
أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ
فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا
يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ

مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى
ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ
عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟
بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ
وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ
وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟
مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى
ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن
يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ
مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ
أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ

حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١-٢٨].

سورة التوبة مدنية وآياتها ١٢٩ آية. وقد وردت لها أسماء كثيرة منها: الفاضحة؛ لما فضحت من سرائر المنافقين (روي هذا عن عمر وابن عباس). لكن أشهرها ما هو ثابت: التوبة - وبراءة. وسائر الأسماء ألقاب لبيان معانيها. وتأتي كالمتممة لسورة الأنفال في مواضيعها. وهذا ما جعل بعضهم يَعُدُّ الأنفال والتوبة سورة واحدة، خاصة وأن البسملة لم تفصل بينهما. وهذا أحد الآراء في بيان سبب عدم وجود البسملة في أولها. وبعضهم قال: إن السورة تضمنت الإنذار والتهديد والتبرؤ من عهود المشركين؛ والبسملةُ لا تناسب هذا المطلع الشديد لأنها توحي بالرحمة.. وربما يكشف الناس مع الأيام سراً أعمق من وراء هذا الغياب.. فالله أعلم.

١- إعلام المشركين بالبراءة من عهودهم:

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾.

إن تاريخ المشركين الحافل بالنقض للعهود مع المسلمين، اقتضى نزول الآيات بنبذ العهود المطلقة معهم وإتمام العهود المؤقتة لمن استقام منهم عليها. وكان من ثمار ذلك تطهيرُ جزيرة العرب من الشرك وجعلها خالصة للإسلام.. وقد تم هذا وفقاً لسنة الله في الحياة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٣/١٧]. فقد أثبت المسلمون أنهم أولى الناس بتحقيق الأمن والخير للناس فلم ينقضوا عهداً ولم يبدؤوا أحداً بعدوان.

وتأتي الآية هنا وكأنها تطبيق لتوجيه الله السابق ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٨/٥٨].

﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ قال بعضهم: إنها خطاب للمؤمنين أن يسيحوا في الأرض ليبلغوا البراءة. والأولى أنها خطاب للمشركين لأن الله يعطف عليها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾.

يقول ابن جرير الطبري: (الأجل الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدتهم. فأما الذين لم ينقضوا ولم يظاهروا عليه فإن الله تعالى أمر نبيه بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدّته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

والمراد بالسياحة حرية السير والانتقال مع الأمان.. لا يتعرض المسلمون لهم بقتال مدة أربعة أشهر ليفكروا ويعيدوا النظر في أمرهم.. فإما أن يختاروا الإسلام، وإما الحرب والاستعداد لها، وإما أن يرحلوا عن الجزيرة. وتبدأ المهلة من عاشر ذي الحجة من السنة التاسعة - وهو اليوم الذي بُلِّغوا فيه - وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر من سنة عشر.

لما نزلت هذه الآيات (أرسل النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بعد أبي بكر رضي الله عنه ليكون معه - في الحج - ويتولى علي بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عنه ﷺ. وسئل علي رضي الله عنه بأي شيء بعثت؟ - يوم بعثه رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الحجة؟ قال: بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى

مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا)[١].. وهنا نجد أن علياً لم يكتف بقراءة الآيات على الناس في المواسم بل أضاف إلى ذلك ما أمره به النبي من بنود: الأول تحذير من المصير في الآخرة، والثاني والثالث كانا لإنهاء أعمال الشرك حول البيت العتيق: لا يحج مشرك ولا يطوف عريان. والرابع تأكيد على عهود الملتزمين بعقودهم مع النبي ﷺ بأن عهودهم سارية المفعول إلى المدة المكتوبة.

(لقد أثبت المشركون خلال عشرين عاماً أنهم - كما قال الله فيهم - إن سنحت لهم فرصة للغدر أنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة. فكيف يتركون ليعيثوا في الجزيرة فساداً؟! بل إن الآيات أعطتهم من الإنصاف أكثر مما يستحقون:

١- فقد استثنيَ من هذا الإنذار المشركون الذين لم ينقضوا عهودهم.

٢- لم ينقض عهودهم إلا بعد تبليغ عامٍّ تم إعلانه في موسم الحج الذي يجمع أفراداً من كل القبائل..

٣- أعطاهم مهلة كافية للعودة إلى بلادهم والتفكير في تدبير أمورهم أربعة أشهر.

٤- رغَّبهم بالتوبة والانضمام إلى مجتمع الخير وكرر إنذاره ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فأين تذهبون وكُلّ البلاد أرضه وفي قبضته؟! (لا ملجأ منه إلا إليه)[٢].

وأي دولة استطاعت أن تعطي مثل هذه الحرية والكرامة لأعدائها؟!

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الدنيا بذل الخيبة والفضيحة وفي الآخرة بسوء المصير. إنه إنذار من العزيز الحكيم

(١) البداية والنهاية ٥/٣٦-٣٧.

(٢) هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي - ﷺ ٦٤٤ حنان لحام

الذي مضت سننه في التاريخ بإهلاك الظالمين.. ومن الله الرحيم بعباده الحليم على مكابرتهم وعذرهم.. فهو يمنحهم الفرصة للنجاة.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

وأذان معطوفة على (براءة). وهو النداء الذي يطرق الآذان بالإعلام.. أي أعلموا الناس بهذا الأمر بتبليغ صريح جهري وعام وفي الوقت الذي لا يسهل التعميم إلا فيه - في ذلك العصر - وهو يوم الحج الأكبر.. فأي يوم هذا؟

يقول أبو هريرة: «ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس: العمرة الحج الأصغر»[١] حيث تنتهي فرائض الحج وأركانه ويلتقي الحجاج فيه لإتمام مناسكهم.

وبعضهم قال: إن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة وقد تم التبليغ فيه.. ولا حرج في قبول الروايتين.

لكن لماذا وصف بأنه (الأكبر) وهل هناك حج أصغر؟

أم أن الصلاة هي الحج الأصغر؟ كما يقول إقبال:

«حجك الأصغر فاعرفها الصلاة»

لنا أن نتأمل كل ذلك.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإقلاع عن الشرك والغدر وقبول هداية الإسلام هو خير لكم في الدارين .﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والبشارة ما يؤثر في البشرة من الأنباء بالتهلل والإشراق أو العبوس. وغلب الاستعمال فيها للخير. ولا تستعمل للشر إلا تهكماً.

---

(١) رواه البخاري.

ومن الأمور الهامة التي نستوحيها من الآية أيضاً.. أهمية استغلال أوقات اجتماع الناس لتبليغ الأفكار وأوامر الله.. وأهمية استغلال الوسائل المتاحة للإعلام.. وهو أمر قد اتسعت وسائله في هذا العصر.. وإن قصر المسلمون في استغلاله. بينما يمارسه الآخرون بشكل فني متقن؛ وفي كثير من الأحيان لنشر الضلال والإفساد في الأرض. ويحضرني في هذا المجال ما اقترحته دار الفكر في كتيب صغير أصدرته بعنوان (لمكّة كلمة لو تقولها) من أن يستغل موسم الحج لعقد مؤتمر فكري سنوي يطرح شعاراً لكل عام تدور حوله الأبحاث وتصمم له قطع رمزية - يمكن أن يأخذها الحاج هدايا - تذكر بمعاني الشعار.

٢- استثناء الذين لم ينقضوا عهودهم:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾.

قيل: إنهم جماعة من بني بكر من بني كنانة لم ينقضوا عهدهم الذي كان في الحديبية مع قريش وحلفائهم ولم يشتركوا مع بني بكر في العدوان على خزاعة - وهو العدوان الذي تسبب في خروج النبي ﷺ لفتح مكة - وكان العهد لعشر سنوات.. وبقيت هذه الجماعة على عهدها وشركها بعد فتح مكة، وأمر النبي ﷺ بأن يُتَمَّ إليهم عهدهم إلى مدتهم. وهم الذين تشير إليهم الآية السابقة أيضاً ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد ذكر ابن القيم أن هؤلاء الذين استثناهم الله قد دخلوا في الإسلام قبل انقضاء مدتهم. بل والآخرين الذين أمهلوا أربعة أشهر لم يسيحوا في الأرض وإنما أسلموا.

قد نتساءل هنا: كيف يكون الحديث عن المشركين؟ وقد انتهى أمرهم؟ فمن هو المشرك؟ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣].

إن الشرك عكس التوحيد.. وبضدها تتبين الأشياء. فالتوحيد: هو إعطاء الأولوية لله تعالى وحكمه.. فلا يبقى لأحد شيء من الامتيازات.. ولا يسمح لأحد بأن يكون فوق القانون الإلهي.. فإن حكَّمنا هذا المقياس فهمنا قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ١٠٦] فالله يأمر بالعدل والإحسان.. لكن القانون الدولي سمح بحق الفيتو للدول الكبرى التي تستعمله في كثير من الأحوال لإيقاف العدل وتعطيله.. ولكن أكثر الناس لا يدركون ذلك.

إن العالم يموج بالشرك بما فيه العالم الإسلامي.. فمن يحقُّ له أن يمثل المجتمع الإسلامي الآن، ويقيم علاقات العهود مع المشركين؟

المسلمون الآن هم مجرد مجموعات من الأفراد تتوزع في أطراف الأرض وتعيش في ظل دول ديموقراطية أو ديكتاتورية.. فهل يحق لها أن تلزم من حولها بقانونها الذي آمنت به..؟

إنني حين أتأمل الآيات وأحاول ربطها بالواقع الذي نعيشه أرى:

١- أن المسلمين لم يصلوا بعد إلى مرحلة المجتمع القائم بأمر الله؛ فليس لهم أن يستشهدوا بهذه الآيات (من سورة التوبة) لأنهم في غير ظروفها.

٢- وأن المسلمين الآن هم المطالبون بالوفاء بالعهود.. بمعنى الخضوع لقانون الدولة التي يعيشون في ظلها.. فإن كان القانون جائراً أو مفروضاً على الناس دون إرادتهم وضد مصلحتهم وكرامتهم أو يتنافى مع روح الشريعة الإلهية.. فإن من واجب المسلم أن يعلن كفره بالطاغوت وبراءته من القانون المخالف لدين الله ويتبنى الكفاح السلمي لتغيير ذلك كما فعل رسول الله ﷺ في مكة المكرمة.

٣- وأن الخروج على القانون الذي ارتضاه الناس دون إكراه يعتبر نقضاً للعهود.. وهو خروج على شرع الله الذي يأمر بالوفاء بالعهود. وقد كانت حياة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها التزاماً بالعهود. فهو يلتزم بأن يكون حامل اللواء في الحرب من بني عبد الدار.. وهو يرد مفاتيح الكعبة إلى عثمان من بني شيبة - يوم الفتح - بحسب عهود قريش. ويلتزم ببنود صلح الحديبية بشكل مدهش.

والآية التي نقف أمامها تتحدث إلى مجتمع قائم بأمر الله وتؤكد على أن الوفاء بالعهود دعامة أساسية في بناء الإسلام، لا تلغيه (براءة)؛ بل تضع له استثناء بشأن الناقضين المتلاعبين. فالعهد المؤقت لا يجوز التنصل منه إلى انتهاء مدته طالما أن العدو المعاهد ملتزم بحذافيره.

﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يعاونوا أحداً على قتالكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحذرون النقض والغدر.. وهنا يربط الوفاء بالعهد بالتقوى.. ويربط الأمر كله بمحبة الله.. فيا أيها المؤمن هل ترغب في محبة الله؟ إن محبة الله تكون لمن يلتزم الوفاء بالعهود.. ومن يتصف بالتقوى.

وهكذا يبدو الوفاء - بل والأخلاق بشكل عام- في الإسلام عبادة وتقوى وليست نفعية ولاهي مصالح مادية عاجلة فقط.. لأنها في الحقيقة هي الأنفع بما تحقق من الخير، والأبقى للإنسانية في الدنيا والآخرة.

والفرق بين (الذرائعية) - النفعية المادية - وبين الأنفع القرآني: أن القرآن يأمر بالأنفع لأكبر عدد من الناس ولأطول مدة زمنية. وحتى الأخلاق الفردية يقول عنها ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٢] و ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقد نفهم من الآية وجهاً آخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الحذرين المنتبهين فلا يُخدعون من قبل الماكرين الذين يبيّتون الغدر. فالمؤمن كيِّس فطن يستنفر ذكاءه.. وليس بسيطاً مغفلاً.

وقد وردت أحاديث عدة عن تنفيذ النبي ﷺ لهذا الأمر الإلهي بالبراءة.. نفهم من جملتها أن النبي ﷺ جعل أبا بكر ﷺ أميراً للحج سنة تسع وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام.. وكأنه كره أن يحج والمشركون يطوفون بالبيت عراة ويلبون لغير الله.. ثم أردفه بعلي ﷺ ليبلغهم نبذ عهودهم ويتلوَ عليهم أربعين آية من أول براءة. وذلك لأن من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبته.

قد نتساءل: لماذا منع المشركون من الحج؟ ولكن إلى أي شيء يحجون وقد أزيلت أصنامهم؟ لقد أراد الله أن يطهر بيته العتيق من الشرك والعري، فليعبدوا ما شاؤوا من الطقوس في غير هذه البقعة المباركة التي جعلها الله خالصة لعبادته وحده.

٣- وجوب قتال المشركين بعد انتهاء المهلة:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾

أي إنه بعد انقضاء المهلة المحددة (أربعة أشهر) يأتي الأمر الشديد:

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

إن حال الطوارئ التي كانت تعيشها الأمة المسلمة في تلك الظروف اقتضت هذه الإجراءات الأمنية الشديدة لحماية الأمة، وتوفير الأمن للحرم وللجزيرة العربية التي ستصبح مركز الإشعاع الروحي للحضارة

الإسلامية.. ولم يكن القصد أمن المسلمين وحدهم بل أمن المعاهدين والناس المسالمين.

ولا أرى في الأمر روح الإبادة للآخر أو الانتقام منه.. كما أنه ليس إكراهاً على الدخول في الإسلام.. إنها إجراءات أمنية تتخذها كل أمة لحماية مواطنيها.. بل تتخذ أكثر منها بكثير.. ولابد أن نتذكر بأن هذه الأمة تأخذ على عاتقها توفير الأمن والسلام وحرية اختيار الدين لكل الناس.. فكيف تقوم بهذا الدور إن لم تأخذ على أيدي الغادرين والمتآمرين..؟! وكيف ترسخ مفهوم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] وأخلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ٥/١] إن لم تُقِم البيئة النظيفة المحمية من الغدر والتربص وانتهاك حقوق الإنسان..؟!

ومع ذلك فإن الأبواب لا تغلق في وجوههم - رغم غدرهم - بل إن الرحمن الرحيم يبسط لهم يديه ويرغبهم في تدارك أمورهم.. إذ لا يأس من الإنسان وتوبته وصحوته من غفلته؛ ولا يأس في التعامل مع رب كريم لطيف يتودد لعباده مهما ساءت أعمالهم.. ولهذا يهتف بهم ولهم: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإلى متى يظلم هؤلاء المشركون أنفسهم إذ يعرضون عن هذا النداء الودود..؟ وما أكثر ما ضيعوا من فرص..

أما قول بعض المفسرين عن هذه الآية إنها (آية السيف) وإنها نسخت ما قبلها من آيات العفو والصفح والسلم والصلح.. فإنني أعجب لهم كيف يتسرعون في نسخ آيات الله ولا يتأملون..!! فهل تعذَّر علينا أن نجمع بين هذه الآية التي تأمر المؤمنين بحماية الناس من غدر الغادرين، وأن يكونوا لهم بالمرصاد فقد أعطوا مهلة كافية للتوبة من مكرهم وكيدهم.. ولعلهم قد استغلوا هذه المهلة في التجهز والإعداد للقتال.. فلا تغفلوا عنهم وبادروهم بالقتال إن لم يضعوا أسلحتهم ويسالموا.. هل يتعذر علينا أن

نجمع بين هذه اليقظة والاستعداد وبين العفو عن التائبين والتسامح مع المقصرين وقبولِ الصلح مع المسالمين..؟!

إنني أومن أن القول بالنسخ في آيات الله يحتاج إلى كثير من التأمل والروية. ولهذا سأفرد له صفحات ألحقها بنهاية تفسير السورة لمن أراد أن يتفحص آراء الباحثين في النسخ وشروطه. وأكتفي هنا بأن أقرر أن الآيات تؤخذ ضمن سياقها القرآني.. وباستحضار ظروفها التاريخية.. ولا يمكن لآية واحدة أن تنسف القواعد الكلية لدين الله والتي توّجتها آية التكريم لعقل الإنسان وحريةِ اختياره ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، ولا أجد تعارضاً بين آيات الله وأحكامه.. وإنما تناسقاً ومرونة ومراعاة لما يقتضيه كل ظرف من أحكام لتحقيق مصلحة المؤمنين والناس كافة.

٤- إجارة من طلب الجوار من المشركين

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾. الاستجارة: طلب الجوار، وهو الحماية والأمان. وكان من أخلاق العرب حماية الجار فأطلق اللفظ على كل من طلب الأمان (وكأنه طلب أن يكون جاراً لك).

وكان النبي ﷺ يؤمّن الرسل التي ترد عليه من قبل الأعداء، ويجير من أجاره أيُّ مسلم أو مسلمة؛ وحادثة أم هانئ معروفة حين أجارت يوم الفتح اثنين من الذين أهدرت دماؤهم لشدة أذاهم.. ونازعها في ذلك أخوها علي بن أبي طالب.. فقال لها ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[1]. وقد ثبت في الصحيح أن المؤمنين (يجير عليهم أدناهم).

لكن الحنابلة اشترطوا لصحة الأمان عدمَ الضرر على المسلمين..

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

واختلفوا في مدة الإقامة.. والتحقيق أن مثل هذه الأحكام التي لا نص فيها من الشارع تناط بالمصلحة وتفوض إلى أولي الأمر. ويأتي التعليل بعد الحكم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهي علة الأكثرية المعرضة كما تنص على ذلك آية أخرى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٤].. وهنا تعطى الأولوية للتبليغ والتعليم.. وبأفضل ما يمكن وهو الجوار والمساكنة لفترة كافية تجعلهم يرون فيها الإسلام الحي المطبق من قبل أتباعه. إن الآية بليغة إلى حد رائع في بيان الأولويات في الإسلام.. فالحرب يجب إيقافها مع العدو إن سنحت فرصة للتبليغ والتعليم.. ثم يأتي ما هو أعجب.. وذلك أن الله يأمر بعد بذل الجهد في تعليم العدو المستجير ألا يمارَس عليه أي ضغط أو إكراه؛ بل على المسلمين أن يعيدوه إلى مكان يأمن فيه على نفسه ولو كان كافراً.. إلى قومه أو غيرهم.. إن هذا كله ليدل على كرامة الإنسان عند الله.. وحرمة الاعتداء على حرية فكره وحقه في الاختيار.. وعلى القمة الأخلاقية السامقةِ التي يرفع الإسلام إليها أتباعه.. وما فيها من نبل واحترام للآخر.. فرغم الاختلاف في الدين فإنَّ عليك أيها المؤمن أن تحمي حياة من يسالم.. وتدافع عنه حتى يبلغ مأمنه.. فهل تحلم البشرية بأروع من ذلك؟!

ويحضرني هنا قصة طريفة جرت مع الخوارج أسوقها للفائدة:

يذكر المبرّد في كتابه (الكامل في اللغة والأدب) أن (واصل بن عطاء - وكان تلميذاً للحسن البصري ثم اعتزله - أقبل في رفقة فأحسوا الخوارجَ فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب، فقالوا: شأنَك. فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك. قال مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجرناكم، قال: فعلمونا. فجعلوا يعلمونه أحكامهم وجعل يقول: قد أقبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين

فإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذاك لكم. فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن)[1] وبذلك تمكن واصل من النجاة بأصحابه من بطش الخوارج.

كيف نعلق على الخبر؟!

ربما يرى فيه بعضهم طرفة من طرائف الماضي.. لكن لا نملك إلا أن نتساءل دَهِشينَ: كيف يصل الأمر بالمسلمين أن يجيروا المشركين ثمَّ يكَفِّروا إخوانهم في الدين لمجرد أن خالفوهم في الفهم والاجتهاد.. ويستبيحوا دماءهم؟!

هل هو داء الحرفية في التعامل مع النصوص؟

أم أنه تورم الذات وأحادية النظر..؟ إلى أن يتوهم بعضهم أنه ملك الحقيقة المطلقة.. وأصبح الناطق الوحيد باسم الله.. كل من يخالفه أو يعارضه فهو مارق مرتد يجب تصفيته.. حدث هذا مع الخوارج في الماضي.. ويحدث الآن من الخوارج الجدد.. فهم يسارعون إلى التكفير وإطلاق أحكام الردة على كل من حاول أن يقدم فهماً جديداً..

فما أبعد الشقة بيننا وبين روح القرآن..؟!

وتواصل الآيات مسيرتها في بيان سبب البراءة من المشركين ومبرر الأمر بقتالهم، فالسبب الأساسي هو غدرهم وليس كفرهم.. وعليهم أن يتوبوا أولاً من الغدر والنقض ويستقيموا على عهودهم، حتى يكف المؤمنون أيديهم عنهم..

---

(١) صفحة ١٠٦ من الجزء الثاني من الكامل للمبرد.

لقد جاء القرآن ليبني عالماً جديداً مطهراً من الإكراه والغدر والتلاعب والتربص للانقضاض.. ولابد للناس أن يسلِّموا ويلتزموا بالعهود مع الجميع وليختاورا بعد ذلك الدين الذي يشاؤون.. لكن لن يسمح لهم بإكراه الآخرين أو الانقضاض عليهم.. والله يستنفر المؤمنين لحراسة حرية الناس وأمنهم.

٥- سبب البراءة من عهود المشركين إلا الذين استقاموا

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ﴾

هذا التساؤل يوحي بأن بعض المؤمنين الذين ترسخ معنى الوفاء في قلوبهم قد حصل لهم بعض التشوش في النفس والحيرة.. وربما تساءل بعضهم: كيف نتبرأ من العهود وديننا يأمر بالالتزام؟

وقد يكون ما زال يأمل في حماية أقاربه وعشيرته وحلفائِهِ من المشركين.. وقد يكون بعضهم قد ركن إلى الحياة الوادعة ويتهيب خوض معارك جديدة..

وكذلك نحن نرى في عالمنا الآن كم يبدو الأمر مشوشاً.. وكيف يصور الإسلام على أنه دين السيف والإرهاب.. فالله سبحانه وتعالى يتلطف ببيان أسباب الحكم ويهتم بإزالة التشويش.. لأن حدوث القناعة بالحكم يضمن نقاء الإيمان وثباته وقوة الاستجابة والالتزام بالحكم.

فالآية تهز المؤمن وتحذره من الغفلة التي تجعله لا يحذر غدر المشركين وتلاعب المنافقين.. كن يقظاً واعرف عدوك واحذر تدبيره وغدره.. ولا ينبغي للمؤمن أن يلدغ من جحر مرتين.

وقبل أن يمضي في البيان يعجل بالاستثناء: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكأنها إشارة إلى صلح الحديبية ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو التعقيب نفسه الذي جاء

في الآية الرابعة.. فالوفاء مرتَهَنٌ بالتقوى وهو سبب للوصول إلى محبة الله.. فما هي التقوى..؟ إنَّ لها تعاريفَ كثيرةً عند العلماء والصالحين..

وفي حديث للنبي ﷺ أنه قال: «التقوى ههنا» وأشار إلى قلبه.

وأما أبي بن كعب فقد شرحها للفاروق بأنها: التشمير والاجتهاد في طريق مليء بالشوك.. وأصل الكلمة مأخوذ من الوقاية.. وكل إنسان يرغب في وقاية نفسه من الأخطار.. فهو مخلص مع نفسه.. لكنه في كثير من الأحيان يغفل عن الخطر أو لا يعرف الأسباب التي توررده موارد الخطر. أما المؤمن فقد فهم وقاية النفس على أنها وقاية من غضب الله قبل كل شيء.. فهو متوجه إلى الله بإخلاص في القلب (كما وصَف النبي ﷺ).. لكن الأمر لا يقف به عند هذا الحد.. فهو يبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى العواقب الوخيمة.. وهي سنن الله وقوانينه.. فيسعى إلى التعلم باستمرار كي يلتزم بأسباب النجاة ويتجنب ما يؤدي إلى غضب الله: أي إلى عواقبَ مخالفة سنن الله. وعلى هذا يمكن أن نقول: إن التقوى هي حالة أبعد ما تكون عن الغفلة و(الدروشة).. وقد درج الناس على قول (يا غافل لك الله) وهو خطأ كبير؛ فإن سنن الله لا تحمي المغفلين..

بلِ إن التقوى هي حالة يقظة واستنفار للذكاء والجهد؛ فهي تجمع بين: الإخلاص والصواب والعمل. وليس التقي هو الذي يكرس نفسه لمزيد من العبادات الفردية (كالصلاة والصيام و..) فحسب؛ وليس التقي هو الذي يعزل عبادته عن مشاكل الحياة والشبهات.. ويعتزل الناس أيام الفتن ليس إلّا.. فهذه مواقف سلبية لا تحمي صاحبها من الغرق مع الغارقين في سفينة المجتمع التي أصبحت تتداعى من كثرة الخروق.. إن التقي هو الذي يستنفر ذكاءه في البحث لفهم السنن وإيجاد الحلول؛ ويبادر في سلوك الطرق الأفضل؛ ويعمل جاهداً على تعليم من حوله وإقناعهم..

فكيف لا يحب الله جنود الحق هؤلاء..؟ ولابد من الإشارة بأن هناك منزلة أعلى من التقوى وهي الإحسان.. الذي هو الزيادة في العطاء والبذل رغبة في رضى الله..

فالتقوى مفروضة على المؤمن وهي الحد الأدنى للنجاة.. أما الإحسان فهو ارتفاع إلى أعلى وأعلى، فهو مستحب في الإسلام، والقرآن يحث المسلم على الارتقاء إليه وإن لم يكن فريضة عليه..

وتتابع الآيات في البيان والتبرير ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ونتأمل البلاغة في الآية بالإيجاز.. إذ حذفت بعد ﴿كَيْفَ﴾ تتمتها (يكون لهم عهد) لأنها مفهومة مما قبلها.. فالقرآن في بلاغته يخاطب أذكياء حاضري البديهة.. وكثيراً ما يترك الفهم والتفسير لعقولهم.. ولا يكرر إلا إذا أراد التأكيد على أمر هام..

إن هؤلاء حين ينتصرون ويظفرون بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ ولا يراعوا أو يحفظوا فيكم عهداً.«إلاّ» من الآل أي القرابة.. و «الذمة» من الذمام وهو العهد الذي يلزم من ضيعه الذم.. (وهذا قول ابن عباس). أما قتادة فيقول: الإل هو الحلف والعقد والعهد.. مثل قولهم: (آليت على نفسي). والمهم أن هؤلاء: لا يرتبطون بعهد ولا يخافون الله في أحد ..﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ مثل قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/١١] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾خارجون من قيود العهد.. والدقة في القرآن هنا أنه لا يعمم على الجميع وإنما ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فهي الدقة العلمية وهو الإنصاف للأقلية المستقيمة مهما كان عددها قليلاً.

فما سبب كل هذا الغدر والمكر؟! الأسباب كثيرة لكنها عند هؤلاء:

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لقد باعوا الحقيقة بثمن بخس وآثروا المكاسب العاجلة على الارتباط بآيات الله وسننه.. ومن آثر العاجلة على

العواقب البعيدة المدى فلابد أن يخسر. ولابد من الانتباه إلى أن القواعد الأخلاقية بل والأوامر الإلهية عامة ليست لكسب الآخرة فقط بل لتحقيق ما هو خير وأبقى للفرد والأمة في الدنيا والآخرة.. وهو أمر يبدو جلياً لمن تأمل مقاصد الدين في القرآن.. والعواقب البعيدة المدى في الدنيا للالتزام بأمر الله أو تركه. لكن عمر الإنسان أقصر من أن يرى العواقب كلها.. لهذا يأمر الله بتأمل تاريخ من مضى من الأقوام.. كما يؤكد على إعطاء الأولوية للآخرة ولما يرضي الله.. ولهذا ورد الدعاء: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» حتى يتبلور الهدف وتتحدد الأولويات. فقد يضحي المؤمن ببعض المكاسب الدنيوية.. وقد يبذل ماله وروحه كي يصل إلى جنة الله في الآخرة.. لكن هذا لا يعني أنه لن تكون لذلك آثار حميدة في الدنيا.. قد يموت هو.. لكن أمته ستجني ثمار بذله وسيذكره التاريخ على أنه قدم كل ما يقدر عليه لإنقاذ الآخرين وتحقيق الكرامة لهم.. وسيكون قدوة لمن يأتي بعده في العمل والبذل.. فينمو تيار الخير والإصلاح في الأمة. انظر مثلاً إلى قول النبي ﷺ: «خير الشهداء رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله»[(١)].

إن وجود مثل هؤلاء النماذج: الآمرين بالقسط.. الذين يؤدون ما كلفهم الله به من الشهادة بالحق وللحق.. والذين يؤثرون حياة الأمة وصلاح أحوالها على حياتهم.. هو ضرورة اجتماعية لتقويم الأخطاء والحفاظ على الأمن والعدل والارتقاء في الأمة.. وإنّ أوامر الله لا يمكن أن تكون منبتّة عن مصالح الدنيا.. وإن أعرض عن فهم ذلك الجاهلون .﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ بممارسة الإكراه في الدين ومنع المسلمين من الحج والعمرة.. والموضوع أعم من ذلك ويشمل كل عمل يعاكس دين الله.. لأنه يمنع الناس من الخير ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ

(١) رواه الحاكم في المستدرك.

﴿يَعْمَلُونَ﴾ لأن أعمالهم ستجلب أسوأ النتائج. لهم ولمن حولهم.. ولأمتهم..

ويعود ليؤكد مرة ثانية: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.. مما يدل على علم الله سبحانه وتعالى بما يجري من تشويش في النفوس. وما سيحدث من حروب فكرية ضد الإسلام في كل عصر.. فلابد من التذكير والبيان المؤكد بأن هؤلاء وأمثالهم ممن أمر الله بإنذارهم ونبذ العهود معهم.. ينتهزون الفرص ويتربصون للفتك بالمؤمنين دون وازع من خلق أو خوف من الله..

والآية هنا تعمم.. فالغدر هنا غير مشروط بالظهور والغلبة.. وغدرهم مبيت لكل مؤمن.. وليس فقط للذين ﴿يَظْهَرُوا﴾عليهم.. وإنما لكل المؤمنين المخاطبين في ذلك الوقت وغيرهم ..﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ إذ لا مبرر لغدرهم هذا؛ فالمؤمنون لم يرتكبوا ضِدَّهم أيّ ذنب.. لكن ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨٥/٨].. فهو الاعتداء على حرية الإنسان وحقوقه. وهو سلوك كل الطغاة والمستكبرين عبر التاريخ مع أنبيائهم والمصلحين فيهم.. وحتى مع عامة الناس، إذ يسعون إلى التحكم فيهم والتسلط على أفكارهم وخياراتهم.

وانظر إلى التتار في الماضي ماذا فعلوا ببغداد وأهلها (عام ٦٥٦هـ).. وتأمل ما يفعل التتار الجدد الآن (الأمريكيون) الذين قصفوا بغداد واحتلوا العراق في (٢٠٠٣م).. وما زالوا يقتلون وينكلون ويحرمون الناس من أمنهم وقوتهم..

لكن هذا لا ينبغي أن يشغلنا عن مراقبة أخطائنا.. فقد كان أحد ملوك المسلمين هو الذي بدأ بالعدوان على المغول، وبعض المنتسبين للإسلام الآن يعتدون على الصحفيين والأسرى والمدنيين، فيخطفون ويغتالون، ويقطعون الرؤوس..!! فأي فرق بيننا وبينهم؟! وهل يجوز لنا أن نقابل همجيتهم بمثلها.. ونتعلم منهم الظلم والعدوان بحجة الرد بالمثل..؟!

إن أعمالنا وأخلاقنا وردود أفعالنا ينبغي أن تنبثق من القرآن وتعاليمه.. ولو وعينا توجيهات القرآن لحمانا من غدرهم ومن الانزلاق إلى درك الجاهلية والهمجية مجاراة لهم..

ومرة أخرى يُفتح باب التوبة على مصراعيه - كما فُتِحَ في الآية ٥-

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ولو كان ماضيهم ملطخاً بالغدر وبدماء المسلمين؟! ويصبحون بعد ذلك إخواناً في الدين.. الله.. ما أروع هذه الرحمة..؟! إن الله لا يريد الانتقام من الناس.. بل يريد علاجهم وإنهاء شرورهم وردهم إلى الخير.. فهو يرغبهم ويدعوهم ويفتح لهم ذراعيه.. ويخلصهم من وصمة الماضي برفعهم إلى مرتبة (الإخوان في الدين).. وما أعظم علاج الله للقلوب.. قلوب الغادرين.. وقلوب المؤمنين الذين عانَوْا من عدوانهم وظلمهم.. فيا أيها المؤمنون ترفعوا عن الانتقام وافرحوا بتوبة الظالمين؛ فقد جاؤوكم مخلصين صادقين.. وقد أنعم الله عليكم بمنحكم إخواناً جدداً في الدين.. فاطووا صفحة الماضي.. وانهلوا من محبة الله وعفوه.. واذكروا دائماً أن الإصلاح والتكريم مُقدم على الانتقام في الإسلام.. وأن الله بعث رسوله ليكون رحمة للعالمين.. وأنك أيها المسلم إن دعوت بالهداية والخير لعدوك.. فلئن تحقق ذلك ربح الجميع ولم يخسر أحد.. لكن واأسفاه يستصعب المسلم هذا المرتقى.. ولا يرتوي إلا بدعاء الويل والثبور.. أين منا دعاء النبي ﷺ لأهل مكة حين كذبوه وآذوه «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»..؟! ولم يكن هذا مع قومه وحدهم.. بل مع الجميع.

إن هذه الآية - وأمثالها - تمثل إعادة تأهيل للإنسان الذي لوثه الغدر والنقض حتى كره نفسه.. ورغب في التوبة.. فالله يفتح الأبواب أمامه ويسقط ماضيه من الحساب ويدله على أساليب التطهر ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ويعطيه مكانة محترمة في المجتمع المسلم.

فإقامة الصلاة: علاج للنفس من القطيعة مع الله.. والإنسان لا يرتاح ولا يطمئن إلا بالعودة إلى ربه والتواصل معه. وإيتاء الزكاة: علاج للنفس من الشح والأنانية وإيثار العاجلة.. وهي سلوك إيجابي يعيد دمج المؤمن مع أمته فيتحسَّسُ همومها ويبادر في التعاون معها. وإن حقيقة الإيمان وحقيقة التوبة لا تتمان إلا بإقامة هذين الركنين المتلازمين .﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ فالشرح والتفصيل ضروري لتحرير الإنسان من مفاهيمَ درج عليها حتى أصبحت مادة فكره.. وهي الثقافة السلبية للآباء التي تركز على التعصب للقوم وتزكي الانتقام والأخذ بالثأر.. هذا التفصيل لا ينتفع منه إلا الذين ﴿يَعْلَمُونَ﴾.. هل يعلمون كل شيء؟! ومن هو الذي يعلم كل شيء؟ لكنها إشارة إلى أرضية علمية أو إنسان يتصف بالموقف العلمي.. هذا الموقف يمثل العتبة التي لابد من الوصول إليها حتى ندخل إلى رحاب العلم بسنن الله وآياته.. إنهم يعلمون أن الإنسان لا يكتمل وهو بحاجة إلى التوبة والتعلم المستمر.

ولنا أن نقف وقفة سريعة على تلك العلاقة التي ابتكرها الإسلام: الأخوة في الدين؛ إنها علاقة إنسانية جديدة بناها الإسلام وأنعم الله بها على عباده.. بينما حُرِمَ منها المشركون وعبيد الدنيا الذين بنيت علاقاتهم على مصالح عاجلة فوصمتها بالحقد والطمع ولونتها بقتامة الاستكبار والاستضعاف، وأما الأُخُوَّةُ في الدين فهي محبة خالصة واندماج وتلاحم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

إنها واحة سلام في صحراء هذه الحياة يركن المؤمن إلى ظلالها الوارفة، بينما يشقى الآخرون بلهيب الأحقاد والتكالب على بريق زائف سرعان ما ينطفئ..

ونتذكر هنا كيف آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة.. فجعل الأنصاري يقاسم أخاه من المهاجرين ماله وداره وأملاكه.. وقصة الجرحى الثلاثة بعد معركة اليرموك.. وكيف رفض أي منهم أن يشرب قبل صاحبه.. فمات الثلاثة قبل أن يشربوا.. خير تجسيد للأُخُوَّةِ.

إن المحبة في الله أمر طيب المذاق.. يخلف في النفس حلاوة ورضى.. ويعطي الأمة تماسكاً عجيباً في وجه الأعداء.. وعند الشدة ينكشف أصحاب المصالح عن بعضهم.. وقد يتبرؤون من أصدقائهم.. بينما يتماسك الإخوة المؤمنون في السراء والضراء فيتناصرون ويتزاورون ويؤثر أحدهم إخوانه على نفسه.. فإن نزلَ به خطب كان واثقاً من مساندة إخوانه.

لعلي أتكلم وأعيد وأكرر.. لكن الأخوة في الله أحلى وأعظم من أن توصف.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾..

فالأمر دقيق ولا مجال للعبثِ فيه، وعليكم أيها المؤمنون أن تكونوا في منتهى اليقظة والحذر من هؤلاء الذين تمرسوا على المكر والخداعِ.. فلعلهم أظهروا التوبة متربصين الفرص.

ونكث الحبل أو الغزل: ضد إبرامه وهو نقض فتله وحل الخيوط التي يتألف منها.

والأيمان: هي العهود. وكان المتعاهدان يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر ويؤكدونها بالأيمان.

﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ بالاستهزاء وصد الناس عنه.. وهو أمر غير الاختلاف في الدين.. إذ إن الاختلاف في الدين محترم في الإسلام لكن من يمارس الطعن في الدين إنما يكونُ قد أعلن الحرب وبدأها بلسانه.

تأمل مثلاً في توجيهات القرآن: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٠٨]. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢/١٤٨] ..﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١٠٩/٦].

واحترام الآخر لا يعني ترك البحث عن الحقيقة ومعرفة الميزات والنقائص في العقائد.. فذلك بحث علمي للوصول إلى الحق لا يلجأ الباحث فيه إلى الطعن والاستهزاء. ومع ذلك فإن الآية تؤكد على السبب الحقيقي لقتالهم وهو أنه لا عهود لهم: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن نقضهم ومكرهم.

إن هؤلاء الذين لا عهود لهم يُحْتَاجُ إلى الشدة والحزم في التعامل معهم.. وكلمة﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فيها بيان لمقصد القتال: وهو إيقاف الغدر والنقض.. وقد يكون في ذلك إنقاذ لهم من شِرْكهم لأنهم محكومون بعصرهم، ولعل السبب في كفرهم هو استخفافهم بقوة المسلمين.. فإن رأوا الإسلام متمكناً ودولته قوية وظاهرة على من حولها ..﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن شركهم وكفرهم.

ونلمس في الآية تحذيراً من تشوش النية، أو أن يخالطها الحقد والرغبة في التنكيل أو سلب الغنائم.. وهو أمر امتاز به الإسلام؛ إذ جعل الحرب ضرورة مقيدة بمنع الأذى والفتنة. انظر مثلاً كيف يؤكِدُ التحذير في سورة أخرى: ﴿فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٤].

٦- كشف النوايا وتمحيص النفوس لله

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾..

والتكرار من أساليب البلاغة، وهو من أعظم أسباب التأثير والإقناع.. ولهذا يستخدم كثيراً في الإعلان. وهو هنا يوحي لنا بثقل التردد والتهيب في نفوس المؤمنين من الإقدام على هذه الخطوة. فيأتي التكرار لمزيد من البيان بأن الحكم يدور مع مقصده وضمن الظروف التاريخية التي اقتضته..

والآية تسوق المبررات وتذكر المؤمنين:

أولاً: بغدر هؤلاء ونقضهم للعهود..

ثانياً: يستجيش الذكريات في النفوس ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من بلده مكة وهي البلد الحرام.. وقد مكروا به حينها ليثبتوه - بالقيود والأغلال - أو يقتلوه أو يخرجوه.. فعصمه الله من كيدهم وأمره بالهجرة إلى المدينة..

ثالثاً: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ فقد كانوا البادئين في القتال في بدر بعد أن علموا بنجاة العير (قافلة التجارة) لكنهم قالوا: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيمَ عليها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً»[1].

رابعاً: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فهل التردد منبعه الخوف والجبن؟.. وهو ما يستنكره الله عليهم، فالمؤمن يخشى حساب الله أكثر من أي شيء آخر..

---

(١) راجع البداية والنهاية ٣/ ٢٦٦ والكلام لأبي جهل الذي نجح في دفع قومه إلى الحرب.

وهو سؤال ينبغي للمسلم في كل عصر أن يوجهه لنفسه ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؟ والضغط الاجتماعي قد يغلب على النفوس.. فالإنسان قد يخاف من التصريح بالمعارضة ويخشى النقد.. والجهر بالحق يحتاج إلى قوة في العلم والإيمان.. والالتزام بالحق يحتاج إلى شجاعة أكبر بحيث ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]. والقرآن يلح على المؤمن أن يعيد النظر ويتفحص دوافعه حتى تكون الأولوية لله وإلا وقع في الشرك. ويؤكد الأمر بالقتال مع الوعد القطعي بنصرِ المؤمنين:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ولقد قضت سنة الله في الحياة أن من يخالف وينقض العهود لابد أن يجني العذاب المادي والنفسي - الذي فيه الخزي - وأن من ينصر الله ينصره ..﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهي إشارة إلى الذين غدر بهم المشركون مثل خزاعة التي أغاروا عليها ليلاً منتهكين صلح الحديبية.. وإشارة إلى المستضعفين من المؤمنين الذين عجزوا عن الهجرة فوقع عليهم التعذيب والاضطهاد إلى يوم الفتح.. وغيرهم كثير..

ويؤكد على الموضوع ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فالشفاء والصحة النفسية هما مقصد من مقاصد الدين.. لأن النفس المشحونة بالحقد والغيظ تفقد استقرارها ولا تتذوق حلاوة الإيمان وسكينته.. وإنما تتسم تصرفاتُها بالتشنج. والإسلام واقعي؛ إذ يعترف بما يلابس النفس من مشاعر سلبية تجاه الظالم الغادر.. لذلك كان تحقيق العدل مقصداً هاماً من مقاصد الدين. ولا يغيب عن أذهاننا أن هناك منزلة أعلى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].. لكن لا يصل المؤمن إلى الإحسان إلا بعد أن يجتاز مرحلة العدل ويصبح قادراً على نيل حقه أو الاقتصاص ممن ظلمه.. عندها يمكن له أن يرتفع ويختار العفو والإحسان..

ولهذا تصرح الآية هنا بأن الله قد مكنكم من عدوكم فخذوا حقكم منه.. فإن هذا سيعيد الصحة والسكينة إلى قلوبكم.. ثم يشير إشارة هامة ولطيفة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فلا يشترط أن يتم شفاء القلوب بقتل العدو - وتصفية الآخر - بل هناك ما هو أفضل.. فلئن تاب هؤلاء - الذين تقول عنهم الآيات إنهم أئمة الكفر - فسيربح الجميع ولا يخسر أحد.. وقد تكون الآية ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ منبهة للمؤمنين أيضاً؛ فهم محتاجون إلى التوبة من الحقد كي يصلوا إلى القلب السليم.. وفيها أيضاً إشارة للمؤمنين الذين ترددوا في القتال رغبة في أن يهتدي أقرباؤهم ومن يحبون من عشيرتهم.. إلى أن هذه الإجراءات من شأنها أن تعجل في توبة من كان فيه خير.. ولا يحل العذاب إلّا على المعاندين المتمسكين بغدرهم. ولا تنسوا أن الله ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

على كل حال فإن السعادة بتوبة الظالم هي أعظم بكثير من التشفي بسقوطه وخذلانه.. وهو ارتقاء نفسي لا يصل إليه إلا من طور نفسه بمزيد من العلم والصلة بالله..

لن أترك الآيتين السابقتين قبل أن أعيد التأكيد على النقاط الهامة الآتية:

١- واقعية الإسلام إذ يواجه المشاعر الطبيعية للإنسان فيعترف بها ويعطيه حقه في أن يقتص ممن ظلمه.. فالعدل مطلب إنساني أساسي.. لكن في الأفق مرتقى أفضل لمن أراد أن يرتقي.. والتفكير في أن يربح الجميع ولا يخسر أحد هو الارتقاء الحقيقي وفيه راحة النفس.

٢- تحدثت الآيتان عن الصحة النفسية وجعلتها مقصداً للأمر الإلهي.. وحري بنا أن ندرس هذا العلم الذي يتنامى الآن ولا نكتفي ببعض ما جاء في القرآن. فلقد قال الله لنبيه ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤]

وقد وعد الناس بأنه سيكشف لهم قوانينه وآياته ﴿فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣] كي يتعلم الإنسان ويسخر أكثر وأكثر.. وآيات الله في الأنفس هي علم الصحة النفسية.. وكلما درسنا فيها أكثر.. كشفنا أن العلاج يمكن أن يتطور بتغير الظروف والمراحل التاريخية. فلئن كان الناس ينظرون بإعجاب إلى البطولات الحربية - في حين من الدهر - فإن الناس الآن بدؤوا يقدرون البطولات الفكرية والأخلاقية - وأصبح السلام أمنية الجميع.

٣- وفهم القرآن لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتعاقبة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الاعتبارات والظروف.. وينبغي الحذر من ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ١٥/٩١] أي مجزءاً يناقض بعضه بعضاً.. ففي الآيات أعمال طُلب من المؤمنين القيام بها من إيمان وصبر وثبات وقِتال للمعتدين.. فإن قاموا بذلك أنجز الله وعده وتحقق لهم النصر وخذلان الأعداء وشفاء الصدور.. كذلك ينبغي التمييز بين المواضع التي يأمر الله فيها بالقتال.. وتلك التي يأمر فيها بكف اليد.. وتلك التي يأمر فيها بالدخول في السلم كافة.. وإلا حصل تشويش كبير ووضعت الأحكام في غير مواضعها .

وبعد أن أقامت الآيات الحجج على كون المؤمنين على الحق في هذا القتال ليدرِكَ المنصفون مهما كان اتجاههم أحقية ذلك.. تكشف الآيات عن مبرر آخر لهذا القتال وهو ابتلاء المؤمنين وضرورة إعادة ترتيب الأولويات في نفوسهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾..

أم: تفيد الإضراب والاستفهام مع شيء من الاستنكار. وهنا يتحول

السياق ليتحدث عن حال المؤمنين وما الأنفع لهم. ولا ننسى أن الله كان يُعدُّهم لقيادة البشر في الأرض.. ولولا ما بذلوا وما قدموا من شدة وآلام لما صاروا أهلاً لذلك.

والوليجة: ما يلج في الأمر أو القوم بما ليس منهم (كالدخيلة).. وهي تشمل النية الخبيثة والولاء لغير المؤمنين.. واتخاذ البطانة السيئة. وهو أمر يلتبس على المؤمنين، فقد تختلط الرغبة في هداية الناس والإحسان في معاملتهم.. بالموالاة للكافرين والتي هي محبة وثقة وتناصر وتلاحم. والخطاب في الآية لمجموع المسلمين الذين ينضوي تحتهم بقية من المنافقين ومرضى القلوب وحديثي العهد بالإسلام.. فلقد دخلت في الإسلام بعد الفتح قبائل عديدة.. فلا يعقل أن تترك هذه الجموع دون امتحان.. لتحقيق التطهير والتزكية وترسيخ الشخصية الإيمانية.. وغربلة الصادقين من المنافقين. والبلاء لانهائي.. كالامتحانات الدارسية للمتعلم.. كلما اجتاز امتحاناً جاءه ما هو أثقل منه.. وهكذا كلما اجتاز المؤمن محنة جاءه ما هو أصعب منها.. وتلكم هي سنة الله في الحياة لتقوية بناء الفرد وتحريك إبداعه. فهو ضرورة لتحقيق الارتقاء والإبداع الإنساني و(المحنة التي لا تقضي عليك تزيدك قوة).. ولولا المحن لخمدت طاقات الإنسان.. نرى ذلك في الأمم المنعمة المترفة.. فهي في حالة خمود تهدد بالانحطاط. فإياك أن تغتر بنفسك وتسترخي..! فقد ثبت في الصحيح أن حاطب بن أبي بلتعة وهو من أهل بدر قد زلت قدمه فكتب للمشركين يخبرهم بعزم النبي ﷺ على فتح مكة.. وذلك رغبة منه في أن يحمي أهله وماله في مكة من عدوان المشركين.

وكما يقول مالك بن نبي: إن العقبات مؤشر صحي على حدوث نهضة.. وهي ضرورية لمتابعة الحركة والنمو وإلا استلقى الملاح على مجاذيفه - كما يقول توينبي عن مرحلة ما بعد النجاح-

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قد نقول: طالما أن الله خبير بما يعمل الجميع فلماذا يقول عن الابتلاء في آيات أخرى ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٢]؟!

إن علم الله له جانبان: علم الغيب وعلم الشهادة. وإن الله لا يحاسب الناس بحسب علمه بالغيب كي لا يكون للناس على الله حجة.. وإنما يمتحنهم كي يثبتوا ما يستحقون من مكانة في عالم الواقع (أي في عالم الشهادة) وذلك من عدل الله وكمال علمه بما يصلح للناس وما يفعّل مواهبهم.

٧- لمن عمارة المساجد مع بيان فضل الإيمان والجهاد

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾.

ما زالت الآيات تبين مبررات (البراءة) من عهود المشركين. وقد كان المشركون يقومون بعمارة المسجد الحرام تفاخراً وتنازعاً على الشرف، ويؤدون عبادات الشرك لأصنامهم.. فقد أزيلت الأصنام وانتهى الشرك.. وطهر البيت من كل ذلك.. فأي مبرر للمشركين أن يعمروا مساجد الله..؟! كانت قريش تفتخر بسدانة البيت الحرام وخدمة الحجاج والإشراف على الحج وتجني من ذلك أرباحاً مادية ومعنوية.. وقد آن الأوان لإنهاء هذه الدوافع والأوضاع الجاهلية التي تنافي التوحيد في أعظم مكان وضع للتوحيد (المسجد الحرام).

والعمارة: إما بمعنى حفظ البناء.. أو من العمرة التي هي الزيارة والإقامة المؤقتة.

روي عن ابن عباس: أنه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون

بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ عليٌّ له القول. فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إننا لنعمر المسجد ونحجب الكعبة ونسقي الحاج. فأنزل الله الآية.

وليس المراد أنها نزلت بعد موقعة بدر - علماً بأن أخبار أسباب النزول بحاجة إلى تحقيق أكثر - لكنَّ فيها تصحيحاً لمفاهيم خاطئة.. فشتان بين الإيمان الخالص لله والكفر المليء بالتفاخر.

وقد ورد أن المشركين سألوا بعض اليهود الذين جاؤوا ليحزبوا الأحزاب ضد النبي ﷺ فقالوا: نحن نحمي البيت ونسقي الحجيج ونضيفهم.. فهل نحن خير أم محمد؟ قال اليهود: بل أنتم خير منه. وجاءت الآية تندد بموقفهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٤/٥١].

والذي نستغربه في خبر العباس قول علي: (ألكم محاسن؟)، وهل من إنسان يخلو من محاسن؟! ألم يَقُلِ الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». ربما هي لحظة غضب من علي بعد معركة طاحنة.

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ كانوا يقولون في تلبيتهم (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك).. والمسلمون اليوم لهم عبارات فيها شرك أو سوء أدب مع الله. لكن الآية هنا تنبه إلى أن كفر المشركين كفر صريح معترف به من قبلهم ومجاهر به ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ وهذا غير ما عليه المسلمون الآن من جهل وبعد عن الفهم الحقيقي.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي يفاخرون بها وقد ظنوها تنفعهم ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

وبعد أن أصدر حرماناً من الزيارة بحق طائفة - وهم المشركون تحديداً- يفتح المجال أمام آخرين: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في الآية شروط مفصّلة لمن يعمر مساجد الله.. مما يشعرنا بقداسة المساجد وضرورة الدخول إليها بطهارة وخشوع وتعظيم.. فهي بيوت أقيمت لتكون مراكز إشعاع فكري وروحي وسط صحراء الحياة.. فكيف يهمل المسلمون تنظيفها وتطييبها؟! وكيف يصخبون ويتلفظون بما لا يليق من ألفاظ نابية.. إنها بيوت الله وعلينا أن نراعي حرمة صاحب البيت وجلاله.

والآية توحي بأمرين: إذ فيها نهي عن أن يعمر المساجد غير هؤلاء الموصوفين.. وفيها تقرير لحقيقة وهي أن أصحاب هذه الصفات هم الذين يهتمون بعمارة المساجد والتعبد فيها.

والصفات الخمس المذكورة قد جمعت بين جانبي الإيمان: طهارة الباطن - والعمل الظاهر.. ولا تحصل تزكية النفس إلا بطهارة الظاهر والباطن. وكل ذلك يؤكد على ضرورة التجرد لله والتخلص من كل ظل للشرك في الشعور والسلوك..

ثم إن الصفة الأخيرة ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تستوقفنا.. فليس الأمر مجرد إيمان بالله واليوم الآخر كإيمان أكثر المسلمين الآن.. والذين ربما خافوا من كل شيء.. إلا الله.. إنه التحرر من المخاوف النفسية.. وكما قال إبراهيم (عليه السلام) ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٨١-٨٢].. ونلاحظ التعقيب على الصفات بما هو قريب من قول إبراهيم عليه السلام ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾. فمن لم يخش إلا الله حصل على الأمن ووصل إلى الهداية.

ولا ننسى العلاقة الطبيعية بين الواقع وما في الأنفس: فإن تغيير الفكرة = تغيير العمل = تغيير النتائج. وكما يقول صاحب الظلال: (يتوجه القلب وتعمل الجوارح.. ثم يكافئ الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح)

وقوله تعالى ﴿عَسَىٰ﴾ تفيد الرجاء دون الجزم.. حتى لا يأمن الإنسان ويسترخي.. بل يكون في حالة توتر بين الخوف والرجاء فيشمر ويجتهد.. ف «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»[١].

ومن يشتغل ببناء المساجد قبل أن يتصف بهذه الصفات.. فإن كان تائباً يريد التكفير عن ذنوبه فهو أمر حسن.. وإلا فهو التفاخر والرياء.. والله هو العليم بالنوايا..

وقبل أن أنطلق إلى الآيات التالية لابد من تسجيل بعض النقاط:

١- وردت أحاديث كثيرة عن فضل من يبني مسجداً أو يساهم في بنائه من مثل «من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة» (رواه أحمد والشيخان). ولابد من تعميم مفهوم العمارة للمساجد فهي تشمل الجانب المادي والمعنوي.. أما الجانب المادي فلابد من مراعاة توفير الحاجات الضرورية دون إسراف ولا تبذير.. ويحضرني هنا قول الله تعالى عن بعض الأمم السابقة التي هلكت بأن فيها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٢٢/٤٥] فالبئر يمثل للناس حاجة ضرورية وأساسية وأما القصر فهو رمز للإسراف والترف.. وهكذا الأمم الهالكة تنفق بلا حساب على الكماليات وتهمل العناية بالجوانب الأساسية الحيوية.. ولننظر مثلاً إلى مساجدنا حيث نجد المئذنة التي كانت ضرورية في عصر ما قبل

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

المكبرات الصوتية.. تصرف عليها الآن مئات الآلاف.. ولا ينتفع المصلون منها إلا على أنها رمز يميز البناء على أنه مسجد.. وقضية الرمز يمكن توفيرها دون هدر هذه الأموال الطائلة..

بينما تفتقر مساجدنا إلى الوسائل التعليمية الحديثة كالحاسوب وأجهزة العرض التي يمكن أن تجعل خطبة الجمعة - مثلاً - أكثر تأثيراً في الناس.. لكن هذا يتطلب منا إنشاء معاهد لتخرج أئمة للمساجد على مستوى العصر.. قد جمعوا العلوم العصرية إلى العلوم الدينية.. فيجد المسلم لديهم ما يُفعِّل طاقاته بالشكل الإيجابي.. بدلاً من الموعظة التقليدية المكرورة التي تفصل المسلم عن عالمه وتدفعه إلى النوم.. وكثيراً ما يكون الأئمة على حال من الجهل الذي قد يثمر خطباً نارية ترضي العواطف السلبية لكنها لا تسمن ولا تغني من جوع.. ألا يحق لنا أن نسأل: ما الذي قدمته هذه المساجد المشيدة كالقصور لأمة تعاني من التخلف من رأسها إلى قدميها..؟! وهنا تأتي أهمية العمارة المعنوية للمساجد.. فلابد أن يعود للمسجد دوره الحيوي في الأمة.. فلقد كان المسجد منارة للعلم والتعليم ومركزاً للتواصل والتكافل الاجتماعي.. ومجلساً لأهل الحل والعقد يتداولون فيه أحوال الأمة.. فيه تعقد الزيجات.. ومنه تنطلق حركات التحرير والإصلاح؛ ومنه يتخرج العلماء والفقهاء.. فأين نحن من ذلك كله؟! ولا أنكر الأعمال المباركة التي بدأت تعود إلى كثير من المساجد من دورات تعليمية للأطفال والشباب في العلوم الدينية؛ فهي نسائم خير قد بدأت تنعش الأمة نرجو لها مزيداً من التقدم والتطوير.

٢- ورد عنه ﷺ قوله: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» وتلا الآية (رواه أحمد والترمذي) لكنني أجد نفسي في حالة من الحسرة على تلك الجماهير التي لم تعد تمارس من دينها إلا الطقوس..

فأين العبادات الاجتماعية.. وأين جوهر الدين؟ فلم يعد بالإمكان أن تشهد بالخير لكل من (يعتاد المسجد).. فقد عزل السوق والبيع والشراء عن المسجد.. ولا ترى للعبادة أثراً في أخلاقه في البيت أو الشارع.. وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر.. حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[١] فلقد فصلنا -بل بترنا- حياتنا عن روح الدين كما فعلوا حين حبسوا الدين في الكنيسة. ولهذا أحس أننا قد أكثرنا -في بعض المناطق- في بناء المساجد على حساب حاجات كثيرة وحيوية للأمة لا نجد من ينفق عليها.. من مثل إنشاء المدارس والمشافي والمراكز العلمية ومراكز العلاج لمشاكل الأسرة والأمراض النفسية والاجتماعية.. كمشاكل العاطلين عن العمل.. وإعادة تأهيل المتسولين..!؟

٣- هل للمرأة نصيب في هذا الموضوع.. أم أن المساجد للرجال؟!

إن مجرد هذا السؤال يدل على مرض وفهم سقيم للإسلام.. ألم يقل ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».. ألم تكن النساء تشهد الصلوات والخطب وحلقات العلم في المساجد؟ وإن خروج المرأة لطلب العلم في المسجد عبادة.. ولا يمكن لأحد أن يماري في أجرها عند الله طالما أنها تخلص النية لله وتلتزم الحشمة المطلوبة في الإسلام.. فإن قالوا: إن رسول الله قال: صلاتها في بيتها أفضل.. ففي ذلك رحمة بها وبأطفالها.. إذ لم تفرض عليها صلاة الجماعة في المسجد.. وفي ذلك تنبيه وإشارة بالدور العظيم الذي تقوم به المرأة في البيت من رعاية الأسرة زوجاً وأولاداً.. فهي التي تؤسس الأفكار في العقول وهي التي تبني شخصية الإنسان للأمة.. أفلا يكون هذا أفضل من مجرد حضور صلاة في المسجد؟! إن هذا يرفع من معنويات الزوجة والأم إذ يشعرها بالتقدير

---

(١) رواه البخاري.

والأجر عند الله على عمل ما زال الناس يبخسونه حقه.. حين يقولون (لا عمل لها) إذا كانت متفرغة لشؤون أسرتها.. فهل تتصورون عدد الوظائف التي تؤديها المرأة في البيت؟ إنها مشرفة نفسية ومدبرة اقتصادية - حاضنة للأطفال- ومربية لهم - وممرضة لمن يمرض - ومعلمة لمن يدرس - وتطبخ وتنظف وتكوي.. وتعالج المشاكل بين أفراد الأسرة فتعيد التواصل.. وتمنح الحب وتروي العواطف.. وتشد أزر كل من يقع في مشكلة وتدعم كل ضعيف في الأسرة.. و...

وتصوروا أيضاً مدى خسارتنا حين تكون هذه المرأة جاهلة أو فاقدة للمبادئ والقيم..

ولعمري إن ما نراه من تخلف في حياتنا يعود معظمه إلى إهمالنا تأهيلَ المرأة لهذه الأدوار الحساسة.. بل بلغ الخطأ بنا حداً أقنعناها فيه أن تتخلى عن كل ذلك لتخرج إلى أعمال يبحث عنها العاطلون عن العمل من الرجال.. وتنوب عنها (السيرلانكية) الجاهلة لغة وديناً وحضارة..؟!

وهذا لا يعني أن تكون المرأة خادمة في البيت.. بل إن الفقهاء قالوا: إنها غير مسؤولة عن الخدمة في البيت ولا حتى عن رضاع أطفالها...! وهو كلام نظري لا يتفق مع مصلحة الطفل، ولا يشعر بالدور العظيم الذي تقوم به المرأة في الأسرة.. وكأنها متعة للرجال فقط. ولذا لا بد من التحرر من كل هذا الإفراط والتفريط، فالمرأة شريكة للرجل في الخلافة في الأرض ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٨] ومسؤولة عن تطوير الأسرة. وهو ما سماه الرسول ﷺ «حُسْنَ التبعل» وجعل أجره كأجر الجهاد والشهادة في سبيل الله.

ويمضي السياق القرآني في التمييز بين البر الحقيقي المطلوب وبين أعمال تنازعوا عليها في الجاهلية حرصاً على الوجاهة والشرف:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

روى مسلم أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في هذه الأعمال أيها أفضل.. فنزلت الآية. وفي الحديث «كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت»[1] وهي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام - وذريته من بعده - وقال النووي: سقاية العباس موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الماء ليشربه الناس، وبينها وبين زمزم أربعون ذراعاً. وقد حكى الأزرقي - في كتابه تاريخ مكة - أن السقاية حياض من أدم كانت على عهد قصي بن كلاب توضع بفناءِ الكعبة و يستقى بها الماء، وجعل قصي عند موته أمر السقاية لابنه عبد مناف وتوارثها أولاده..

ونلاحظ أن الكلمة كانت اسماً لإناء (جعل السقاية في رحل أخيه) فأصبحت حرفة وعملاً. وقد افتخر بها العباس قبل إسلامه كشأن الجاهلية.. وقد أبطل الإسلام فخر الجاهلية.. وأعتقد أن الاستنكار في الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ منصب على الاستكبار والافتخار بهذا العمل؛ وذلك مثلما ورد عند الآية ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٧] أن الضمير (به) يعود على المسجد الحرام.

وإن المشركين قد دنسوا الفضيلة الحقيقية التي بني المسجد الحرام لأجلها وهي التوحيد وصدوا المؤمنين عنه ثم أخرجوهم من البلد الحرام؛ فأي ميزة تبقى مع هذه الجرائم.؟! هل هي خدمة حجارته واحتكار مفاتيحه وسقاية المشركين فقط من حجاجه..؟!

(١) ابن ماجه ٢٧٣٠، مسند الإمام أحمد ٤٣٥٥، أبو داود ٤٥٤٩.

حين أتأمل هذه المعاني في الآية أتذكر فخر الأمم المستكبرة في عالمنا بحقوق الإنسان والديمقراطية وهيئة الأمم المتحدة.. فهل تنال الأمم الضعيفة شيئاً من كل هذا التبجح..؟ أم إنها حقوق المستكبر فقط.. ولهذا يعقب الله بعد أن نفى الاستواء ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.. إنه الامتيازات و(الفيتو) وهو الشرك الأكبر في عالمنا .﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٣] .

ويزيد الأمرَ بياناً بعد نفي الاستواء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾.

يبشرهم برحمة خاصة تنزل بالمؤمنين.. إضافة للرحمة العامة التي ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٦].

والرضوان: زيادة في الرضى.. (كما زِيدَ في اللفظ بالألف والنون). وقد ورد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (رواه الشيخان).

وفي الآيات فوائد منها:

١-العمل الناجح المقبول من الله ما اجتمع فيه الإخلاص لله والصواب.

٢-الأعمال الصالحة منها الحسن ومنها ما هو أحسن. والإشارة في

الآية واضحة (أعظم درجة)؛ فالأحسن هو الذي ينال الدرجة الأعظم.. ويمكن أن نأتي بأمثلة كثيرة: فطلب العلم أفضل من صلاة التطوع. وتعليم الناس والسعي في قضاء حوائجهم المشروعة أفضل من الاعتكاف.

وقد أشار النبي ﷺ إلى أن أفضل الأعمال هو حسن الخلق - وذلك في أحاديث كثيرة - وقد خرج النبي ﷺ مرة في سفر فصام أناس وأفطر آخرون فوقع الصائمون وقام المفطرون بالأعمال. فقال ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»[١].

والموضوع بحاجة إلى إعمال الفكر في الظروف كلها التي يحياها الإنسان ليختار في لحظة معينة ما هو أحسن الأعمال؟ فاختيار الأحسن هو المراد من حياة الإنسان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢] فلابد من البحث عن الأحسن والأفضل.. وما يكون أَحْسَنَ في ظرف معين قد لا يكون كذلك في ظرف آخر.. فبناء المساجد يكون أولى حين يكون الحي خالياً من مسجد.. لكن بناء معمل لتشغيل العاطلين عن العمل يصبح هو الأحسن في ظرف آخر تعاني الأمة فيه من العطالة والبطالة.

٣- في الآية أعمال ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ منها الثابت ومنها المتغير بحسب الظروف. أما الإيمان فهو ثابت وضروري في كل وقت. وأما الهجرة فقد قال رسول الله ﷺ بعد فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح» وفسرها بأنها تصبح في ظرف معين مجرد ترك المعاصي (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)، وأما الجهاد فيحتاج منا إلى وقفة تأمل وتدقيق.. لكن نعجل بالتسليم بشرطه الأول والذي نصت عليه الآية ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.. فلا بد أن يكون خالصاً لله تعالى.

---

(١)مرواه البخاري ومسلم.

مفهوم الجهاد

ترى كيف فهم المسلمون موضوع الجهاد؟

كنت قد سمعت تزكية للموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت (١). فراجعت فيها عنوان (الجهاد) فوجدت ما يلي:

[الجهاد اصطلاحاً: قتال مسلم كافراً غير ذي عهد بعد دعوته للإسلام وإبائه إعلاءً لكلمة الله]؟!

(المراجع: فتح القدير - الفتاوى الهندية - الخرشي - جواهر الإكليل - شرح الزرقاني على الموطأ- حاشية الشرقاوي - حاشية الباجوري).

وجاء في الموسوعة أيضاً: [حكمة تشريع الجهاد: القصد من الجهاد دعوة غير المسلمين إلى الإسلام أو الدخول في ذمة المسلمين ودفع الجزية وجريان أحكام الإسلام عليهم، وبذلك ينتهي تعرضهم للمسلمين واعتداؤهم على بلادهم ووقوفهم في طريق نشر الدعوة الإسلامية..]

وجاء فيها أيضاً: [القتال مع أهل الكتاب أفضل من قتال غيرهم لأنهم يقاتلون عن دين. ويؤيده حديث أم خلاد من قوله ﷺ: «ابنك له أجر شهيدين» قالت: ولم ذاك يا رسول الله؟! قال: «لأنه قتله أهل الكتاب»] والحديث أعلّه المنذري بضعف راويين فيه. ومع ذلك فقد استخرجوا منه حكماً شرعياً غريباً.. وهو أفضلية قتال أهل الكتاب..!!

---

(١) وكانت أجزاؤها لم تكتمل بعد عندما اطلعت على بعض ما فيها أثناء عام ٢٠٠٣م.

ألا يحق لي أن أتساءل: أهذا هو أفضل ما وصل إليه اجتهاد علماء المسلمين الآن؟! وأين كلام العلماء الذين قالوا: القتال لرفع الظلم وليس من أجل الكفر.؟! وكيف نلوم المتطرفين وهم يستقون أفكارهم من هذه المراجع وأمثالها..؟!

سأرجع إلى المعنى اللغوي لكلمة الجهاد في المعجم:

[جَهَدَ - جَهْداً: جدَّ، وبلغ المشقة. وجَهَد في الأمر: طلبه حتى بلغ غايته في الطلب. وجَهَد دابته: حمل عليها في السير فوق طاقتها. وجهد المرض أو التعب أو الحب فلاناً: هَزَلَهُ.

جَهِدَ العيش - جَهَداً: ضاق واشتد فهو جَهِدٌ.

وجُهِدَ القوم: وجدوا مشقة فهم مجهدون.

والجَهْدُ: المشقة. والغاية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٩] أي غاية اجتهادهم.

والجَهْدُ: الوسع والطاقة. يقال: اجتهد جَهْدَكَ أي: ابلغ غايتك. (وكذلك الجُهْدُ).

وجاهد العدوَّ مجاهدة وجهاداً: قاتله وبذل وسعه في المدافعة والمغالبة. فهو مجاهد.

والجِهادُ: القتال في سبيل الله. وجهاد النفس: محاربة شهواتها.

واجتَهَدَ: جدَّ وبذل ما في وُسعِه. واجتهد في الأمر: بذل وسعه وطاقته في طلبه ليصل إلى نهايته. والمُجْتَهِدُ: الكثير الاجتهاد. والذي يستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها][١].

فالجهاد هو بذل الجهد.. فمنهم من يبذل جهده في تزكية نفسه.. ومنهم

---

(١) المعجم المدرسي - محمد خير أبو حرب - تدقيق ندوة النوري.

من يبذل جهده في التعلم والفهم لآيات الله حتى يصبح مجتهداً.. ومنهم من يبذل جهده في الدعوة والتعليم والتوعية فهو الجهاد الفكري الذي أمر الله به ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٥٢] و﴿بِهِۦ﴾ أي بالقرآن .

ومنهم من يبذل جهده في رعاية والديه فيصبح باراً بهما.. وهو ما أمر به النبي ﷺ رجلاً أراد أن يخرج للقتال ويترك والديه - ويبدو أنه وحيدهما - فقال «ففيهما فجاهد»[١].

ومنهم من يجاهد في طلب الرزق الحلال ليعيل نفسه وأهله.. ومنهم من يجاهد بماله فينفقه في وجوه الخير.. فالجهاد باب كبير وجزء منه القتال.. وهو ما ينبغي لنا أن نفهمه ونضعه تحت المجهر حتى نفهم ماهيته وحدوده وشروطه وأبعاده.. ولهذا لابد من تحديد الجواب على أربعة أسئلة: لماذا؟ ومن؟ ومتى؟ وكيف؟

١- **لماذا القتال**: يدرس عبد الرحمن حللي هذه المسألة بتتبع الآيات التي نزلت في القرآن وذلك في كتابه (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم) وسأذكر مقتطفات من بحثه فيما يلي: (مختصراً) [أول ما نزل من القرآن في القتال بعد الهجرة إلى المدينة على ما عليه جمهور المفسرين والرواة آيات سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٢٢/٣٩-٤٠] تضمنت الآيات الإذن بالقتال وعللته بما مني به المسلمون من الظلم وما أكرهوا عليه من الهجرة والخروج من الديار بغير حق.. فالآيات تقرر بكل وضوح أن القتال شرع بسبب الظلم الذي تمثل بمظهرين: الأول: انتهاك حرية التمتع بالاستقرار في الوطن وتقرير

(١) رواه البخاري.

المصير فيه.. الثاني: انتهاك حرية الاعتقاد والحرية الدينية ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٢٢/٤٠].. الآيات التالية التي نزلت في شأن القتال هي ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٩٠-١٩٣].. فالآية تتضمَّنُ قانوناً يضبط مسار القتال بين المسلمين وغيرهم كما يلي:

١- الأمر بقتال المقاتلين فقط.

٢- الاستمرار في قتالهم بالمثل.

٣- وقف القتال في الأشهر الحرم إلا على سبيل المقابلة.

٤- الأجل الذي يستمر إليه القتال هو انتهاء المعتدين عن موقفهم.

٥- إذا حصل الظلم ثانية فإن القتال يستأنف.

٦- الاعتداء يقابل بمثله في أي وقت...

ثم تأتي آيات سورة البقرة التالية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦-٢١٧]... الآيات واضحة في تقريرها وجوب القتال الذي يتحقق به رد الظلم والعدوان المتمثل بإخراج الناس من أوطانهم وفتنتهم عن الدين..] [١]. ويمضي المؤلف في تتبع آيات القتال بحسب تسلسل نزولها

---

(١) صفحة ١٣٠-١٣٦ من كتاب (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم) عبد الرحمن حللي.

زمنياً.. حتى يصل إلى آيات القتال في سورة التوبة وآخرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ٩/١٢٣] فيقول: [هي آية مطلقة تقيد بالآيات الأخرى المقيدة.. ذلك لأن المراد بكلمة الكفار ونظائرها إذا أطلقت في القتال هم المحاربون المعتدون]. وينتهي المؤلف بعد بحثه إلى النتائج التالية:

[١- لا توجد آية تشير إلى أن القتال شرعَ لحمل الناس على الإسلام.

٢- القتال شرع لرفع الظلم الواقع على المكلف.. وإنقاذ المستضعفين.

٣- من أسباب القتال منع الفتنة وأن يكون الدين كله لله؛ وذلك بمنع الاضطهاد وتأمين الحرية للناس][1] والسنة النبوية توضح بجلاء بأن القتال مع المشركين لم يكن من أجل كفرهم، بل لمنعهم من الظلم والغدر.. وقد أمر الله المسلمين بالوفاء مع الذين التزموا بعهودهم من المشركين.. بل إنَّ النبي ﷺ حين فتح مكة لم يُكْرِه أهلها على الإسلام؛ بل فرض عليهم نزع السلاح والدخول في السلام.. وقال لهم: «من دخل داره فهو آمن؛ ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن؛ ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».. ثم قال لهم بعد أن دخلها منتصراً واستسلم المشركون لحكمه.. «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ومن الواضح أن القتال لا ينهي مشكلة الكفر.. بل قد يتحول المهزوم بسببه إلى النفاق وهو أسوأ من الكفر.

٢- **متى القتال**: مما سبق نفهم أن القتال سمح به بعد أن تشكل المجتمع المسلم الراشد دون إراقة دماء.. فقد بايع الأنصار النبي ﷺ

(١) صفحة ١٤٧ من المصدر السابق.

ليحكم فيهم بشرع الله. ووقع يهود المدينة وما حولها مع النبي ﷺ عهود التعايش والتضامن لحماية المدينة ضد أي هجوم.

وعندها ظهر تصميم المشركين على القضاء على هذا المجتمع وكانوا هم البادئين بالقتال.. وانضم إليهم اليهود بالكيد في الخفاء في البداية.. ثم بنقض العهود مع النبي ﷺ علناً.. هنا كان لزاماً على هذا المجتمع الوليد أن يدافع عن كيانه أولاً.. ثم أن يتصدى لكل من يمارس الظلم والفتنة والغدر بالناس.. لأنه يحمل رسالة خلاص وتحرير للناس كافة.

ولابد أن نلاحظ أن القتال كان في ذلك العصر وفي تلك الظروف الأُسلوب الأكثر شيوعاً لحماية حرية الدين وكيان ذلك المجتمع الوليد؛ الذي مثل أمل الإنسانية في إقامة العدل وتحقيق الرقي الفكري والخلقي للإنسان مع حماية حريته في اختيار الدين، فهو وسيلة وليس غاية مقصودة بحد ذاته، والوسائل تتغير مع التطور بمجيء ما هو أنفع للناس.

٣- من يقاتِل ومن يقاتَل: سؤال مزدوج يتضمن شرطين: في المقاتِل وفي المقاتَل.. أما شرط المقاتِل.. فينبغي أن ندرك أن الأمر بالقتال ليس كالأمر بالصلاة.. إذ بينما يكلف كل فرد مسلم بإقامة الصلاة وهي مسؤوليته شخصياً.. فإن الأمر بالقتال متوجه إلى الحاكم في مجتمع راشد[١].. قد وصل إلى الحكم باختيار واع للناس فهو الذي يستنفر الناس للقتال في الوقت الذي يحدده هو ومستشاروه وفق مصالح الأمة. وليس لأي مسلم أن يتولى هو إعلان القتال، مثلما أنه ليس من حقه أن يقيم الحدود ويعاقب على الجرائم.. وإنما هي من واجبات الحُكم.

---

(١) مع الأخذ بالاعتبار أن مفهوم الحكم قد تغير مع الزمن، ولم يعد هو الحكم الفردي، وإنما صار الحكم لهيئة أوسع تشمل السلطات المتعددة ومؤسسات المجتمع المدني.

وأما من يُقاتل: فهو الذي يمارس القتل والتهجير للناس لإكراههم في الدين. وهو ما نصت عليه سورة الممتحنة ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨-٩] وعلى هذا الأساس أقول: لا يجوز لأحد أن يقاتل قبل أن يصنع مجتمع الرشد لأمته بحيث يرفع الإكراه وينتخب الحاكم بإرادة الناس.. فعلينا أن نحرر أمتنا أولاً من الظلم والإكراه وبالطرق السلمية التي مارسها محمد ﷺ - وسائر الأنبياء - إلى أن أقام مجتمعاً راشداً. بعد ذلك يمكن الالتفات إلى العدو الخارجي والاجتهاد للوصول إلى أفضل الطرق لمقاومته. ولا يخفى أن التيار السائد قد بالغ من أهمية المقاومة المسلحة على حساب ما هو أشد وأعظم أثراً - على المدى الأبعد - وهو المقاومة الفكرية الثقافية وهي التي تنتج مجتمع الرشد.

٤- **كيف يقاتل المسلم؟** إن القتال الذي يمارسه المسلم محكوم بشروط أخلاقية لابد من الالتزام بها ولو لم يتلزمها العدو ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٦]؛ فالمسلم لا يجوز له أن يقاتل إلا المحاربين.. فلا يقاتل المدنيين ولا الشيوخ والنساء والأطفال ولا يجوز له أن يخرب البيئة ويهلك الحرث والنسل.

لكن الأسلحة المعاصرة لا تتحقق فيها هذه الشروط.. وقد أفتى عدد من العلماء بحرمة السلاح النووي لأنه يحرق الأخضر واليابس ويلوث النبات بالإشعاع القاتل ويضرُّ بحياة الحيوان - عدا عن آثاره المريعة على الإنسان-.

مما سبق نستنتج:

١- أن الجهاد باب واسع وهو كما وصفه النبي ﷺ «ذروة سنام الإسلام» لأنه البرهان العملي على صدق إسلام المسلم.. فهو يبذل جهده في سبيل دينه.

٢- إن القتال المسلح هو جزء من الجهاد وهو أمر مرتبط بشروط.. فقد يكون في بعض الظروف مأموراً به.. وفي بعضها الآخر منهياً عنه. فكيف يمكن معرفة حكمه عبر الظروف المتغيرة؟

٣- كل الأدلة الشرعية تفيد بأنه مقيد قبل تأسيس المجتمع الراشد المتحرر من أساليب الإكراه.. ثم إن معرفة الحكم المناسب لكل ظرف تحتاج إلى رسوخ في مقاصد الدين ومعرفة بالواقع وما يحدث فيه من أسباب وعواقب.

٤- لابُدَّ من تشكيل لجانٍ من الباحثين لدراسة التجارب التاريخية والمعاصرة وما وقع من حروب؛ وما تَمخَّضَتْ عنه من نتائج.. لابُدّ من الدخول فيما يُسَمَّى «دراسة الجدوى» في الموازنة بين المصلحة والمفسدة، وسبرِ التجارب الإنسانية كلها وتأمُّلِ الحروب التي قامت لمقاومة الاحتلال الأجنبيّ.. ومقارنة ذلك مع ما أثمرته الحركات السلمية البنائية بعد الحرب العالمية الثانية كما حدث في اليابان وألمانية مثلاً.

٥- أما ما نراه من تكفير الآخر المخالف في الرأي.. وما نسمع من كلام دارج (الكافر حلال دمه) فلا أصل له في الدين.. بل هو خروج على مبادئ الدين وأسسه في تكريم بني آدم.

٦-كيف نفهم إذن ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠]؟

لابد أن مجيء كلمة (قوة) هنا من دون تعريف يوحي بالعمومية والإطلاق.. فإن القوى على أنواع ولكل عصر قوته.. ولئن كانت القوة في

عهد النبي ﷺ هي (الرمي) - كما ورد في الحديث - فإن العلم هو قوة هذا العصر.. الاقتصاد والسياسة والتخطيط والإعلام وعالم الاتصالات.. الصناعة والعلوم الإنسانية.. هذه بعض العلوم التي تعطي للأمم الآن امتيازاً وتفوقاً.. أما قوة السلاح فستخسر والحرب ستتلاشى في العالم مع زيادة الوعي.. وإن الدول العظمى قد نبذت الحرب - باستثناء أمريكة - ولا يتقاتل الآن إلا الأمم الجاهلة وبتحريض من المستكبرين في الأرض لإشغال الشعوب عن النهضة ولاستلاب أموالها ببيعها الأسلحة بدلاً من إتلافها..

٧- ولهذا نصل إلى استنتاج ضروري.. وهو أن القتال وسيلة وليس غاية في حد ذاته، وقد أمر الله به حين كان الوسيلة الأجدى لمنع الظلم وكف الظالمين عن تحقيق كيدهم.. لكن الوسائل تتغير بمجيء ما هو أفضل منها.. وقد أصبح القتال الآن أسوأ وسيلة.. ونتائجه وبيلة حتى على المنتصر.. لقد أصبحت الحروب مصدر بلاء للجميع.. فالخراب والدمار والدماء وتلوث البيئة وتشويه النفس الإنسانية بالحقد والوحشية قد عمّ الأرض... لقد أدرك العقلاء أن الحرب قد أصبحت غولاً بشعاً يكاد يفترس صاحبه ومربيه.. فتنادوا لنبذها.. فكيف بنا ونحن ندعي أننا خير أمة أخرجت للناس.. نسعى لإنقاذ العالم.. فكيف نفكر فيها..؟!

٨- خطر ولاء المؤمنين للكافرين

وتمضي الآيات في تجريد المشاعر وتمحيصها لله.. فقد كانت العصبية للقرابة نقطة ضعف عند العرب.. ولم تخل نفوس المسلمين من آثارها.. ولهذا يتابع البيان الإلهي في تجلية الأمور، فما ذكرته الآيات السابقة من فضل الإيمان والهجرة والجهاد لا يتم إلا بترك ولاية الكافرين وإيثار حب الله ورسوله والجهاد في سبيله.. على كل حب آخر..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ فماذا تعني كلمة ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؟ هي من الولاء والموالاة.

وهنا نتذكر العلاقات الإيجابية الثلاث التي أمر بها القرآن: العدل - الإحسان -الموالاة.

أما العدل فقد فرضه الله على عباده وأمرهم به مع كل الناس مؤمنهم وكافرهم؛ سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٥/٨] ومن ترك العدل كان ظالماً مؤاخذاً. وهو كلمة السواء بحيث تعطي لغيرك ما تعطي لنفسك من حقوق.

وأما الإحسان: فهو الزيادة على العدل بحيث تعطيه أكثر من حقوقه. ولكن من حقِّ نفسك لا من حقوق الآخرين، ولهذا فإن الله أمر من يحكم بين الناس أن يحكم بالعدل.. أما في التعامل العام مع الناس فإن الله يأمر بالعدل والإحسان ..﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٢/٨٣]. وتارك الإحسان تارك للأفضل.. فهو مقصر وليس آثماً.. فبالإحسان تزدهر جميع جوانب الحياة وترتقي لأنه أداء لمزيد من الواجبات؛ فهو إنتاج أكبر من الاستهلاك؛ ومن المعروف أن الدول العظمى هي التي تنتج أكثر مما تستهلك فأداء الواجبات فيها أعظم من نيل الحقوق.

وأما الولاء: (أو الموالاة) فهو علاقة حب وثقة وتآخٍ وتناصر؛ ولا تكون هذه العلاقة الحميمة إلا بين أصحاب الدين الواحد والهدف الموحد.. فالولاء مؤاخاة في الله، و﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التوبة: ٩/٧١]وفي ذلك إبطال لكل عهود الموالاة التي كان العرب قد عقدوها في الجاهلية.. والتي كانت تربط القبائل فيما بينها بأحلاف

تمنحهم تماسكاً في وجه من يحاول النيل منهم.. بل كان الأفراد يلجؤون إلى مثل هذه العقود لحماية أنفسهم ومصالحهم.. فكيف يمكن لمن آمن بالله واستجاب لأمره أن يتحالف ويثق ويوالي كافراً؟! حتى لو كانوا آباءهم وإخوانهم طالما أنهم ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾..! فكيف يعرف ذلك؟!

إن كلمة ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ تعني أنهم فضلوا البقاء في صف الكفر.. وآثروا سلامة الأبدان على سلامة الأديان .﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم وللمؤمنين. فكيف يكون التعامل إذن مع قرابة من هذا النوع؟!

مرة أخرى نعود إلى الآية ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨/٦٠].. البر والقسط أي الإحسان والعدل؛ وقد بدأ بالإحسان لأنه الأولى في تعامل المؤمن.. وهو أجدر الناس بالتفوق في المعاملة الطيبة..

ولكن الأمر بحاجة إلى بصيرة وحكمة.. والتعامل مع الناس أمر دقيق؛ والخطأ فيه قد يورث نتائج وخيمة.. فكيف بمن تعامل بالموالاة في موضع تجب فيه البراءة.. وكيف بمن وضع الإحسان في موضع يجب فيه العدل..؟! ألم تر كيف فعل ربك بالعراقيين الذين والوا أمريكة وجاؤوا بها كي تنقذهم من الطاغية؟! وهل نسينا كيف طُمِس العدل في عالمنا بسبب (الوساطة) والانحياز للأقارب والأصدقاء - وظنناه إحساناً-؟!

وتتابع الآيات في تجلية الأمر: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فلئن كانت الآية السابقة خاصة فيمن ﴿ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾

فإن الآية هنا عامة في الأقارب كلهم سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين.. ويلحق الله بهم الرغبات والمطامع الدنيوية كلها..

فالقضية هنا هي: من هو الأحب إليك؟ ولابد من إعادة ترتيب الأولويات.. لأن الخلل فيها هو الشرك عينُه.. والتوحيد الحقيقي ليس مجرد الطاعة لله.. بل لابد أن يكون الله أحبَّ إليك من كل شيء.. فهو الذي يملأ عليك قلبك وسمعك وبصرك وبحبه ولحبه تتوجه إلى كل عمل دنيوي .﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وكان العرب يتفاخرون بآبائهم.. وأكبر معوق لهم عن الإيمان بمحمد ﷺ كان هو الخوف من تسفيه الآباء وأحلام الأجداد ..﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢١] فالآبائية مرض خطير يشل التفكير ويمنع الاجتهاد والتجديد.. ولا حياة للأمة إلا بالخروج من (رحم الآباء وأصلابهم).

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾وحب الوالد للولد أقوى فقد يحرم نفسه إيثاراً لأولاده ويبخل عن البذل من أجلهم.

﴿وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾وروابط الدم أصيلة في الفطرة الإنسانية.. لكن كل أمر زاد عن حده انقلب إلى ضده.

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ وهو حب فريد من نوعه ومرتبط بغرائز النفس والجسد. لكنه يأتي في المرتبة الرابعة في هذا الترتيب.. وتتدخل في ذلك الفروق الفردية والثقافة الاجتماعية - في ترتيب الأولويات -.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهو حب عصبية وتعاون واعتزاز. وهي مأخوذة من فعل (يعاشر)، وهي مؤنث (العشير)، وقد كان للعشيرة في الجاهلية مكانة عظيمة، وما زالت لها تلك المكانة عند البدو وعند العرب عامة. وقد تتطرف عند البعض فتعمي أبصارهم.. كما حصل في (النازية) وفي عنصرية اليهود. ولابد أن نقر بأنها كانت مرحلة فرضها التطور الإنساني لحماية

الإنسان من الأخطار بالانتماء إلى عشيرته.. فهي تحميه وهو يذوبُ فيها.. وقد أدت هذه العصبية دوراً إيجابياً في كثير من الأحيان، فقد حمت النبي ﷺ والمسلمين من عدوان الكفار عليهم. وكان لها سلبيات كثيرة.. إذ إن كثيرين منعتهم العصبية من الدخول في الإسلام. ولابد من التمحيص في هذا الأمر حتى نستفيد من إيجابياته ونتحرر من سلبياته .﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها بجهدكم.. وحب الأموال التي تعب الإنسان في تحصيلها أقوى من حب الأموال الموروثة .

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وكثير من التجار يرون أن رواج التجارة يتعارض مع المبادئ الأخلاقية.. وهو خطأ نابع من الاستغراق في النتائج العاجلة.. أما العواقب البعيدة المدى فهي في الأخلاق.. ولن أقف طويلاً عند هذه النقطة.. لأن الآية تؤكد على أن جوهر التوحيد هو أن تكون على استعداد للتضحية بكل شيء طلباً لرضى الله.. ولا ننسى ظروف الحرب التي تهدد مصالح التجار بإيقاف حركة البيع والشراء.. اللهم إلا في سلع معينة - مواد التموين - مثلاً.

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾وحب الإنسان للراحة والدعة في المسكن الذي اختاره يحول بينه وبين مواقف الصدق والبذل.. فالجهر بالحق قد يعرضك للسجن ومصادرة المال والمسكن..

هذه الأنواع الثمانية من الرغبات والمتاع المرتبط بالنعيم الجسدي والنفسي.. من شأنها - لو أعطيت لها الأولوية - أن تصد الإنسان عن كل بذل في سبيل الحق والخير والتقدم..

والآية تجمع كل ملذات الإنسان وكل روابط الحياة فتضعها في كفة واحدة.. وتضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيله في كفة أخرى.. ويترك الخيار للمسلم أن يمحص مشاعر الحب في قلبه ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾.. وليس القصد هو الإعراض والانقطاع عن هذه الأمور الثمانية.. وإنما القصد هو ترتيب الأولويات؛ لأن الله سبحانه وتعالى يأمرك أن تتمتع بكل ذلك وأنت تؤدي دور الخلافة في الأرض.. عليك أن تحسن إلى أهلك وأقربائك وتتمتع في بيتك وأسرتك وتوجهها إلى رضى الله.. وتمارس التجارة والسعي في الأرض للعمارة والإصلاح؛ وأن يكون قصدك من ذلك كله تحقيق دورك الذي خلقك الله من أجله ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠]؛ أما من غفل عن ذلك وأعطى الأولوية لأحد هذه العناصر الثمانية.. فقد وقع في الشرك؛ وهو مهدد من الله في الآية ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ وما هو هذا الأمر الذي يهدد الله به؟

إنها عواقب الدنيا والآخرة فانتظروها.. يا من آثرتم على الله أعراض الدنيا.. انتظروا عواقب الدنيا فإنها ستخذلكم.. لأن الله جعل أعنة الدنيا بيد منهجه ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٤] ولا تغرنَّكم النتائج العاجلة فما عند الله خير وأبقى.. لكن هؤلاء الذين أساؤوا اختيار أولوياتهم لا يفهمون الأمور على حقيقتها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين على سنن الله وقوانينه.. تأمل ما جاء في بحث نفسي (إن كثيراً مما نعرفه من الأمراض العقلية والشعورية معاً في حقيقتها أعراض لإحساس خفي بالخواء وعدم وجود معنى للحياة. إن فلسفة الرجوع العقلاني إلى الإرادة الإلهية تخلص الإنسان من هذا الخواء بمساعدته على اكتشاف رسالته في الحياة ومعناها الرغيد)..[١] ويقول أيضاً: (قد يحرز كثير من الناس انتصارات لا جدوى من ورائها ويحققون نجاحات يتضاءل كثير منها أمام الثمن الذي تم دفعه.. وفي مختلف دروب

(١) صفحة ١٥١ من العادات السبع للناس الأكثر فعالية - ستيفن كوفي.

الحياة نجد أطباء وأساتذة.. ورجال أعمال.. اعترف الجميع بكفاءتهم بعد أن بذلوا جهوداً مضنية من أجل تحقيق دخول مرتفعة، ويكتشف هؤلاء الأشخاص في نهاية الأمر أن اندفاعهم لتحقيق أهدافهم قد ضللهم وأبعدهم عن أشياء وأمور أكثر أهمية ذهبت ولن تعود.. إن السلَّم إذا لم يكن مستنداً إلى الحائط المناسب فإن كل خطوة نخطوها سوف تضعنا على الطريق الخاطئ بشكل أسرع.. وإذا ما درست بعناية ماذا تود أن يقال عنك خلال مراسم جنازتك؟ فإنك سوف تعثر على تعريفك للنجاح)[١].

لكن هل في وسع الإنسان تصحيح الأولويات؟ وهل يمكن أن يصبح حب الله أغلى على الإنسان من كل هذه الأعراض؟ ابتداء لا يطلب الله من الإنسان إلا ما هو في طاقته ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] وإن من رحمة الله بالعباد أن أودع في فطرتهم التطلع إلى هذا الارتقاء.. والنفس الإنسانية لا تتمتع بالرضى والهناء والسكينة إلا إذا غلب عليها حب الله وتذوقت حلاوة الركون إلى مناجاته. وكل منا يعرف أناساً بسطاء توصلوا إلى هذه الحالة التي وصفها الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه»[٢] لكن من يتتبع أحوال الأمم وما نزل بها من عواقب.. ويتعمق في دراسة النفس الإنسانية وما ينتابها من خوف وقلق أو أمان وقوة.. يستطيع أن يتقدم في درب الحب الإلهي برسوخ..

فكيف يعرف الإنسان أنه قد صحح أولوياته؟

هذا الموضوع يتناوله كوفي في كتابٍ له تحت اسم (المركزية).. فالذي

---

(١) صفحة ١٣٧ من المصدر السابق.

(٢) تفرد به البخاري.

تعطيه الأولوية يحتل مركز التأثير في نفسك ويصبح مصدر أمان وتوجيه وحكمة وقوة لك (وغالباً ما يسهل التعرف على مركز إنسان آخر أكثر من قدرتنا على التعرف على المركز الخاص بنا.. ولكن أين موقفك أنت؟ ماذا يوجد في مركز حياتك؟.. وربما تكون أفضل طريقة للتعرف على مركزك هي النظر عن قرب إلى العوامل الأربعة الداعمة لحياتك)[١] ويقصد بها الأمان والتوجيه والحكمة والقوة. أي أن تتأمل ما الذي يمنحك أماناً أكبر - المال أو رضى الزوج أو.. - وتنظر في الذي يوجه سلوكك - أهو مصالح الأسرة أم.. - وتتأمل في الحكمة من حياتك. وما هو مصدر القوة الذي يدفعك للعمل.. ومن العجيب أن هذا الرجل - ستيفن كوفي - يرسم في كتابه صورة لمركزية المبادئ يضع حولها دائرة كبيرة يصنف فيها عشرة قوى[٢] يمكن للإنسان أن يتيه بإعطاء المركزية لأحدها.. مهملاً عنصر المبادئ - فكأنه في بحثه هذا يشرح الآية التي نحن بصددها ويبين كيف أن إعطاء المركزية للمبادئ هو أفضل الحالات للإنسان.

والمبادئ هي الأسس الأخلاقية التي جاءت بها الأديان السماوية. هي جوهر الأديان ولب الأوامر الإلهية.. والتعلق بها وإعطاؤها الأولوية هو برهان الحب لله.

والسبيل إلى هذا الحب الكبير مليء بالمعرفة ودوام الذكر والفكر.. فهو الحقيقة الكبرى وراء كل مشهد أو حدث ..﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].. وما من جمال إلا ويستمد روعته من جلاله.. وما من نعمة أو مصيبة إلا وفيها حكمة ونفع وإن خفيت علينا.

ونتذكر أن الحب متبادل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤] فينتشي المؤمنون بهذا الحب ويتلهفون لهذا القرب.. والله يبسط يديه متودداً

(١) صفحة ١٦٥ من المصدر السابق.
(٢) انظر في الصفحة ١٧٤ من المصدر السابق.

للجميع.. لكن المؤمنين وحدهم يسارعون إلى أبوابه فينعمون.. ومن نعم الله علينا أن يمنحنا فرصاً لفحص أولوياتنا.. وذلك بالابتلاء والفتن لأنها تضع دوافعنا وعواطفنا على المحك.. فهل نركن إلى الراحة أم نؤثر البذل في سبيل الله ..﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢].

٩- سنة النصر (المثال: حنين)

وما زالت الآيات تستحث المؤمنين على قتال الناقضين عهودهم وتزيل التردد من نفوسهم .﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ فلئن أعطيت الأولوية لله فإنه سينصركم.. ألم تروا ماذا حصل في يوم حنين؟ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

يوم حنين: وكان العرب يطلقون على المعارك (أيام العرب).. وتسمى أيضاً: أوطاس نسبة إلى الوادي الذي جرت فيه المعركة. وقد حدثت بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة. فقد بلغ النبيَّ ﷺ أن هوزان قد جمعوا له ليقاتلوه وأميرهم مالك بن عوف النضري وقد انضمت إليهم ثقيف بكاملها. فسار النبي ﷺ إليهم في جيش الفتح - وكان عدده عشرة آلاف - وألفين ممن أسلم من أهل مكة (من الطلقاء). فانطلقوا وقد خالطهم خدر الاطمئنان إلى كثرة العدد حتى قال بعضهم: (لن نغلب اليوم من قلة). وكان عدد المشركين قرابة عشرين ألفاً.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾.. إن (الاطمئنان إلى كثرة العدد أدى إلى الغرور والغفلة.. وكما يقول توينبي: يبدأ النقصان عندما يصل الملاح إلى هدفه فيستلقي على مجاذيفه. الاطمئنان الذي يفقد الإنسان توتره ويقظته هو أول الخذلان.. كان درساً ربانياً يتلقاه حديثو العهد بالإسلام كي يدركوا ضرورة التقوى والحذر وأهمية الفزع إلى الله

في كل حال.. فقد يصبح الكم أكداساً تعيق الحركة - كما سنرى في معاناة الذين كانوا راغبين في الوصول إلى النبي لمناصرته - ولا مخرج من الشدائد والأزمات إلا بوجود النوعية المناسبة في إخلاصها وصوابها وضمن نسبة معينة مقابل عدد الكفار)[١].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

وقصةُ ذلك أن[٢]: مالك بن عوف قد سبق المسلمين إلى الوادي فوزع جنوده في الشعاب والمضائق في كمائن مختفية على أطراف المنحدر إلى الوادي، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح. فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين.. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أين أيها الناس هلموا إلي.. أنا رسول الله.. أنا محمد بن عبد الله». وركبت الإبل بعضها بعضاً.. وتكلم رجال من ضعاف الإيمان بكلام فضح دخائلهم.. وثبت مع النبي ﷺ في هذا الموقف نفر من أهل بيته: علي وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة والفضل بن العباس وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد ورهط من المهاجرين منهم أبو بكر وعمر. يقول العباس: (شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمته أنا وأبو سفيان بن الحارث لا نفارقه. فلما التقى الناس ولّى المسلمون مدبرين؛ فطفق رسول الله يُركِّض بغلته قِبَلَ الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «أي عباس نادِ أصحاب السَّمُرة (أي أصحاب بيعة الشجرة) فوالله لكأنما عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يالبيكاه.. يا لبيكاه.. فاقتتلوا هم والكفار، والدعوة في

(١) صفحة ٥٥٨ من كتاب هدي السيرة النبوية - حنان لحام.
(٢) راجع البداية والنهاية ٤/ ٣٢٦

الأنصار وهم يقولون: يا معشر الأنصار. ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج.. فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليهم إلى قتالهم فقال: «هذا حين حمي الوطيس» ثم أخذ حصيات فرمى بهن في وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد» قال فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم رسول الله ﷺ بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً)(١).

وفي رواية أن العباس لما نادى فأجابوه: لبيك.. لبيك. فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم الصوت.. حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة، فاستعرض الناس فاقتتلوا..(٢) وكان هؤلاء المائة الذين تجمعوا حول النبي ﷺ هم الذين غيروا وجه المعركة من الهزيمة إلى النصر.. بثباتهم وصدق ولائهم لله ورسوله ﷺ.

أقف لأتساءل: هل يمكن أن يحدث هذا؟ أم أن الأمر حدث بمعجزة؟

نعود إلى سورة الأنفال لنتأمل ما يأمر الله به من أسباب للنصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٥-٤٧].

هذه الأسباب لو قدمت لأنتجت ما يشبه المعجزات. وإن نقص منها شيء حدث الخلل كما حصل في أُحد.. وأما هنا في حنين فقد كاد المؤمنون ينهزمون... لكنَّ ثبات قرابة مئةٍ منهم قلب الهزيمة إلى نصر.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) البداية والنهاية ٤/ ٣٢٩.

وأمّا في مؤتة فقد كان الفارق العددي بين الجيشين غير معقول.. فقام خالد بمناورة انسحب فيها بالمسلمين حماية لهم.. ولم يشعر العدو أنه قد هزمهم..

إن الكثرة مضللة.. وكثيراً ما تكون كالزبد الذي يذهب جفاء.. ولا قيمة لها إلا إذا قادتها النخبة العارفة المخلصة.. وهذا ما يذكره توينبي في الحركة التاريخية للأمم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هي السكينة؟

إنها اسم للحالة والهيئة النفسية الحاصلة من السكون والطمأنينة. وقد خصصها الله هنا بالرسول والمؤمنين ولم يقل (عليكم).. فهل حدث هذا قبل النصر؟ ومتى نزلت السكينة؟

إن المؤمن حين يقوم بما عليه من اجتهاد وبذل وثبات أمام المحن.. يرزقه الله السكينة.. فيحس بالركون الآمن إلى الله.. وأن كل ما سيأتي من عواقب سيكون له فيها خير بالشكر والصبر.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ كما حدث في بدر وأحد.. وبحسب فهمي: إن هؤلاء الجنود مهمتهم تثبيت قلوب المؤمنين ودفع الأذى عنهم.. فلا طاقة لأحد بقتال الملائكة.. ولا فضل للمؤمن إن قاتلت بدلاً عنه الملائكة ..﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١/٧٤].. ففي معركة الأحزاب كانت الريح من جنود الله.. ورسول الله ﷺ يقول: «نصرت بالرعب».. وأبحاث الطاقة والأشعة الآن تكشف للناس أن هناك عالماً (غير مرئي) لابد أن يؤمن به الإنسان لما له من آثار واقعية.. ولا يزال الناس يكشفون مزيداً من الأسرار في عالم متنام.. يزيد الله في خلقه ما يشاء.. والله أعلم.

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عذبهم بالقتل والأسر والهزيمة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ وما أعظم هذا التلويح بالتوبة والمغفرة في زحمة هذه الحملات من الإنذار والتهديد.. وفي قلب السورة التي وصفت بالشدة.. ونعرف من السيرة أن هوزان تابت وآمنت بعد الهزيمة - وكان النبي قد رضع فيهم في طفولته - وجاء وفدهم إلى النبي ﷺ بعد انصرافه عن الطائف.. وكان مع النبي من سبيهم ستة آلاف من الذراري والنساء؛ ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عدته.. فأعلنوا إسلامهم وقالوا: يا رسول الله؛ إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منَّ الله عليك. وقال خطيبهم: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك - عند رضاعه من حليمة -..

فقال لهم رسول الله: «معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه؛ فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال؟ وقد كنت استأنيت بكم» - وكان ﷺ قد انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ولم يبادر في قسم الغنائم - فقالوا: نختار سبينا. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيِّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله؛ فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»..[١] وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال لوفد هوازن: «إذا

(١) رواه البخاري.

صليت بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».. ففعلوا ما أمرهم به فقال ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت الأنصار مثل ذلك. وقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.. فقال ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكلِّ إنسان ستة فرائض من أول فيء نصيبه» [(١)] فردوا لهم سبيهم.

حين نتأمل الخبر نرى فيه عجباً.. ما الذي جعل وفد هوازن يسرعون بإعلان إسلامهم؟ لاشك أنهم قد أرادوا أن يستنقذوا ما يمكن استنقاذه مما خسروه.. وربما لم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد..

(ونجد رسول الله ﷺ متعاطفاً مع رجائهم فهو رحيم بالجميع فكيف لا يرحم قبيلة أمه بالرضاع..؟ بل يصرِّح أنه استأنى في قسم الغنائم منتظراً قدومهم مسلمين.. لكنه يبصرهم بأن أمر الغنائم مرتبط بحقوق المجاهدين فيها وأقصى ما يملك أن يتنازل هو عن نصيبه فيها. لكنه ﷺ يدلهم على خطة واقعية توصلهم إلى بعض ما يبتغون.. فلو أنهم طلبوا رد كل شيء لثقل الأمر على المجاهدين.. ولذا خيرهم أولاً بين السبايا أو الأموال. فلما أذعنوا.. دلهم على طريقة مؤثرة تجعل المسلمين يتجاوبون مع رجائهم. وذلك بأن:

١-يعرضوا الأمر بعد الصلاة، والنفوس مرهفة مشحونة بذكر الله.

٢-لقنهم كلاماً حسناً مؤثراً يطرحون به قضيتهم..

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٥٣.

٣-عند ذلك سأعطيكم على الملأ حصتي وحصة بني عبد المطلب، وأُشجِّع الناس..

ورسول الله ﷺ يعلم أن المهاجرين والأنصار لا يتأخرون عن التأسي به في العطاء.. لكنه لا يكتفي بأصوات التسامح والموافقة فلعل رجالاً قد سكتوا حياء ولم تطب نفوسهم فيطلب من عرفاء الناس أن ينقلوا له رغبات الجميع.. حتى لا يشعر أحد بالغبن ولا يكون في صدره شيء يشوش عليه صلته بالله ورسوله. لقد كانت خطة النبي ﷺ رائعة في دفع المؤمنين إلى الخير. فهو يريد لهم الخير والارتقاء.. لكنه لا يكرههم عليه.. يجعلهم يختارونه بملء إرادتهم، ومع ذلك تسمع أصوات معارضة ضمن هذا اللحن الجميل المتناسق.. فهؤلاء زعماء ثلاثة لا هم لهم إلا المال والغنائم.. يبخلون ويضنون.. كانوا صوت الجاهلية الممجوج وسط هذا المشهد المليء بالحب والعطاء المتناغم.. هؤلاء الثلاثة يخرسون أقوامهم ويظنون أن من حقهم أن يكونوا صوت القبيلة.. فالزعيم هو كل شيء ولا حق لغيره بالاختيار أو الكلام. لكن بني سليم قد خرجوا من لعبة الاستكبار والاستضعاف، وعلمهم الإسلام كيف يكون إثبات الذات في الخير والارتقاء، فهتفوا: (بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ) فما أعذب هذا الصوت! إنه النور يعود ليكتسح المشهد من جديد. ولننظر كيف يتعامل الرسول ﷺ مع الرافضين (حزب المعارضة):

١-إنه يعترف لهم بحقهم في الرفض ولا يوجه لهم أي لوم.

٢-الكلمات التي يوجهها لهم ليس فيها ما يخدش كرامة.

٣-يعرض عليهم تعويضاً - مضاعفاً - من أول غنيمة قادمة مقابل ترك نصيبهم من الأسرى.

كانت حصيلة هذا الموقف: - تحرير ستة آلاف رقبة من أن تستعبد. - وشحن النفوس بالمحبة والتآخي والقدرة على التسامي والعطاء. - وحتى

(جبهةُ المعارضة) خرجت راضية قريرة العين بوعدها بالتعويض. وما أبرع رسول الله ﷺ في اختيار الحلول التي يربح فيها الجميع ولا يخسر أحد. هل نقدر على تعلم هذه الصفة؟)(١) ولا ننسى أن هذا الموقف من شأنه أن يثبت قلوب بني هوازن على الإسلام في ظروفهم العصيبة تلك.. ورسول الله ﷺ يستبق التقدم الإنساني ويخرج على قوانين زمانه إلى ما هو أرقى.. ويسحب المؤمنين معه.

وتعبير الله سبحانه وتعالى (يتوب) بصيغة المستقبل فيه إعلام للمؤمنين بأن ما وقع في حنين من إيمان أكثرية المغلوبين.. سيقع مثله لكل الذين يقدمون على قتال المؤمنين بعد هزيمتهم.

ولنا أن نتأمل ما قاله الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) من أن عدد القتلى من المسلمين والكفار في العهد المدني إلى السنة التاسعة للهجرة كان على أكثر تقدير ١٠١٨ قتيلاً. وكانت الحرب من أجل تحرير الإنسان ومنع الظلم. أما الحروب العالمية: الأولى والثانية - وحروب الخليج فكانت للسيطرة على العالم واقتسام الدول الضعيفة، وذهب فيها من الضحايا ما يذهل- ففي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ أصيب حوالي واحد وعشرون مليوناً، قتل منهم ٨,٥ مليوناً تقريباً. وازداد الرقم في الثانية - خاصة إذا أضفنا ضحايا القنبلتين الذريتين اللتين أُلقيتا على اليابان- وحتى الدول التي كانت تنادي بالسلام تسببت في سفك الدماء بتدخلها في شؤون الدول الأضعف. ولم تتوجه الدول العظمى إلى نزع السلاح - وخاصة النووي منه - إلا لأنهم عرفوا أنهم سيُدَمَّرون مع العالم في خلال دقائق. وإن كانوا حتى الآن يغذون الحرب بين الضعفاء لمصالحهم ولتصريف أسلحتهم.

---

(١) راجع صفحة ٥٧١ - هدي السيرة النبوية - حنان لحام.

هذه النظرة ترينا الفارق العظيم بين الجهاد في الإسلام وحروب البشر الوحشية.. فكيف يقال بعد ذلك: إن الإسلام دين السيف.. وإن الإسلام هو الإرهاب؟! فعلى من يضحكون؟!

١٠- المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام

وقد تقدم أن رسول الله ﷺ أمر علياً أن يقرأ على الناس - في الحج - أوائل سورة براءة وأن ينادي بألّا يحج بعد ذلك العام مشرك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾.

النجاسة في عرف الفقهاء ما يجب تطهيره. وقد قال بعضهم بنجاسة أعيان المشركين ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل (أي إذا كان مبتلاً لأن الجاف لا يسبب ذلك). لكن السنة العملية لا تؤيد ذلك بل تنفيه. فالمسلمون كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبي ﷺ ويدخلون مسجده. وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود. ولم يعاملوا على أنهم أنجاس، ولم يأمر ﷺ بغسل شيء مما أصابته أبدانهم، بل توضأ ﷺ من مزادة مشركة - في بعض أسفاره - وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة بن أثال - حين أسر وهو مشرك - بسارية من سواري المسجد.

أما الحديث الذي يأمر فيه بغسل آنية أهل الكتاب والأكل فيها فقد بين أبو داود علته، وهي أنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر فيها. ولهذا أرجح أن (نجس) جاءت بالمعنى اللغوي الشائع عند العرب لا عند الفقهاء.. وهو يدل على الخبث المعنوي وقذارة النفس. فإن صدمنا النص ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فلنتذكر: ما هو هدف المشركين في الحياة؟ وما

هي عبادتهم ومقدساتهم؟ وما هي أخلاقهم؟ وكيف يستبيحون الغدر والفساد في الأرض؟

كنت أقرأ في كتاب عن الحداثة.. وأتعجب من الدرك الفظيع الذي انحدر إليه الإنسان في (ما بعد الحداثة).. مثلاً: صرح فوكو - وكان شاذاً جنسياً - (أن لحظة الانعتاق الوحيدة التي كان يشعر بها هي لحظة ممارسته للجنس الشاذ على الطريقة السادية المازوكية. فهو بذلك يزيل آثار الميتافيزيقا تماماً وظلال الإله، إذ لا يبقى في العالم سوى جهازه العصبي وخلاياه)[١].

وقد كانت بعض القبائل في التاريخ الإنساني تعبد (الأعضاء التناسلية).. وقد انتكست بعض الأمم الآن حين اختزلت حياة الإنسان في المتعة والجنس. فهل ما زالت تصدمنا كلمة ﴿نَجَسٌ﴾؟! ومع ذلك نتذكر أن الله له أن يطلق ما يشاء من الأوصاف على عباده العاصين. أما نحن - المسلمين - فعلينا أن نلتزم بأدب الخطاب الذي أمرنا الله به ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣] ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٣]. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٨]، ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤٣-٤٤].

فلماذا يمنع المشركون من المسجد الحرام؟ هذه أحكام لها علاقة بأمن المجتمع وصيانة الأماكن المقدسة والحرمات فيها.. ولقد أزيلت الأصنام التي كانوا يعبدونها في المسجد الحرام ولن يسمح لأحد أن يطوف عُرياناً - كما كان يفعل المشركون - فما مبرر زيارتهم للمسجد الحرام؟!

---

(١) راجع صفحة ٩١ من كتاب الحداثة وما بعد الحداثة - عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي.

إن الدول الآن تتخذ إجراءات واحتياطات أمن أشدَّ من ذلك بكثير. فلابد من جواز للسفر وتقديم طلب (فيزا) والحصول على تأشيرة موافقة.. الخ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ والعيلة: هي الفقر.. والخوف من انقطاع التجارة.. وخسارة أرباح الحج والزيارة.. ولابد من التعميم هنا فلا يقتصر الأمر على الحج.. فيمكن أن نقول إن المثل الأعلى والمبدأ الأخلاقي له الأولوية على المصالح الاقتصادية.. فهل يتعارض الإسلام مبدأً أخلاقياً مع النمو الاقتصادي؟

١- ابتداء أقول: إن من مقاصد الدين حفظ المال وتنميته للفرد والأمة. ولهذا جاءت أوامر ونواه كثيرة من شأنها تحريك الثروة وتفعليها (مثل النهي عن كنز الذهب والفضة - وتفتيت الثروة عند الميراث).

٢- لا يبدأ المجتمع بالتكون من اقتصاد مزدهر.. وإنما يبدأ من الإيمان بمثل أعلى والتجمع حوله والبذل فيه. فالمرحلة الأولى تمثل مرحلة نضال في سبيل المثل الأعلى.. وأما الثمار فتأتي متأخرة. ولو بدأ الأمر بظهور الثمار لكثر النفاق وتعذر بناء المجتمع ونموه، فالنمو لا يحدث إلا بتضحية المخلصين في سبيله. وكلِ نهضة تبدأ بتفاعل الإنسان مع فكرةٍ.. يكدح في سبيلها ويجاهد.. ثم يأتي النمو الاقتصادي.

٣- والنمو الاقتصادي يأتي نتيجة لتصحيح الأفكار ويتأثر بالتقدم العلمي عند الأمة. والمثال الواضح أن العرب يملكون ثروات جيدة (البترول - الطاقة الشمسية - المعادن) لكنها تتبدد دون أن تعطي للأمة نهضة.. فلماذا؟ وقد ضرب مثلاً الأستاذ عمرو خالد بماليزية.. فقد كانت تصدر الأخشاب مادةً خاماً من غاباتها، لكنها توقفت عن ذلك وصنَّعته فقفز الثمن ستة عشر ضعفاً..

٤- قد يبدو لنا أحياناً أن الاقتصاد يتعارض مع المثل الأعلى، كما حدث مع الذين اصطادوا يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٣]. وقد يظن الناس أن الربا يحقق الربح والنمو.. وقد يُظَن أن منع المشركين من الحج يؤدي إلى خسارة مالية - كما تقول الآية التي نقف عندها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ - وقد تفرض بعض الدول المستكبرة عقوبات اقتصادية على كل دولة ترفض تنفيذ مخططها.. هذه حالات تستحق التأمل وتسجيل الملاحظات:

أ- بعض الأوامر الإلهية تبدو اختبارات لصدق الطاعة لله.. ومن الضروري أن يثبت المسلمون صحة الأولويات عندهم.. ولا بد من إعطاء الصدارة للمثل الأعلى أمام الخيارات المتعددة.. وقد بات من الواضح أن الأمة تبدأ بالانهيار عندما تُغلِّبُ المالَ أو المتعةَ على القيم الأخلاقية.. عندها يبدأ الجسد الاجتماعي بالتفسخ.

ب- إن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث.. وقد ثبت بالدراسات الاقتصادية والاجتماعية أن الله يمحق الربا ويربي الصدقات. وإن صيانة فكر الأمة من الشرك وحماية مقدساتها من التلوث بالخرافة والدجل يحمي كيانها الفكري ويثبتها في مسار التقدم.. وأما ضغوطات الدول المستكبرة فإنها التحدي المحرك لنشاط الأمة..إذ يجعل الأمة تعتمد على نفسها فتتحرك العقول المبدعة والأيدي العاطلة.. ولو أن دول العالم الإسلامي تعاونت فيما بينها لاستطاعت أن تحقق اكتفاء ذاتياً يغنيها عن الدول المستكبرة.. ويجعلها في حالة ازدهار مما يضطر المستكبرين إلى أن يخطبوا ودها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ومشيئة الله سننية؛ أي إن الرزق له قانونه ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

[الملك: ٦٧/ ١٥] وهيهات لأمة فرَّطت في التعلم واتخاذ الأسباب أن تزدهر.. وفي قصة ذي القرنين أبلغ بيان ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٤] وإن النظر السطحي لا ينتبه إلا إلى نتيجة عاجلةٍ.. لكن رؤية العواقب البعيدة المدى هو الذي يحررنا. وما أشد غفلة من يقطع الشجرة ليجني ثمارها.. وإن جذور شجرة الاقتصاد هي المثل الأعلى والقيم الأخلاقية وتفعيل العقل والقيام بالأسباب.. والله وحده هو الذي يرصد الأفكار والأعمال ويقدر الرزق عليها بعلمه وحكمته.. ولهذا يأتي التعقيب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

المقطع الثاني الآيات من [٢٩-٣٥]

تنظيم العلاقات المناسبة لذلك العصر مع أهل الكتاب

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٢٩-٣٥].

الآياتُ هنا تمهد للحديث عن غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب. وقد روى ابن عباس في تفسير الآية: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال من يليه من العرب أمره تعالى بجهاد أهل الكتاب.

وكان نصارى نجران أول من دفع الجزية من أهل الكتاب للمسلمين

قبل وفاة النبي ﷺ. ثم أوصى النبي بألّا يبقى في الجزيرة العربية دينان. فما هي الظروف التي اقتضت هذا الإجراء؟

لا ننسى مؤامرات اليهود - رغم عهودهم مع النبي ﷺ - وكيف كانوا يساعدون المشركين ضد المسلمين، بل يحرضونهم على قتال المسلمين كما حدث في غزوة الأحزاب مثلاً. وكذلك فعل نصارى الروم في حدود البلاد العربية عند غزوة تبوك. إن بقاء اليهود خاصة في الجزيرة قد أفقد المسلمين أمنهم، إذ كانوا يتربصون الفرص للانقضاض.. ولهذا يعتبر إخراجهم إجراء سياسياً يقتضيه أمن الدولة. ولا يجوز أن يستدل بذلك على تغذية الصراع بين أتباع الأنبياء والأديان السماوية. فالحروب الدينية والطائفية كانت في جوهرها سياسية أو اقتصادية وإن رفعت شعار الدين واستغلت الروح الدينية عند الجهلة والمتعصبين.. (كالحروب الصليبية - والاقتتال بين السنة والشيعة). وحين نراجع قول الله تعالى ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٣] نجد أنَّ الله أراد أن يمتحن أتباع الأنبياء ولهم أن يختاروا الاقتتال أو السلام.. ونلاحظ التلويح بالكفر في وصف الذين اقتتلوا لأن الله قد أخذ الميثاق على أهل كل كتاب بأن يؤمنوا بكل نبي جديد يأتي من بعد ذلك وينصروهُ.. لكن (البغي) - كما يحدد الله في الآية ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

[البقرة: ٢/٢١٣] - هو الذي يحرك الحقد والشحناء في النفوس رغم ظهور البينات من الله.. البغي هو الظلم وتجاوز الحدود والرغبة في التفرد بالمكاسب وانتزاع السلطة.. بل وانتزاع اللقمة من فم الآخر..

ونحن الآن نعيش مرحلة خطيرة في حياة الأمة ومطالبون بتصحيح المفاهيم لدعم الوحدة الوطنية وترسيخها في النفوس كي لا نسمح للخبثاء بإشعال الفتن الدينية والطائفية بيننا.. فالأمم لا تقتل من الخارج.. بل إنها تنتحر - بالحروب الأهلية في الداخل أو بأساليب أخرى - كما يقول المؤرخون.

١- الأمر بقتل صنف معين من أهل الكتاب

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

تذكر الآية أربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام.. وعلة تربصهم للغدر بالمسلمين:

١- لا يؤمنون بالله.

٢- ولا باليوم الآخر. وهما الأساس الفكري والعقائدي الذي دعت إليه الأديان السماوية كلها.

٣- ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

٤- ولا يدينون دين الحق. هل القصد من هاتين الصفتين: أن يطيعوا محمداً ﷺ ويدينوا بالإسلام؟ لكن الآية تقول بعد ذلك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهم ما زالوا غير مسلمين.. فالأرجح أن القصد: لا يحرمون ما حرم في كتبهم وعلى لسان أنبيائهم.. ولا يدينون دين الحق أي

خرجوا عن المنهج الذي حدده كتابهم.. وفي الحقيقة إن كتبهم تدعو إلى الأصول نفسها التي دعا إليها القرآن.. وإن اختلفت في التفاصيل.. رغم التحريف والتبديل الذي لحق بها.. (كنبوة عيسى والتثليث). وهو أمر يلاحظه القارئ المنصف.

هل هذه الصفات هي التي استوجبت قتالهم؟ مرة ثانية نعود إلى السؤال الهام: هل القتال في الإسلام هو لمنع الكفر أو لمنع الظلم؟ وقد اتفقنا سابقاً على أنه لمنع الظلم.. ولهذا أقول: إن الأمر بقتالهم ليس لمجرد اتصافهم بهذه الصفات.. بل لغدرهم وسعيهم في الكيد للمسلمين. وقد ثبت عبر التاريخ أنهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.. مع أن القرآن مدح النصارى منهم ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢] لكنها مواقف فردية من بعضهم فيما يبدو.. يذكر جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب - وهو فرنسي مسيحي - (كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم. ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل الذي رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى.. والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد أثناء مرضهما)[1] كذلك كتب كاتب مسيحي اسمه يورجا يقول: (ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء. أما صلاح الدين لما استرد بيت المقدس بذل الأمان

---

(١) نقلاً عن كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام للأستاذ علي علي منصور.

للصليبيين ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم.. حتى إن الملك العادل - شقيق السلطان - أطلق ألف رقيق من الأسرى ومنَّ على جميع الأرمن.. وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة).(١)

والاستعمار الحديث هو آخر المطاف الآن. يقول جورج براون: (لكن الخطر الحقيقيَّ كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي) (٢). والحقيقة أن الباحثين العرب والمؤرخين يطلقون على هذه الحروب: حروب الفرنجة ولا يسمونها (صليبية) لأنها في جوهرها حروب سياسية اقتصادية تتستر براية الدين. ولابد أن نتساءل: إلى أي مدى ساهم المسلمون في تحريك هذه الحروب؟ وما هي أفضل الوسائل لإخماد هذا التراث الثقافي العفن عند الطرفين؟ فالحقدُ لا يُعالَج بالحقد والحرب لا تُنهى بمزيد من الحرب.. بل إن العالم كله يتنادى لإيقاف الحروب أمام غول الأسلحة النووية. فأين العلماء المجتهدون من المسلمين؟

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ فالقتال ليس لإكراههم في الدين وإنما لضمان أمن المجتمع الإسلامي وعدم إعاقة الدعوة. والجزية ضرب من الخراج على الأشخاص لا على الأرض التي يملكونها. وهي لغوياً مأخوذة من الجزاء، أي جزاء الحماية لهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم بالجندية لقتال العدو. والآية تضع قيدين: الأول لصالح أهل الكتاب: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي عن قدرة فلا يظلمون ولا يرهقون بما لا يطيقون.. فلا تؤخذ من الفقير العاجز عن الكسب منهم. والثاني لصالح المسلمين ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي خاضعون لسيادتكم. ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم والدفاع عنهم ومعاملتهم بالعدل والبر ويسمَّون (أهل الذمة)

(١) المصدر السابق.

(٢) ذكر هذا في كتاب التبشير والاستعمار لعمر فروخ.

لأنهم في ذمة المسلمين. أما الذين يعقد الصلح معهم فهم أهل العهد (كالرعايا الأجانب الذين تحميهم الاتفاقات الدولية).

وقد ذكر الأزدي في (فتوح الشام) خبر أبي عبيدة بن الجراح حين رد الجزية إلى أهل حمص خوفاً ألَّا يتمكن جيشه من حمايتهم ضد جحافل الروم.

فما هي الأهداف من الجزية؟ أرى أنها تحقق ما يلي:

١-أن يعلن الكتابي استسلامه وعدم مقاومته للمسلمين.

٢-أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه التي يكفلها له المجتمع المسلم.

٣-المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن إعالة كل عاجز عن العمل.

فمن الواضح أن المجتمع المسلم يقدم الضمانات المالية لرعاياه الفقراء مهما كان دينهم.. فإن عجز الكتابي عن أداء الجزية أعفي منها وفرضت له إعانة - وهو ما فعله عمر بن الخطاب.

أما البحث في أمر الجزية كضريبة سارية المفعول حتى الآن على المواطنين من أهل الكتاب فهو متروك للمجتهدين من العلماء.. وصاحب الظلال يعبر عن رأيه في هذا المجال فيقول: (إنها قضية تعتبر اليوم تاريخية وليست واقعية، والمنهج الإسلامي يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء ويرفض أن يتحول إلى مباحثات فقهية لا تطبق في عالم الواقع.. ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم بمثل هذا.. ويسميهم (الأرأيتيين) الذين يقولون (أرأيت لو أن كذا وقع فما الحكم؟). هذا كلام جيد وإن كان يؤجل الاجتهاد. لكنه يثبت أن القضية (تاريخية) والقضايا التاريخية مرتبطة بظروفها ومكانها وزمانها.

وقد وجدت بحثاً مفيداً لعبد الرحمن الحللي في كتابه (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم) عن الجزية تصدى فيه إلى ثلاثة جوانب: مصطلح الجزية في اللغة والفقه والتاريخ - الجزية في المنظور الفقهي - كيف نفهم الجزية في ظل حرية الاعتقاد. ويصل إلى نتائج هامة فيقول:

[- الجزية نظام قديم في التاريخ، مفاده ضريبة يدفعها طرف ضعيف إلى سلطة أقوى، إما إلزاماً قهرياً أو اتفاقاً مقابل شيء محدد.

- لم ترد الجزية في القرآن سوى مرة واحدة معرّفة بأل ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ - مما يدل على أنها معروفة قبل الإسلام - ومفاد السياق فيها أنها غاية ينتهي عندها القتال ويلزم المقاتلون بدفعها على وجه يصبحون فيه خاضعين..

- لم يرد نص من السنة يبين ماهية الجزية أو علّتها أو مقدارها بشكل قاطع .

- اتجه معظم الفقهاء المعاصرين إلى اعتبار الدفاع عن أهل الذمة هو علة مشروعية الجزية؛ وبناء على ذلك حكموا بسقوطها عنهم إذا اشتركوا بالدفاع عن الوطن والنفس، كما حكموا بردها عليهم إذا عجز المسلمون عن حمايتهم. وبناء على اشتراك غير المسلمين في الجندية فلا موجب للجزية اليوم][١].

ويتساءل الكاتب: [هل الجزية خيار حتمي في علاقة المسلمين مع غيرهم؟.. عندما نقرأ السيرة النبوية نجد أن الرسول ﷺ تحالف مع غير المسلمين أحلافاً متعددة لم تكن الجزية شرطاً من شروطها. من ذلك: (دستور المدينة) الوثيقة الأولى لعلاقة المسلمين بغيرهم. وصلح الحديبية..

---

(١) صفحة ١٧٧ من كتاب: حرية الاعتقاد في القرآن. عبد الرحمن حللي.

ولما نزلت آية الجزية لم يوجد دليل على كونها ناسخة لجواز المسالمة من دونها.. وليست الخيارات الثلاثة (الإسلام - الجزية - القتال) التي كانت تعرض على غير المسلمين آتية على سبيل الحصر، كما أنها ليست من القواعد العامة في الدين بدليل الواقع العملي والنصوص الآمرة بالدخول في السلم دون ذكر للجزية.. والذي يتجه إليه الباحث - أي رأي المؤلف - أنها متروكة إلى ولي الأمر..][١] ويعلل المؤلف كون النص القرآني يفرض الجزية فرضاً [يجعلها ذات بعد سياسي أكثر منها عقدَ سلمٍ اجتماعيٍ.. مع أقوام دلَّ السياق على أنهم من المعتدين البادئين بالقتال.. وإلجاء هؤلاء إلى الخضوع والمسالمة بما لا يستطيعون معه العودة إلى الاعتداء ثانية][٢]، وقد ذكر المؤلف أن القول بتوقف حكم الجزية والعمل به الآن قد قال به عدد من العلماء المعاصرين من مثل: وهبة الزحيلي - يوسف القرضاوي - محمد سليم العوا - ظافر القاسمي - فهمي هويدي.. وهو ما اطمأنت إليه نفسي ولله الحمد.

٢- من عقائدهم الفاسدة

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ عندما نزلت هذه الآية كان اليهود قد رحلوا عن المدينة بعد المواقع بينهم وبين المسلمين، والآيات هنا بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب، فلم يذكر اليهود هنا؟

يجتهد صاحب الظلال فيقول: (١- لما كان النص عاماً في قتال أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ اقتضى الأمر بيان فسائد عقائدهم. ٢-اليهود كانوا يومئذ في طريق الانطلاق الإسلامي إلى أطراف الشام). وينبغي أن

(١) (٢) صفحة ١٨٠ من المصدر السابق.

نلمس حب الله سبحانه وتعالى لنا إذ لا يدع فرصة تفوت إلا ويعلمنا أن ندقق في أفكارنا ونصححها باستمرار من خلال ذكر الأقوام السابقين وما وقعوا فيه من انحراف بسبب غفلتهم عن ذلك.

من هو عزير؟ - علماً بأن قول اليهود عزير ابن الله قولٌ غير مشهور -

في التوراة سفر معروف باسم عزرا. والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا الاسم (عزير) للتحبيب - مثل اسم يسوع قلبته العرب إلى عيسى - وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية الإنجليزية (طبعة ١٩٠٣): (عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده.. كانت الشريعة نسيت فأعادها أو أحياها. سكن بابل وأباح الملك له أن يأخذ عدداً وافراً من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ق.م).

والمشهور عند مؤرخي الأمم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد قد فقدت قبل عهد سليمان.. ولما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر. وأن عزرا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي.. ويقول أهل الكتاب: إنه كتبها كما كانت بوحي أو إلهامٍ من الله (فلعله نبي). وقيل: إن جميع الأسفار المقدسة أحرقت بالنار في عهد نبوخذ نصر. فكانوا يدعون عزرا مرمِّمَ الأسفار المقدسة. ولما فتح أنيتوكس - ملك الإفرنج - أورشليم أحرق جميع نسخ العهد القديم التي توافرت له من أي مكان.. وكان يقتل كل من وجد عنده نسخة منه (وذلك في سنة ١٦١ ق.م) فانعدمت في هذه الحادثة جميع النسخ التي كتبها عزرا .

والمهم أن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزرا هذا حتى إن بعضهم أطلق عليه (ابن الله) كما تقول الآية. فلمَ يعمم الله (وقالت اليهود) مع أن هذا صدر من بعضهم؟

إن الأمة تعتبر متكافلة في شؤونها العامة وإن ما يفعله بعض الفرق والجماعات أو الزعماء فيها يكون له أثر في جملتها.. وإن المنكر الذي يفعله بعضٌ منهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به جميعاً. إنها سنة من سنن الله نصت عليها الآية ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥] وإنه لقانون في الاجتماع البشري. فالمصائب والرزايا التي تحل بالأمم بفشو المفاسد والرذائل فيها لا تختص بالذين تلبسوا بتلك المفاسد وحدهم.. فهي تسري بينهم كسريان الأوبئة.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهو تعليم الكنائس الذي قررته المجامع الرسمية بتأثير الفلسفة الرومية (والديانات التي كانت سائدة في المنطقة)، حدث هذا بعد المسيح وتلامذته، وخالفه خلق كثير منهم، أعظمهم شأناً الموحدون والعقليون.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تلوكه ألسنتهم في أفواههم وما أنزل الله به من سلطان وليس له مدلول في الوجود. (كما يقول العامة: كلام فارغ).

﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ فقد قال المشركون من العرب: الملائكة بنات الله؛ وكذلك عقيدة الحلول والتثليث عند البراهمة والبوذيين والفرس والفراعنة (المصريين) واليونان والرومان..

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الإفك: صرف الشيء عن وجهه - أي الكذب. والمعنى هنا: كيف يُصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عز وجل.. فكأن هناك من يكذب عليهم ويغرر بهم.. ومع ذلك فهم يستحقون دعوة الله عليهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ لأنهم لو استعملوا عقولهم لنجوا ولم يقدر أحد على تضليلهم.

أعود فأقول: إن صيانة الأفكار والعقائد أمر في غاية الأهمية.. فالانحرافات تتسلل بهدوء، ولا ننسى ما ورد في البخاري عن كيفية بدء

عبادة الأصنام وكيف سوّل الشيطان لقوم نوح أن ينصبوا التماثيل لأجدادهم الأتقياء (يغوث ويعوق ونسر).. وقد قال الصحابة للنبي ﷺ مرة (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم) - حين رأوا طائفة من المشركين يقدسون شجرة ويعلقون عليها أسيافهم - فقال ﷺ: «لقد قلتم كما قال بنو اسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة». ولا ننسى أن عمر ﷺ قد قطع الشجرة التي بايع المسلمون النبي ﷺ تحتها خوفاً من أن يقدسها الناس. فما أسرع ما تنزلق العامة إلى الخرافة والدجل. فالتوحيد يحتاج إلى تدقيق وحراسة وفهم متجدد. وكل الأفكار الحيوية كذلك.. انظر مثلاً فكرة البدء من الواجب وعدم المطالبة بالحقوق.. وكيف نحتاج إلى توعية مستمرة حتى نتابع الطريق بإصرار ولا ننزلق إلى طريق الحقوق فنضيع كل ما حققناه.

ولا نهمل مواقف منصفة من بعض فلاسفة النصارى، حاولوا فيها تأويل نصوص الأناجيل، مثلاً تولستوي يقول: (إن إنجيل المسيح الصحيح هو حِكمهُ ومواعظه التي كانت جواهر ألقيت في مزابل من الخرافات والأوهام)[1] وإنه هو قد عني باستخراجها وتنظيفها مما علق بها وشبهها بتمثال مكسر ملقى فيها.. فعثر هو عليه قطعة بعد أخرى حتى إذا تم وكمل علم أن عمله حق صحيح وألف في ذلك كتاباً كبيراً سماه الأناجيل، وسمى ما استخلصه منها (الإنجيل الصحيح)، ومما قال فيه: (إن القارئ لا ينبغي له أن ينسى أن من الخطأ الفاحش والكذب الصراح أن يقال إن الأناجيل الأربعة هي كتب مقدسة في جميع آياتها.. المسيح لم يؤلف كتاباً وإنما عرض تعاليمه على قوم من الجهال قد خشنت طباعهم كان يصادفهم في طريقه.. فلم يحفظوها ولم يكتبوها.. وفي هذه الأناجيل نصوص صريحة بأنهم لم يكونوا يفهمون كل كلام المسيح ولا سيما

---

(١) تفسير المنار ١٠/ ٤٠٩ - رشيد رضا.

أمثاله)[١]. ومما حققه تولستوي في المقدمة: (إن دين المسيح الصحيح أجنبي عن العقيدة العبرانية وعقيدة الكنائس النصرانية وإن بولس لم يفهم دين المسيح البتة..) والسياسة العالمية للنصارى الآن فيها عداء وحقد على المسلمين.. فقد أضيفت إلى التراث الصليبي والاستعماري أحداث ١١ أيلول وما تلاها من انفجارات.. مما عوق محاولات الحوار الحضاري السوي وشحن الأجواء بركام من النار والدخان.. بينما كان وحيد الدين خان يقول قبل نصف قرن (إن الله فتح لنا الفرصة في القرن العشرين كي نستغله ونجعل منه قرن الإسلام) لأن الناس بدؤوا يؤمنون بحرية الرأي والفكر ويحتقرون فكرة استعباد الشعوب وقهرها وآمنوا بالبحث العلمي الموضوعي مما يقودهم للإسلام لكننا ضيعنا الفرصة بالتراخي وعدم التصدي لتصحيح الفكر والعمل.. وهذا لا يعني ضياع الآمال فوعد الله ما زال قائماً ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وإن تخاذل العرب استبدل الله بهم غيرهم.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الأحبار جمع حَبر أو حِبر وهو العالم من أهل الكتاب، وكثر إطلاقه على علماء اليهود. والرهبان جمع راهب وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة لا يتزوج ولا يزاول الكسب. وهي بدعة في النصرانية ما كتبها الله عليهم.

روي خبر حول هذه الآية من المفيد أن نتأمله. وهو أن عدي بن حاتم لما بلغته دعوة الرسول ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية.. فلما أطلق النبي ﷺ سراح أخته سفانة رغَّبت أخاها بالقدوم على

(١) تفسير المنار ١٠/٤٠٩، رشيد رضا.

النبي ﷺ، فقدم عدي المدينة وكان رئيساً في قومه، فتحدث الناس بقدومه.. فدخل وفي عنقه صليب من فضة والنبي يقرأ الآية.. فقلت (أي عدي): (إنهم لم يعبدوهم) فقال ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال ﷺ: « يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك؟ أيضرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق(١).

في الخبر توضيح هام وهو أن التشريع - أي التحليل والتحريم - لا يكون إلا لله وأن العبادة هي الطاعة في الأمر والنهي. ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

والمشكلة تبدأ من التشخيص (أي تقديس الأشخاص) وتتطور إلى الشرك. ولهذا لابد من فصل الفكرة عن الأشخاص. (اعرف الحق تعرف رجاله) وفي القرآن تركيز على بشرية النبي ﷺ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٣] والدعاة والعلماء ينبغي أن يرسخوا هذه القضية لنزع القداسة عن أشخاصهم.. فكيف بالذين يمنعون تلاميذهم من السماع لأحد سواهم؟!

كذلك ينبغي الانتباه إلى مسألة: تقديس التراث وتقديس الشروح للنصوص.. إنها مطبات وقعت فيها ثقافتنا الإسلامية، ولابد من تربية جيل جديد يطلب البرهان العلمي بدلاً من الثقة بالشخص. وننتبه أيضاً إلى أهمية الحذر في إطلاق الأحكام: حلال وحرام.. وقد ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية أن السلف لم يطلقوا الحرام إلّا على ما عُلِمَ تحريمه قطعاً. وروى الإمام الشافعي في الأم: «أدركت مشايخنا من أهل العلم

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم.

يكرهون في الفتيا أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام إلا ما كان في كتاب الله عز وجل بيِّناً بلا تفسير». فالأصل في الأشياء الإباحة ولا يجوز التحريم إلا بدليل.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وقد جاء هذا الأمر بالتوحيد على لسان موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من التوراة، أشهرها أول الوصايا العشر «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور» (سفر الخروج - الفصل العشرون - رقم ٢). كذلك يقول عيسى في الإنجيل: (اذهب يا شيطان فإنه قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) (إنجيل متى - الفصل الرابع - ١١) وفي إنجيل برنابا الذي تعدُّه الكنيسة غير قانوني كثيرٌ من آيات التوحيد.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ ما المقصود بنور الله؟

النور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره. ومن المعروف أن هناك نوراً معنوياً للبصيرة كالنور الحسي للبصر. فهو هنا دلائل التوحيد المنتشرة في الكون كالنور.. والله أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ﴾ تفيد التعمد. فالكلام عن الذين يحاربون الدين ويطعنون فيه ويصدون الناس عن الحق والخير ويروجون الأكاذيب عن النبي محمد ﷺ. لكن سنة الله ستغلبهم ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فقد جعل الله معجزة محمد ﷺ هذا القرآنَ وتكفل بحفظه إلى آخر الزمان، ولم يكفل ذلك لكتاب آخر لأن سائر الكتب

كانت أدياناً خاصة ومؤقتة، ولهذا أنزل عليه بعد أن أكمل دعوته: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/٣] وقد كانت معجزة محمد ﷺ القرآن الذي فتح آفاق العلم أمام الإنسان وأمره بالاستزادة منه، فالعلم في نمو وازدياد، وكلما نما رد الناسَ أكثر إلى أحقية القرآن. والناس يكررون دائماً: العلم نور.. أتأمل هنا ما قاله ويلز في تاريخه عن بداية النور حين كشف الإنسان الكتابة وكيف نمت المعرفة بسرعة المطبعة (أثراً ضئيلاً من النماء العقلي نتتبعه في عالم كان زاخراً في مستهل حياته بالجهالة الصارخة والنسيان. فهو أشبه شيء بشعاع من الضوء ينساب إلى داخل حجرة مظلمة خلال فرجة ضيقة في باب قد أخذ ينفتح، ولكنه يتسع في بطء وعلى مهل. وأخيراً جاءت حقبة من تاريخ أوربة أخذ الباب عندها ينفتح بسرعة تفوق الأولى تدفعه يد الطابعين، فسطع ضياء العرفان. ولما سطع هذا الضياء لم يعد امتيازاً تُخْتَصُ به أقلية محظوظة. فأما في أيامنا هذه فإن ذلك الباب يزداد اتساعاً ويزداد الضوء الذي خلفه سطوعاً.. ولا يبرح يسطع خلال سجف من القتام والبخار، ولم يصل الباب بعد إلى منتصف فتحته؛ ذلك أن عالمنا الآن لم يتجاوز بعد بداية العرفان)[1] والله سيتم نوره كما وعد إنقاذاً للناس من الجهالة والضلال.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

في الآية مقصدان من إرسال الرسل: إنزال الهدى للناس - وبيان الدين الحق وإظهاره. وهي رحمة كبيرة من الله بالناس لا يهمل شأنهم ولا يكلهم إلى جهودهم فقط.. بل إنه يجعل الحق والهداية في متناول أيديهم

(١) صفحة ٢٠١ الجزء الأول من معالم تاريخ الإنسانية ه. ج. ولز

فمن أخذ بها أخذ بحظ وافر؛ ومن أعرض عنها فقد قامت عليه الحجة. أما الدين الحق فإن له المستقبلَ وكل ما عداه سيتلاشى كالزبد لأنه لا ينفع الناس.

وفي سورة الصف نجد تأكيداً لهذا الأمر في آيتين متشابهتين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٦١/٨-٩] والفرق بينهما: أن آية الصف تأتي كأنها تعليل لافترائهم حين أنكروا البشارة بمحمد ﷺ بأنهم يريدون إطفاء النور بهذا الإنكار ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟﴾.. بينما هنا ﴿أَن يُطْفِئُوا۟﴾ تأخذ طابعاً عاماً..

وفي سورة الصف ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بينما هنا - في التوبة - ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فالأولى فيها الإتمام وكأنه حاصل.. بينما الثانية فيها وعد بذلك.

وصاحب تفسير المنار يتحدث عن فيلسوف هندي - ولا يسميه - درس تواريخ الأديان كلها.. ثم درس الإسلام فعرف أنه الدين الوحيد الذي له تاريخ ثابت محفوظ. وتعجب كيف تؤمن أوربة بنبي ترفعه فوق مستوى البشر وهي لا تعرف من تاريخه شيئاً يعتد به. كذلك فإن كتاب موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) يتحدث في هذا الموضوع ويؤكد أنه لا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا الجديد.

وقد وقف مالك بن نبي عند هاتين الآيتين في محاضرته (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) وذكر التحديات التي تواجه المسلمين وسط ظروف تمثل فرصة مواتية لنهضة المسلمين لو أحسنوا استثمارها؛ فالعالم بحاجة إلى مثل أعلى جديد.. لكن القرن العشرين انصرم ولم نستطع أن ننهض من كبوتنا.. فكيف ننقذ الآخرين..؟! لكن الفرص موجودة دائماً، وهي اليوم أعظم من أي وقت مضى.

٣- سلوك كثير من رجال الدين عندهم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا البيان تبصرة بما يفعل أهل الكتاب وتحذير من الوقوع بهذه الأعمال. ونتأمل العدل والدقة القرآنية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ﴾ فلا يعمم على الجميع.. لأن الله لا يقول إلا حقاً وعدلاً ..﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٥].

أما كيف يكون أكل الأموال بالباطل؟ فهو باب عريض تفتحه الأمم المتخلفة فتغرق في طوفان الفساد والعفن الاجتماعي. وتصبح المأساة أفظع حين يصاب رجال الدين بهذه الآفة وتصبح مراكزهم سبباً لنهب أموال الناس بفرض الضرائب.. حتى باعوا الجنة بـ (صكوك الغفران) وقد وصلت الكنيسة عبر التاريخ إلى درجة من الغنى والسلطان تفوقت فيها على الملوك والأباطرة وكانت لها جيوش وإقطاعيات.. ومارست سلطاناً كبيراً في أوربة القرون الوسطى.. فلا يقر ملك على كرسيه ما لم ينل تأييد البابا ومباركته.. والويل لمن يمتنع عن أداء ضرائب الكنيسة.. هذا عدا عن الرشاوى وبيع المناصب الكهنوتية.. والتعامل بالربا عند اليهود خاصة؛ فهم أساتذة المرابين في العالم كله وأحبارهم يفتونهم: لا حرج عليكم في أكل مال غير اليهود لأنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٥].. ومن المؤسف أن ينزلق الباباوات والأساقفة عبر التاريخ إلى تجييش الجيوش في (حروب الفرنجة) ضد المسلمين.. حروب استمرت مائتي عام ظاهرها الحمية الدينية وباطنها الطمع في الأموال واستعمار البلدان.. (ويصدون عن سبيل الله).

وقد انزلق كثير من المسلمين إلى هذه المتاهات.. فبنوا قبور الأولياء وخصصوا لها النذور والسدنة - كما بنت النصارى الكنائس بأسماء

القديسين وحبسوا لها العقارات والنذور - وقد يتساءل الناس: هل يجوز تقاضي الأجر على قراءة القرآن وتعليمه؟ أعتقد أن استعمال أحدث الوسائل والتقنيات لتعليم القرآن يوجب للعامل في هذا المجال أن يتقاضى أجراً مقابل ما يبذل من جهد ومال.. ويمكن الاسترشاد بالتوجيه القرآني ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦/٤] وقد كان هدي الأنبياء التعفف عما في أيدي الناس ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩/١١] ولابد للدعاة والعلماء من المضي على هدي الأنبياء حتى لا يفقدوا مصداقيتهم، وكي يتمكنوا من ترسيخ الأمانة والنزاهة في الناس.. إذ لا يمكن أن تكون الأولوية لأمرين مختلفين في آن واحد: الدعوة للخير.. وكنز المال.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

هنا نتذكر أن من مقاصد الدين: حفظ المال وتنمية الاقتصاد في الأمة، وإن تكديس الذهب والفضة يعطل الفوائد على الفرد والأمة. وكان أبو ذر - رض - يحمل الموضوع على إطلاقه فلا يرى ادخار شيء أصلاً، وخالفه جمهور الصحابة. لكن من الواضح أن المرء مسؤول عن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه.. وقد بدأت الآية بالنهي عن الكسب الحرام ثم انتقلت إلى الكسب الحلال.. فإن رزقت مالاً فعليك أن تحسن التصرف فيه فلا تجمده فتضر بنفسك وباقتصاد الأمة. ولا تهدره في غير منفعة فتكون من المبذرين إخوان الشياطين.. وإنما الإنفاق ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في كل ما يحقق الخير والأبقى.. ولنا أن نتساءل: هل رأي أبي ذر هو الأصوب؟ وهل قدم اشتراكية إسلامية؟ نعرف من تاريخنا أن أبا ذر قد اختلف مع معاوية - في الشام - في تفسير الآية. فقد قال معاوية:

نزلت في أهل الكتاب - فقال أبو ذر: نزلت فينا وفيهم. كما يروي زيد بن وهب حين مر بالربذة - بين مكة والمدينة - فالتقى بأبي ذر وسأله (وما أنزلك منزلك هذا؟) فذكر له خلافه مع معاوية وقال: (وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك. فذكرت ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحيت فكنت قريباً. فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت)[1] الخبر يحمل مدلولات هامة: فهو مليء بروح الحرية واحترام العلماء واحترام الاختلاف في الرأي. كما نجد فيه التحذير من الشقاق والخروج على الأئمة، وحرص الصحابة على ألّا يثير اختلافهم مع الأئمة الفتن في الأمة..

وفي كتاب (أبو ذر الغفاري) لمنير غضبان، نجد أن جوهر دعوة أبي ذر هي فكرة الفقر الاختياري، حيث قال عثمان لأبي ذر: كن عندي تغدو عليك اللقاح وتروح، فقال: (لا حاجة لي في دنياكم) فلقد كان أبو ذر يريد من المال أن يكون للإنفاق حالما يصل إلى اليد كما فعل هو نفسه عندما أخذ عطاءه.. فهو يدعو الناس إلى مثالية عاشها بواقعه، وهذا ما لا يمكن للدولة أن تتبناه وتلزم الناس به. ولابد أن نميز بين اعتدال الشريعة وترفع بعض الزهاد.. ولا يحق لمن اختار الزهد لنفسه أن يلزم به غيره. لكن الآية تؤسس لاقتصاد فعَّال متنام بتحريم تجميد الأموال وتكديسها.

وإن الحياة في ظل النظام الإسلامي الذي يتفاعل فيه الفرد مع روح القرآن لا تثمر حقداً طبقياً أو فقراً مدقعاً.. بل إن الأموال قد فاضت في عهد عمر بن عبد العزيز حتى لم يجدوا فقيراً يعطونه منها.. وإن حديث (أهل الدثور) يمثل مظاهرة فريدة من نوعها؛ فقد جاء الفقراء يحتجون إلى

(١) رواه البخاري.

النبي ﷺ من إنفاق الأغنياء (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم)(١).

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

وفي آية أخرى يقول: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠] فالله هو الذي أعطى وهو يأمرك بالعطاء. لكن لماذا تحدد الآية هذه الأماكن بالذات: الجباه والجنوب والظهور؟ لعل الألم فيها يكون أكثر. وفي بعض التفاسير ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ التي كانوا يستقبلون بها الناس منبسطة أساريرهم من الاغتباط بعظمة الثروة ويستقبلون بها الفقراء منقبضة متغضنة من العبوس في وجوههم .﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ التي كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعاً واستلقاء ويعرضون بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ازوراراً وإدباراً)(٢).

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لعل هذا هو تأنيب ملائكة العذاب.

﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ ولقد عُذب المسلمون في الدنيا قبل الآخرة ببخلهم عن الإنفاق. وقد تحدث وحيد الدين خان في كتابه (المسلمون في الماضي) عن حديث انحسار الفرات عن كنز من الذهب ووصية النبي ﷺ (من شهده فلا يأخذ منه شيئاً) وكان اجتهاد المؤلف أنه النفط الذي ظهر ويجب أن تنفق أرباحه في ميدان الدعوة إلى الله. هذا رأي جدير بالتأمل خاصة أمام الواقع الذليل الذي نعاني منه. وقد بات من الواضح أن الأمة حين تنحط وتتدهور فإن المعاناة تعم جميع أفرادها وربما تكون معاناة الأغنياء أكثر لأنهم المسؤولون المتسببون في التدهور.. ثم إن الفقراء ليس لديهم ما يخسرونه ..

(١) متفق عليه.

(٢) انظر صفحة ٤٧٨ - الجزء ١٠ من تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

ومن المؤسف أننا حتى الآن نعلل ضعفنا بالثالوث الشهير: الجهل والفقر والاستعمار.. فأين حملة الشهادات في عالمنا؟ وأين تذهب أموال الأغنياء منا؟ وهل حال الدول التي تحررت من الاستعمار في عالمنا العربي.. أفضل من غيرها؟ أترك الإجابة للباحثين المتأملين..

لكن أختم الموضوع مؤكدةً أن الاقتصاد الإسلامي يدور ضمن دائرة ترتكز على ثلاثة أعمدة: الكسب الحلال - تفعيل المال بتحريم الكنز - تحريم التبذير.

هذا المشهد المروع من العذاب للبخلاء الكانزين يأتي والآيات تعد النفوس للخروج إلى غزوة تبوك والإنفاق والتبرع لجيش العسرة - كما أطلق على الجيش الخارج إلى تلك الغزوة.

المقطع الثالث الآيات [٣٦-٤٠]

أحكام وتوجيهات تتعلق بالقتال

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ
زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ
أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا
تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا
فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ
كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

[التوبة: ٩/٣٦-٤٠].

ويبدأ بالحديث عن هدنة إجبارية فرضها الله على الناس في أزمنة محددة.

١- الأشهر الحرم وحرمة النسيء

وهو أمر هام ولافت للنظر: أن يتوسط الحديثَ عن القتال حديثٌ عن هدنة حددها الله بزمان معين وأوجبها على الناس وحَرَّمَ التلاعب بها.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

يبدأ القسم بهذه الإشارة إلى ثبات الناموس الإلهي في خلقه - كما تشير إلى ذلك الكلمات المستعملة: عند الله، في كتاب الله، يوم خلق.. - إنها تأكيدات على أن الله أراد أن يقسم الزمان إلى أعوام، و كل عام يتألف من اثني عشر شهراً - قمرياً كان أو شمسياً - وهنا أتساءل: أليس غريباً أن التقويم عند معظم الأمم - فيما أعلم - يعتمد هذه (الاثنا عشرية)؟ فهل الأديان السماوية هي التي علمت الناس ذلك؟ أم أن البشر اكتشفوا بأبحاثهم ورصدهم للفلك هذا التقسيم الزمني الذي يحكم حركة النجوم والكواكب؟ وفي الحالين دلالة قوية على رسوخ الأديان في حركة الكون وفي فكر الإنسان.

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.. أقف هنا عند نقاط هامة:

أ- أهمية الزمان وأهمية تقسيمه وتنظيمه لتحقيق أكبر الفوائد فيه. فهو أحد العناصر الثلاثة في تركيب الحضارة. وقد ساعدنا النظام الرباني في هذا المجال بربط العبادات بهذا التقسيم.

ب- نلاحظ ربط بعض التشريعات والعبادات بالأشهر القمرية: (الأشهر الحرم - الصيام - الحج) وفي ذلك:

(١) تسهيل على الناس إذ يمكن العلم بهذه الأشهر بالرؤية المباشرة

للأميين وغيرهم في البدو والحضر على حد سواء.. بينما يحتاجُ الأمر إلى أجيال من العلماء لتحديد الأشهر الشمسية .

(٢) - كما أن شهر الصيام وأشهر الحج تدور في جميع فصول السنة الشمسية مما يجعل العبادة تؤدى بدوران في جميع أجزاء السنة الشمسية - صيفاً وشتاءً- فتكون سهلة تارة وشاقة تارة أخرى وتتحقق بذلك العدالة والمساواة بين المسلمين جميعاً في أقطار الأرض كافة إذ يخضع معظمهم لهذا التقلب.

٣- ويستمر التقسيم للزمان ولا يقف عند تحديد الشهور إذ يقسم الشهر إلى أربعة أقسام على رأس كل قسم اجتماع على عبادة وموعظة هو يوم استجمام وراحة من العمل (يوم الجمعة).

ثم يقسم اليوم إلى خمسة أوقات تؤدى فيها الصلوات.. وكل ذلك يعوِّد الإنسان على التنظيم و الاستفادة من وقته.. كما أنه يبعد الملل والسآمة عنه فلكل وقت أعماله وعباداته المنوعة.

٤. ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ومفردها حرام: من الحرمة، فقد فرض الله تعظيمها وحرم القتال فيها وهي تمثل ثلث العام.. أي إن الله حرم القتال بمقدار ثلث الزمان.. وهذا بالنسبة للإنسان القديم أمر ثقيل؛ إذ كانت القبائل تعيش على الإغارة على من حولها. وقد أعطى الله الناس فرصتين لتذوق السلام وإدراك نعمته: فرصة زمانية هي الأشهر الحرم. وفرصة مكانية وهي الحرمان (مكة والمدينة) كي يستروح الناس حياة الأمن بعيداً عن النزاع والقتال.. فيحاولوا تحقيق ذلك في معظم الأزمان والأمكنة؛ وقد قدم لنا التقدم التكنولوجي خدمة في هذا المجال إذ فرض كشف السلاح الذري إيقاف الحروب. وسيضطر الناس إلى الدخول في السلم كافة.. وإن كان الخبثاء الآن يوقدون الحروب في الأمم الجاهلة لتحقيق

مكاسبهم العاجلة في السيطرة على الشعوب وامتصاص خيراتها ببيعهم السلاح وإيقاد الحروب الأهلية.. والمشكلة كامنة في تحرير هذه الأمم من جهلها وفي جعلها تعي فرص التحرر والتقدم الحديثة.

٥- ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه، ومن المعروف أن الخط المستقيم أقصر وأسهل الطرق للهدف. وهذه التقسيمات والتشريعات توصل الناس بالترقي المتدرج إلى السلام النفسي والاجتماعي.

٦- ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ مع أن النهي عن ظلم النفس عامٌّ في القرآن لكنه يخصص هنا ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الأشهر الحرم مما يعطي لهذه الأشهر ثقلاً خاصاً ليرتدعوا. وكان في الجاهليين بقايا تعظيم لهذه الحرمات فقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه خوفاً من انتهاك هذه الحرمة. والحديث عن ظلم النفس في القرآن مميز، إذ إن الناس يظنون أن الآخر هو الذي يظلمهم.. أو أن قدر الله يحرمهم.. لكن الإنسان هو الذي يختار موضع قدميه.. والمستكبر لا يفرض سلطانه إلا على المستضعف لكننا مصابون بانقلاب في النظر كمن يمشي مكباً على وجهه فيرى الأقدام قبل الرؤوس؛ كما ينبغي أن ندرك أن اعتداءنا على الآخر هو ظلم لأنفسنا من جوانب عدة.

١-فهو تلويث للنفس بالعدوان. ٢- وهو استعداء للآخرين عليك. ٣- وهو إشاعة للغدر وانتهاك الحرماتِ يجعلك تحرم من العدلِ والأمن. ٤- وهو تعريض النفس لغضب الله.

فلو حصل بيان كاف لهذه الأمور لقوي الالتزام بالحرمات أكثر؛ فالإنسان أناني حريص على مصلحة نفسه والدين يبصره بمصالحة الحقيقية والبعيدة المدى. والخطاب القرآني يكرم الإنسان إذ يعتبره عاقلاً وقادراً ومن ثمّ فهو مسؤول عن مصيره. ومن يكتف بتعليق فشله على الآخرين فلن تتغير أحواله وسيبقى يندب حظه.

لكن أين نحن الآن من سلام الحَرَم والأشهر الحرم؟ وهل بقي لنا من قداسة الحرمات شيء؟ وهل صنف المسلمون هذه الآيات أيضاً ضمن الآيات المنسوخة بزعمهم؟ إننا لا نسمع صوتاً ولا نرى مجرد إشارة تذكرنا بالحرمات في هذا الزمان.

٧- نلاحظ في الأشهر الحرم أن رجب الفرد جعل في وسط السنة (السادس بعد محرم) وهذا من شأنه أن يقطع الحروب ويقلل من الشرور.. أما ذو القعدة وذو الحجة ومحرم فقد جعلت لتسهيل السفر إلى مشاعر الحج ثم العودة منها. ولو ترك ذلك الأمر لتحديد الناس فإن أهواءهم لا تتفق على زمان ومكان.. ولهذا اختص الله نفسه بالتحديد وجعله أمراً تعبدياً خالصاً لله.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فكأنه شرط لقتالهم.. أو بيان لعلة هذا الأمر. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ معية النصر والتوفيق والمعونة. بينما تأتي في مواضع أخرى بمعنى معية العلم والرقابة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٤] بعلمه وتدبيره هو مع كل الناس والمخلوقات.. لكن مع المتقين بنصره أيضاً.. فمن هم المتقون؟

إنهم الذين يجتنبون مخالفة قوانين الله.. فهو يتقون الظلم والعدوان والفساد في الأرض.. ويتقون أسباب الفشل والخذلان فلا يعاكسون سنن الله [(١)]. فالعلاقة محكمة بين عمل الله وعمل الإنسان. ولا ننس ما أكدناه في تحليل التقوى إلى عناصرها: التقوى = إخلاصاً لله + علماً بسننه + عملاً بها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.

(١) السنة هي قانون الله الذي يحكم الكون المادي والحياة البيولوجية والإنسانية وهي التي أكد الله ثباتها بقوله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٣].

النسيء وصف من نسأ الشيء: أخره. أي تأخير وتأجيل الشهر الحرام. وكانت العرب قد ورثت من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ فلما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا وكان يشق عليهم ترك القتال ثلاثة أشهر متوالية فكانوا يؤخرون المحرم إلى صفر، وكان لهم في ذلك نظام متبع: أن يقوم رجل من كنانة في أيام منى حيث يجتمع الحجيج العامُّ فيقول: أنا الذي لا يرد لي قضاء، فيقولون: صدقت فأخِّرْ عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر فيحل لهم المحرم. ثم نسأوا غير المحرم حتى تغيرت أسماء الشهور كلها. هذا الخبر يشعرنا أنهم قد جعلوا النسيء تشريعاً دينياً التزموا به فغيروا ملة إبراهيم باتباع أهوائهم ولهذا سماه الله ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم غيروا حكم الله.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾.. إن تعلق الإنسان بالنتائج العاجلة هو موضع الخطر.. فالهوى يزين للإنسان كل الأخطاء والمخالفات لأنها تعطي بعض المكاسب العاجلة. ولهذا لا يوثق بالأحاسيس السريعة والأحكام المتعجلة، ولا بُدَّ من تأمل الأمور باستحضار كل العواقب السريعة والبعيدة المدى.. ولابد من تطوير قدرتنا كي نحمي أنفسنا من خداع النظر والعواطف. ودراسة التاريخ هي إحدى الأساليب الهامة في هذا المجال لأنها تكشف العواقب البعيدة المدى. فالسكوت عن الحق والتراخي في نصرته لا تظهر نتائجه إلا بعد حين.. عندما تتراكم الأخطاء والمظالم وتغدو الأمة في حالة من العطالة والعِوَج لا تعرف حقاً ولا تنكر منكراً..

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إذ كيف يهتدي من مارس أسباب الضلال والكفر؟ إن سنن الله في الحياة الإنسانية ماضية لا تحابي أحداً... كسنن الله في المادة والكون (الآفاق).

وقد ذكر رسول الله ﷺ في منى عام حجة الوداع أن الله سبحانه قد أعاد الأمور إلى نصابها:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض: السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم.. ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»(١).

فهل يبقى موضوع النسيء خاصاً بتلك الأوضاع الجاهلية؟!

أرى أن الأمر يستحق شيئاً من التعميم. فتأجيل العبادات عن وقتها.. وتأجيل أعمال اليوم إلى الغد.. يؤدي إلى تراكم التقصير.. وربما يصل الأمر بالأمة إلى (زيادة الكفر) لأن الكفر هو تغطية الحق ودفنه.. فالواجبات المؤجلة تتراكم حتى تدفن النهضة.. وعالمنا الإسلامي يعاني من التباطؤ والتأجيل؛ ولا يدرك معظم المسلمين قيمة أداء كل عمل في وقته المحدد.. وكل جهاز يتعطل إن أنت أهملت إجراء الصيانة اللازمة له بين حين وآخر..

٢- الحث على الجهاد والنعي على المتثاقلين عن تبوك

تبوك مكان معروف في منتصف الطريق بين المدينة المنورة ودمشق تقريباً. وكان السبب في الخروج إليها أن المسلمين بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معها قبائل من متنصرة العرب (مثل لخم وجذام) وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء (الأردن)..

- وقد كانوا عبيداً مرتزقة لفارس والروم - فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم بجهة غزوهم.. وكان النبي ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلّا

(١) رواه الشيخان من حديث أبي بكرة عند النبي ﷺ.

ورّى بغيرها مكيدة في الحرب إلا ما كان من هذه الغزوة (وفي فتح مكة أيضاً) فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان؛ فكان ذلك في شدة الحر حين طابت الظلال وأينعت الثمار وحبب إلى الناس المقام. عندئذ بدأت تظهر في المجتمع المسلم تلك الأعراض من التثاقل؛ ووجد المنافقون فرصتهم للتخذيل فقالوا: لا تنفروا في الحر وحذروا الناس من بعد الشقة وبأس الروم.

روى الطبراني من حديث عمران بن حصين: كانت نصارى العرب قد كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم يقال له قباذ وجهز معه أربعين ألفاً. فبلغ النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة. وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام فقال: يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية من الفضة، قال فسمعته يقول: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها» وكانت الغزوة في رجب من سنة تسع، وروي عن ابن عباس أنها بعد الطائف بستة أشهر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾: النفر والنفير: فرار من الشيء أو إقدام عليه بخفة ونشاط وانزعاج بمعنى الفزع إليه أو منه. اثاقلتم: تباطأتم. وتشمل من لم يستجب ومن تباطأ. وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل تشده جاذبية الأرض إلى أسفل بعيداً عن انطلاق الأرواح وأشواقها للسماء (كما يقول صاحب الظلال).

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وقد شبه النبي ﷺ نعيم الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة في قلته وقصر مدته بمن وضع إصبعه في اليم ثم أخرجها منه، قال: «فانظر بم ترجع؟» (رواه أحمد ومسلم)

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ، إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾.

يقول النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[1] والاستنفار في سبيل الله أكبر من أن يحصر في القتال.. فهناك الغزو الفكري والمرابطة على الحدود الفكرية.. والسهر على سلامة العقائد.. والعمل على إصلاح الخلل في الأمة. وبذل الجهود لتطوير الفكر الإسلامي. وابتكار الأساليب التي تناسب العصر في الدعوة إلى الله والإسلام.

وإن عدم تلبية الاستنفار يستوجب نتائج وخيمة يجملها الله في عبارتين:

١- العذاب الأليم في الدنيا والآخرة - لأن الآية لم تحدد -

٢- ويستبدل قوماً غيركم.. يجتهدون ويستنفرون أنفسهم فيتفوقون فكرياً ومادياً.. ومن المؤسف أن المسلمين الآن لو استنفروا من أجل الدنيا لأسرعوا.. رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً.. يهرعون وراء التقاليد والموضات ويمارسون التسوق ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١] فأين من يخصص وقتاً يومياً للارتقاء بفكره؟ أو لإعداد الغذاء الفكري لأولاده كي يمتلكوا الحصانة الفكرية أمام عواصف الغزو الفكري؟ وأين من ينفرون لإنقاذ الأمة من براثن الجهل والتخلف والشقاق والاستعباد؟

إن من لا يلبي نداء الله ويستمرئ الاسترخاء والتخلف لا يضر إلا نفسه ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فدعوة الله غنية عنا ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن

---

(١) رواه مسلم.

يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨/٤٧].

والحق أن في نفس الإنسان توقاً كبيراً لأن يؤمن بهدف لحياته يعيش من أجله ويموت في سبيله.. وروعة الحياة تتجلى في أن تكرس حياتك لمثل أعلى آمنت به.. وقد تذوق الشيوعيون هذا الأمر واستنفروا أنفسهم لرفع الظلم عن الكادحين، وبذلوا أرواحهم برضى.. فكيف بمن يؤمن بالله واليوم الآخر؟! ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء: ١٠٤/٤] فهل تذوقنا حلاوة العيش في سبيل الله وفي كنفه؟! إن المسلمين قد حولوا دينهم إلى عبادات فردية طقوسية.. فهم يتنافسون على الحج في كل عام وينتهزون كل منافسة لأداء العمرة بعد العمرة.. ويفرطون في الاستخلاف في الأرض.. وما أسهل أن تنسحب وتنهزم إلى زاوية تتعبد فيها الله.. وإن أداء العمرة يعتبر إجازة نفسية وروحية أمام المعاناة الكبيرة التي يتعرض لها من يتصدى لمشاريع اجتماعية نهضوية.. كإنشاء المدارس ورياض الأطفال والمراكز النفسية والأسرية لتقديم الخدمات الاجتماعية.. وحين نتأمل قول رسول الله ﷺ عن النساء «إن حسن تبعل إحداكن يعدل كل ذلك»(١) ندرك الجهاد المتواصل المطلوب من المرأة لمنح الأسرة حالة السواء الفكري والنفسي.. فهو أعظم من شهود المعارك ضد العدو الخارجي.. بينما العالم الإسلامي يصب كل حديثه على العدو الخارجي.. وينسى أن الإنسان لا يمكن أن ينتصر في معركته مع عدوه ما لم ينتصر في معاركه الداخلية مع شيطان نفسه ومع أمراض أمته.. فها هنا يكمن الاستنفار..

---

(١) أخرجه البيهقي بما معناه.

٣- نصر الله لرسوله:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

والآية هنا تشير إلى حادث الهجرة ونصرة الله لنبيه فيها.. فكيف نصره الله؟

فلنتأمل حادث الهجرة وكيف حرص النبي ﷺ على القيام بكل ما يقدر عليه من أسباب:

-فقد كتم خبر هجرته، وحين أراد أن يخبر أبا بكر بذلك زاره في غير الوقت المعتاد للزيارة، زاره في الهجير.

-أمر بتجهيز ناقتين واتفق مع دليل ثقة وخبير بالطرق.

-خرج من بيته ليلاً وترك علياً في فراشه ليتوهم المشركون أنه ما زال في فراشه.

-لم يرد الأمانات إلى أصحابها حتى لا يعلموا بقرار رحيله. وترك علياً ليردها ولم يستبح أخذها.

-اتجه نحو غار ثور وهو يعاكس طريق المدينة.

-وكان عبد الله بن أبي بكرٍ يأتيهما ليلاً بأخبار قريش ويعود في السحر إلى مكة.

- وكان عامر بن فهيرة - راعي غنم لأبي بكرٍ - يمرّ بهما أمام الغار لتعفية آثار الأقدام ويسقيهما لبناً.

-خرجا من الغار بعد ثلاثة أيام وقد يئست قريش من العثور عليهما فأخذا الطريق الساحلي المتعرج.

- كان أبو بكر يقول للقوافل التي تلتقي بهما وتسأله عن محمّدٍ ﷺ: (هذا يهديني طريقي) فتظنه دليلاً.

-لم يقاتل سراقة ولم يتركه يهلك بل كتب له عهداً مقابل أن يكتم أمره .

-لم يغتصب مالاً من أم معبد - عندما نزلا ضيفاناً عندها - بل كان محسناً في كل أعماله.

كل ذلك جعل النبي ﷺ هادئاً راسخاً مستيقناً من عون الله لأنه فعل ما يَسَعُهُ «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».. فانتصاره ونجاته كانا بسنة الله.. وكل من أخذ بسنن الله وصل ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧] ومن يستنفر نفسه لنصرة دين الله ويقم بكل ما يقدر عليه من أسباب سينصرْهُ الله ولو بعد حين ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٥٨/٢١] فإن مرت بنا لحظات من اليأس والإحباط علينا أن نذكر اللحظات العصيبة التي مر بها النبي ﷺ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ..﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾؟! ألا نملك إنساناً ثانياً يشاركنا الهدف والعمل؟! فما أعظم الأمل الذي تبثه فينا هذه الآية؟!

وموسى أيضاً قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦١] فقال: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٦٢].

ولابد أن نتذكر أن الأسباب تحتاج إلى وقت كافٍ لظهور نتائجها.. ولابد أن نستيقن أن الله متم نوره ولو كره الكافرون، ودين الله هو الخير والأبقى الذي سيكشفه الناس. ولكنكم قوم تستعجلون ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨].

وحين نتأمل وقفة أبي بكر مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم يملؤنا

التقدير والعرفان بالجميل لهذا الصدّيق الذي وقف إلى جانب النبي ﷺ في أحلك الساعات وفداه بنفسه.. وما أروع أن ينعم الله على الداعي بمثل هذا الصاحب.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ على من؟! الأولى أن تكون على أبي بكر لأن النبي ﷺ كان ساكناً مطمئناً.. بينما كان أبو بكر خائفاً على النبي ﷺ من أن يراه المشركون ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ما هي الجنود التي تشترك في المعارك النفسية..؟ إنها جنود غير مرئية تحدث الهزيمة المعنوية في العدو بينما تدعم المؤمنين وترفع معنوياتهم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ ما هي الكلمة المقصودة هنا؟

قد تعني الشرك والكفر الذي يتردد على ألسنتهم.. لكن الأولى أن نقول: قرارهم الذي أجمعوا عليه بعد التشاور في دار الندوة من التآمر على قتل النبي والمؤامرة التي دبروها حين أرسلوا الفتية فحاصروا بيته.

أما كلمة الله فهي سننه وإرادته ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧١-١٧٣] وعلى المؤمنين أن يراجعوا أنفسهم إن لم يحصلوا على النتائج المرجوة ويبحثوا عن الخلل فيتداركوه. فإن لم نجد خللاً ننتظر فقد تحتاج النتائج إلى وقت كافٍ حتى تظهر.. ولابد من الصبر والتواصي به.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز: الممتنع الغالب فلا يقدر على إيقافه أحد. والحكيم: هو الذي يجري الأمور على الوجه الأفضل وكل أمر يحدث بتقديره في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وتأتي الآية الأخيرة في المقطع الثالث لتعلن النفير العام:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

تأمل كيف لم تترك الآية عذراً لأحد ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾..! وقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ قبل الهجرة «بايعناه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره».. وتجاوب الصحابة مع هذا النفير فخرجوا للقتال - الذي كان جهاد عصرهم - شيوخاً مهما أثقلهم الضعف والكِبَرِ (من أمثال أبي أيوب الأنصاري وأبي طلحة).. وبهذا الفهم وبهذه العزيمة ثبت المسلمون أركان الدولة الإسلامية - التي كانت محضناً هاماً للحضارة الإسلامية - وأنقذوا العباد في الشرق والغرب من ظلام الشرك ونير الاستعباد. لكن العالم الآن قد اختلفت فيه أساليب الجهاد وتعددت الطرق من بذل المال والنفس من أجل إنقاذ الإنسان. مثلاً: في قناة العربية (تلفزيونية) وبتاريخ ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٤ عرضوا مقابلة مع (يوغي) - من هولندة - قد أسس جماعة (التأمل التجاوزي) ويقول: لو أمكن تدريب ١٪ من سكان العالم على هذا التأمل لتحرر الإنسان من كل نزعة أذى نحو الآخرين ولتوقف القتال والعدوان وخرج الناس من الظلمات إلى النور.. قد لا يكون عمله خالصاً لله.. وقد يكون تصوره محدوداً وقاصراً لكنه يفكر بوسيلة لإنقاذ الناس.. وهو جزء هام من ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.. قد نقول: معلوماتنا قليلة ولا نعرف كيف نقنع الناس بالحق.. وماذا يمكن أن نُغَيِّرَ وسط هذا الخضم الزاخر من الظلم والضلال..؟!

أذكر مثالاً مر معي أثناء قراءتي في (قصة الحضارة): (نشر تندال عام ١٥٢٥ ترجمة للكتاب المقدس إلى الإنجليزية. وكان قد فكر مبكراً في أيام دراسته في هذه الترجمة - لا من اللاتينية وإنما من الأصلين العبري واليوناني - ولما لامه كاثوليكي غيور - لأن الكاثوليك يسلمون في دينهم

إلى تعليمات البابا - رد بقوله: (إذا مدَّ الله في عمري فلن تمضي بضع سنين حتى أجعل الصبي الذي يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت) ومنحه أحدهم - في لندن - الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب في أثنائها على العمل.. وبدأ الكتاب يطبع وينتشر.. ولاحقوه وقبضوا عليه وأعدموه في المحرقة عام ١٥٣٦ وكانت آخر كلماته (رباه افتح عيني ملك إنجلترة) وقد عاش ما يكفي لإتمام رسالته، فالصبي الحارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين وهم يروون قصة المسيح.. وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠٪ من أعظم ما كتب في الأدب الكلاسي الإنجليزي وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير)[١].. هذا رجل استنفر نفسه لتوعية عامة الناس بالكتاب المقدس واستشهد في سبيل ذلك وهو يدعو لقاتله بأن يكشف الله الغطاء عن بصيرته.. أفلا يكون على درب الأنبياء..؟!

وفي عام ٢٠٠٤ كانت الثقافة العربية والإسلامية هي ضيف الشرف على معرض الكتاب في فرانكفورت، وقد بذلت دار الفكر جهداً كبيراً لتحضير منشورات وترجمات لبعض الأفكار الإسلامية.. وكان واضحاً تقصير المسلمين في ترجمة فكرهم إلى العالم.. إذ اكتشف أنه لا توجد ترجمة للقرآن الكريم إلى الألمانية!! والعالم الغربي لا يعرف كثيراً عن الفكر الإسلامي التجديدي وخاصة في موضوعي: الجهاد والمرأة..

قد تقولون: من يموِّل؟ وكيف نعمل؟! إن هذا الذي ترجم الكتاب المقدس دفع حياته ثمناً لعمله هذا.. فلو تطوعت بعض الأخوات لترجمة كتيب عن المرأة - مثلاً - وعرضته على دار الفكر لكان هذا نفيراً لله.. ولكن حتى الآن نحن لا نؤمن بأهمية مثل هذه الأعمال ونريد حلولاً

(١) مختصراً عن ما ورد في صفحة ٧٥ من الجزء ٢٥ لقصة الحضارة - ول ديورانت.

عاجلة. والحقيقة أن هناك أعمالاً كثيرة وصغيرة يمكن أن تبذل يومياً لنهضة هذه الأمة أو لمساعدة من يملكون القدرات ويعملون على نشر الخير والدعوة إليه، وطوبى للجنود المجهولين لأنهم حفظوا أعمالهم من كل شبهة رياء.. ورحم الله من قال: (الناس كلهم هلكى إلا العالِمون، والعالِمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم) هذا الكلام لا يُرادُ منه أن يشعرنا باليأس.. وإنما أن يشحن النفس ويشعر المؤمن بالاستنفار إذ يمنحه التوتر المناسب بين الخوف والرجاء.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولو قتل المجاهدون أو عذبوا فإنه خير لهم في الدنيا والآخرة وخير للأمة، فلا عزَّ ولا سيادة ولا نهضة ولا حضارة إلا بالبذل والجهاد بالمال والنفس. وإن حب الراحة يورط في المتاعب على المدى البعيد.. فالتي تهمل بذل الجهد في تربية أولادها وتركن إلى الراحة.. تجني كل التعب منهم عندما يكبرون. وقد قال أحدهم - في عصر النزاع بين علي ومعاوية - (إن طعامي مع معاوية أفضل لدنياي وصلاتي مع علي أفضل لديني) ولو أنه رأى ما سيحدث في المستقبل من نكبات ومجازر لأحفاده لما قال ذلك، ولعرف أن البذل والاستقامة ولو حرماه في العاجلة فهما أفضل لدنياه..

وكما قال الشاعر:

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها   تنالُ إلا على جسرٍ من التعب

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو درستم التاريخ لعرفتم كيف تأتي العواقب وعندها يحدث العلم الذي يرسخ الإيمان. هذا تلطف من الله في بيان أن أمره سبحانه كله خير للعباد ..﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٢]؛ ويا ليتنا نحول عواقب التاريخ إلى ما يشبه (آلة الزمان) التي تضيء لنا

عواقب المستقبل لما نفعله في الحاضر.. إذن لفهمنا بعض الحكمة من أوامر الله سبحانه وتعالى.

إن روح السورة تنضح بالاستنفار لله وسيأتي في أواخرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ٩/١١١] فحياة المؤمن كلها لله؛ وعليه أن ينتبه إلى ذلك في أعماله اليومية..

وبعد هذا البيان لأهمية الجهاد يبيِّن الله تخاذل المنافقين وأساليبهم في التسلل.

المقطع الرابع الآيات [٤٢-٩٦]

التمييز بين المؤمنين والمنافقين

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي
رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن
كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ
خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ
سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا
لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾
قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا
مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ
كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ
إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ
بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ
مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ
فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾
وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ
مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ
وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ
وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن
كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ
نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن
تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا
تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ
أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ
إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ
﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم
بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي

خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ
وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤٢-٧٠].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ
سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ
ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾
يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ
بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ
خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن
فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ
بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ
أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ
ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ
فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا
تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ
بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾

فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ
طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ
إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى
ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ
جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ
لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ
رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ
﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١-٩٦].

وهو أطول قسم في السورة، وذلك أن النفاق استفحل بعد فتح مكة بدخول الناس في دين الله أفواجاً دون علم كافٍ؛ وكثيرون دخلوا به لأنه أصبح الغالب. والله سبحانه يوجه المؤمنين لعلاج هذا الخلل الذي من شأنه أن يفقد المجتمع توازنه وتماسكه؛ إذ تختل النسبة بين النخبة والكمية المتنامية من عامة الناس.. (مثل العتبة الصحية التي يتحدد مستواها بنسبة الأطباء إلى عدد السكان).

ولابد لنا قبل أن نمضي مع الآيات أن نتساءل: لماذا كان الخروج إلى تبوك؟ أعود إلى كتاب لـ (عماد الدين خليل: دارسة في السيرة) حيث يستعرض العلاقات بين المسلمين وبيزنطة التي أحست بخطر تنامي قوة المسلمين.. وكان الظن في البداية أنه مجرد توسع قبلي لإمارة عربية ناشئة - مثل كندة وتدمر - ورأوا أن بإمكان حلفائهم العرب أن يكْفُوا الروم عناء وقف هذا الامتداد - كالمناذرة والغساسنة وكندة - وفي السنة الخامسة للهجرة كان أكيدر بن عبد الملك الكندي - وهو نصراني - قد جمع القبائل لزحف سريع لضرب المسلمين في المدينة، لكن الرسول ﷺ أخذ زمام المبادرة وسار بألف من أصحابه يكمن نهاراً ويسير ليلاً والقبائل تهرب من بين يديه، وهي غزوة (دومة الجندل) - وهي إلى الشرق من تبوك - وهي أول الحلقة في سلسلة الصراع مع النصرانية - الذي كان سياسياً مع الحكام وليس دينياً - وبعد عام أرسل ﷺ عبد الرحمن بن عوف لقتال قبيلة كلب النصرانية في المنطقة نفسها وطلب منه أن يتزوج ابنة ملكهم.. وأسلم الملك وتزوج عبد الرحمن ابنته وأسلم قسم من القبيلة وبقي آخرون يدفعون الجزية. وبذلك ربطوا بالمسلمين بالمصاهرة. وكاتب النبي ﷺ الأمراء والملوك، وأظهر إمبراطور الروم الاهتمام بالرسول وآثر التأني أمام دعوته، بينما غضب المنذر بن الحارث الغساني أمير دمشق وهمَّ بالسير لقتال المسلمين فأمره قيصر أن يتريث. وكانت

حادثة مقتل الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة هي التي اقتضت حدوث غزوة مؤتة - وقد أرسل فيها القيصر مائة ألف من الروم لمواجهة المسلمين - ولم يمض شهر واحد على مؤتة حتى بلغ النبيَّ ﷺ أن قضاعة في الشمال - وهي موالية للروم - تريد الهجوم، فأرسل عمرو بن العاص على رأس ٣٠٠ من أبطال المهاجرين والأنصار، ثم أمده بأبي عبيدة الجراح وانتصر المسلمون في ذات السلاسل؛ وبدأ النفوذ الإسلامي يتمكن في الشمال. وبعد عودة النبي ﷺ إلى المدينة - بعد حنين - بلغته أنباء عن تحركات يعتزم الروم وحلفاؤهم العرب من لخم وجذام و.. القيام بها ضد المسلمين وقد أرسلت طلائعها إلى البلقاء. كان الوقت صيفاً والبلاد تعاني جدباً والطريق طويل والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم. لكن السكوت عن التحرك الرومي كان معناه الهزيمة. وفي معظم الغزوات كان الرسول ﷺ لا يحدد هدفه حتى لا تتسرب الأخبار إلى العدو، لكنه في هذه الغزوة بيَّن للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو.

كل هذا يكشف لنا عن مبررات الخروج إلى تبوك في رجب من السنة التاسعة. وقد جهز النبي ﷺ جيشاً عدده ثلاثون ألفاً فيهم عشرة آلاف فارس. ونزل في تبوك جاعلاً إياها مقراً لعملياته. وقد تفرقت جموع الروم فلم يحدث صدام مباشر. لكن النبي ﷺ سيَّرَ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، وأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة (العقبة) فصالح على جزية يسيرة. كما أتاه أهل جرباء وأذرح كذلك. وعاد إلى المدينة ولم يلق حرباً تذكر. لكن الغزوة تمخضت عن أحداث كثيرة وكشف معادن المسلمين والمنافقين، فكان منهم:

١-المهاجرون والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة.

٢-البكاؤون الذين جاؤوا إلى النبي وقالوا: احملنا، لعجزهم عن

التجهز للخروج فقال ﷺ: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولّوْا ولهم بكاء لأنهم حبسوا عن الجهاد.

٣-المخلفون ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ الذين اعتذروا من النبي ﷺ عن المشاركة بالغزوة وهم ٨٢ رجلاً من غفار فلم يعذرهم الله وفيهم نزلت الآيات [٤٢ - ٤٤]: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ من السورة.

٤-الثلاثة الذين خلفوا وهم صادقون وسيأتي الحديث عنهم.

٥-والمنافقون الذين خرج بعضهم مع النبي ﷺ ومارسوا كيدهم من الداخل وهموا بما لم ينالوا من قتل النبي ﷺ أثناء العودة.

وبعد هذا الاستعراض الموجز يمكن لنا أن نعود إلى الآيات ونتابع التوجيهات فيها:

١- فضح المنافقين وأعمالهم

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ وهو ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع ..﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾: لا مشقة فيه ولا كلال. والناس تسرع وراء المنافع المادية خاصة إذا كانت سهلة المأخذ.. فلو دعي المسلمون إلى تجارة أو لهو لأسرعوا.. ولو دعيت النساء إلى حفلة أو رخصة في الأسواق لأسرعن..

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ المسافة التي لا تقطع إلا بتكبد المشقة

والتعب. نتذكر هنا قول النبي ﷺ للذين أرادوا الانتقال للاقتراب من المسجد «مكانكم تكتب لكم خطواتكم» - بما معناه - وهذا لا يعني أن نتعمد المشقة لأن الله يريد بنا اليسر.. ولكن النبي ﷺ يقصد المشقة التي لا يمكن تخفيفها، فمن الواضح أنه لا يمكن أن ينتقل الجميع إلى جوار المسجد. أما قولنا (الأجر على قدر المشقة) فليس سوياً دائماً.. فلقد جاء الدين لرفع المشقة ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢٠/٢].

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ سيحلفون لكم كذباً بعد عودتكم من الغزوة على أنهم لم يملكوا القدرة على الخروج معكم. بينما هم لا يريدون الخروج.. فالعيب عندهم ليس في القدرة وإنما في الإرادة.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بامتهان اسم الله تعالى والحلف الكاذب وتخاذلهم عن الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فكيف ينسون ذلك؟! لقد أرادوا إنقاذ أنفسهم لكن النتيجة لم تأت بحسب الإرادة وإنما أصابهُمُ الهلاك نتيجة لأعمالهم. فنتائج الدنيا لا تأتي بحسب النوايا وإنما بحسب الأعمال. وهذا يشمل المخلصين أيضاً.. فإن العاقبة تأتي بحسب ما قدموا من أعمال وليس بحسب إخلاصهم. وهو ما يَغْفُلُ عنه المصلحون الدينيون أحياناً إذ يركزون على الإيمان وتصعيده ولا يعطون الأهمية اللازمة لتصحيح (صوابية الأعمال)؛ حدث هذا في الإصلاح الديني في أوربة - عند لوثر وكالفن - وعند بعض التيارات الإسلامية.. إذ يشيعون أن الإيمان ينجي مهما كانت الأعمال.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ عتاب لطيف وحنون.. والعبارة تستعمل للدلالة على ترك المؤاخذة، وتستعمل بمعنى الدعاء.

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ عندما جاؤوك يعتذرون عن الخروج معك، فلو

أمسكت عن الإذن لهم لانكشف نفاقهم لأنهم لن يخرجوا سواءٌ أأذنت أم لم تأذن ..﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أمام هذه الآية - ومثيلاتها التي تعاتب النبي ﷺ - يصرح علماء الأصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الأنبياء عليهم السلام، ولكن لا يقرهم الله على ذلك بل يبين لهم الصواب فيه كما حدث عند أخذ الفدية من أسرى بدر.

سنلاحظ أن الحديث عن التخلف عن الجهاد - أثناء هذه السورة - سيذكر نوعين: نوعاً فقد القدرة ونوعاً فقد الإرادة، وهما العنصران الأساسيان لحدوث الأعمال. يقول ابن تيمية: (إذا توافرت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة حصل المراد) وعلينا أن نميز أثناء دراسة السورة - وفي الحياة العملية - بين هذين النوعين. وفي المنار طرفة تتعلق بالإرادة إذ نقل قولاً لبعض العلماء (من قال لك: أتأكل؟ هل آتيك بكذا؟ فقل له: لا، فإنه لو أراد أن يكرمك لما استأذنك) وهو ما تركز عليه الآية الآتية:

٢- المؤمن لا يستأذن في التخلف

﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ وقف المفسرون عند هذه الآية وآية النور ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾ [النور: ٢٤/٦٢] كيف نوفق بينهما؟ وقد وجدت كلام صاحب المنار أفضل من غيره، فهو يرفض فكرة نسخ إحداهما، ويقول: إن موضوع الاستئذان في سورة النور غيره هنا. ففي (النور) هم مع النبي ﷺ على أمر جامع

ويعرض لأحدهم حاجة فيذهب لقضائها - بعد الاستئذان - ثم يعود إلى الجماعة (وكان بعضهم يذهب دون استئذان ثم تعلموا بعد نزول الآية). ومن المعروف أن القائد أو المسؤول عن الأمر الجامع يجب أن يعلم بكل دقة تحركات العاملين كي يتوصل إلى إنجاز المهمة. وقد جاء التعقيب عندها ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٢] ليقتصر المؤمن في ذلك على الضرورة. أما المنافقون هنا فإنهم لا يريدون الخروج للجهاد ويتهربون من البذل بالاستئذان. أما المؤمنون فلا يستأذنون في التخلف.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الذين يتقون غضب الله باتقاء مخالفة أوامره وسننه.

٣- الخلل عندهم في الإرادة

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

الإيمان مفقود إذن لا توجد إرادة .﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ والارتياب والتردد يعني أن الإرادة غير جازمة (بحسب مصطلح ابن تيمية) وطالما اختلَّت الإرادة فإن العمل لن يحدث.

لكن أتساءل: في أي شيء ارتابت قلوبهم؟ وما علاقة التردد بالشك؟

هل ارتابوا في وجود الله؟ أم في صدق رسول الله؟ أم في جدوى الخروج إلى تبوك للجهاد؟

أما الشك بالله أو رسوله فهو خروج من الإيمان.. يثمر التردد في اتخاذ القرارات لمناصرة الدين.. أما الشك في صلاحية الخروج للجهاد.. فهو في زمن النبي ﷺ نفاق لأن النبي ﷺ هو الذي استنفر له، وأما في أزمنة أخرى.. فإن قرار الخروج للحرب مرتبط بعوامل عدة على رأسها العلم

بالحالة الراهنة ودراسة العواقب: هل يثمر الخير في الدنيا والآخرة؟؟ وبالتالي هل هو في سبيل الله؟.

والتردد في اتخاذ القرار مشكلة كبيرة عند النفوس الجاهلة والضعيفة.. وهي غير الحلم والتأني.. والتردد يحدث عند من تختل عنده الأولويات وكأن فيه شركاء متشاكسون كل واحد يجذبه إلى طرف، وعندها تكون المشكلة في التوحيد (الإخلاص لله: أن تكون المركزية له).. ويحدث عند من لا يملك مهارة اتخاذ القرار وهو أمر صار له أهمية كبيرة في أبحاث تطوير الذات.. والنقص عندها يكون في العلم (القدرة). وفي ثقافتنا الإسلامية لدينا مفكرون درسوا موضوع الإرادة والقدرة؛ وقد أشرت إلى قانون ابن تيمية الذي كان ملهماً للمفكر المعاصر جودت سعيد حين كتب كتابه (العمل قدرة وإرادة).. وقد قرر فيه أن العمل مولود من أبوين اثنين: القدرة والإرادة. ثم بحث عن أبوي كل منهما، فوجد أن أبوي الإرادة هما العقل والمثل الأعلى، وأبوي القدرة: العقل وآيات الآفاق والأنفس (وهي القدرة الفهمية). ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ يقول مالك بن نبي: إن العدة موجودة دائماً في كل مكان.. والعناصر الأولية للحضارة موجودة حتى عند البدائيين (وفق التحليل الذي قام به: الحضارة = إنسان + تراب + وقت) لكن العلة في الإرادة.. وهي تفاعل الإنسان مع مثل أعلى يحيى من أجله. فما هي العلل التي تصيب الإرادة؟ يتحدث جودت سعيد في كتابه الذي أشرت إليه عن أمراض الإرادة.. فهي أمراض أبويها:

١-نقص في العقل: ولهذا رفع القلم عن الصبي والمجنون والنائم (لأنه نقص غير مقصود) ولكن النقص يكون مقصوداً عندما لا يُشغَّل العقل؛ وهذا ما يحاسب عليه الإنسان. ولهذا كرر القرآن نداءاته ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.. وقد بيَّنْتُ في كتابي (مقاصد القرآن) أن أهم مقصد لنزول القرآن هو تفعيل العقل؛ فقد تكرر ذلك ٣٦٠ مرة. ومن

المؤسف أن أسلوب المربين في عالمنا - في الأسرة والمدرسة والمسجد - يثبط تفعيل العقل ويوقف نموه في أغلب الحالات.. بينما تظهر في العالم المتقدم اجتهادات جديدة وبرامج ومناهج لتعليم الطفل مهارات التفكير (مثل ديبونو والقبعات الست - ومنهج سوام) وعلينا نحن المسلمين أن نستفيد منها.

٢-نقص في المثل الأعلى: فإما أن يكون المثل الأعلى خاطئاً فلا يتفق مع العقل ومصالح الناس، أو يحدث سوء فهم للمثل الأعلى بتحريف النصوص وفهمها على غير وجهها، مثل عدم فهم العلاقة بين عمل الله وعمل العبد فيقع الإنسان بالجبرية ويقتنع بالكلمة الدارجة (ما بيطلع بيدي شيء). وكم من مفاهيم سيئة وسلبية مما يُعْزى إلى القرآن والسنة لابد من إزاحتها وتصحيحها كي يعود للدين بريقه الأصيل وتأثيره الإيجابي؛ فتنشط إرادة المسلمين ويتحركون لتحصيل القدرة الفهمية؛ لأن القدرة المادية متوافرة لديهم.

أخيراً ألفت النظر إلى أن حجة الإسلام الغزالي كان قد تحدث في (إحياء علوم الدين) عن هذا الموضوع ولكن بمصطلحات أخرى مثل: العلم - والحب. وتوسع في بحث أمراض القلوب لأنها علل الإرادة.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

.نلاحظ أن الآية بدأت بعمل الإنسان ثم ذكرت صُنْعَ الله لأنه يأتي كثمرة لعمل العبد (الذي هو فقدان الإرادة) ثم عاد إلى عمل الإنسان (الذي هو انبعاثهم) ثم مرة أخرى إلى صنعِ الله ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾.. إنها حلقة مترابطة من العلاقات الجدلية (أثر ومؤثر).. ونقطة البداية فيها اختيار الإنسان.

وكلمة ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ تصور كيف يستثار الإنسان فيقوم من استرخائه

بقوة ونشاط. وتعاكسها ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي عوّقهم وخذلهم - ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا هنا - لقد كرهوا الحركة وآثروا القعود والركون؛ ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه - كما ورد في الحديث عن الصلاة - ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ فهل هذا أمر قرآني تشريعي؟ لا؛ بل إنه أمر سنني؛ فمن تراخى وأهمل نفسه إنساناً له إرادة ومهمة جاءته النتيجة بحسب سنة الله: وهي القعود.

وقد تُفْهم على أنها وسوسة الشيطان إذ يقول لهم اقعدوا وارتاحوا.. أو هي قول المنافقين والمثبطين بأُسلوب النصح: لماذا تهلكون أنفسكم؟ وقد تكون إشارة إلى قول الرسول لهم - عندما استأذنوا - بعبارة تدل على عدم الرضى: اقعدوا مع القاعدين.. مع الأطفال والنساء والعجزة..

٤- خروجهم معكم ضرر لكم

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

الخبال هو اضطراب في الرأي وفساد في العمل وضعف في القتال وخلل في النظام. ولعل المسلمين يتحسرون أحياناً لقلة عددهم ويتمنون لو تنضم الجماهير إليهم.. فالقرآن يواسيهم ويبين لهم حقيقة ربما فاتتهم وهي: ضرورة توحيد الأولويات عند فريق العمل الذي يخرج لأداء عمل جماعي مشترك.. سواء أكان حرباً أو مشروعاً تربوياً أو اقتصادياً. وإلا فستحدث مشاكل وثغرات كثيرة. وربما يحدث تعاكس فيتحركون إلى الجهة المعاكسة للصف الإيماني فتكون النتيجة صفراً كما يعبر مالك بن نبي إذ يلغي كل منهما جهد الآخر.

﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ فإن توقعنا الخلل لمجرد اختلاف الأولويات - ولو لم تكن هناك نوايا سيئة - فكيف إذا كانت النفوس خبيثة تخطط للإفساد؟!

والآية توحي بأنهم يضعون أخباراً وكلاماً بين المؤمنين من شأنه أن يثير الفتن.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ وهي إشارة إلى نقاط الضعف في الصف المؤمن. والكلمة (سمَّاعون) تفيد الاهتمام والتتبع.. وهو أمر إيجابي في الأصل لكن ينقصه الفحص والتدقيق في الأخبار. وقد حذرنا الرسول ﷺ «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع» لأن الإنسان يعبر عن صوره الذهنية وماذا فهم.. وأحياناً تنطقه انفعالاته بالأوهام.. وأحياناً أخرى يكون الخبر مجرد لغو وثرثرة. لهذا أقول: ربما يجب ألَّا يَعتدَّ المرء بما مقداره تسعون بالمئة ممّا يسمع من كلام. هذا عدا عن النميمة والإيقاع. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو تحذير للمنافقين والمؤمنين أيضاً.

إن تخاذلنا عن الجهر بالحق وإهمالنا للمرابطة على الثغور الفكرية للأمة.. حتى إننا نوصي أولادنا بالسكوت وعدم الاعتراض على المعلم إن أخطأ وعلى صاحب السلطان إن حاد عن الحق.. بدعوى حمايتهم من الفتنة أو أن يلحق المستكبر بهم الأذى.. قد أثمر لنا طوفاناً من الأخطاء يكاد يغرق الأمة في الفتن.. حقاً إنها جهنم الدنيا التي نكتوي بنارها لتفريطنا بأفضل الجهاد (كلمة حق في وجه سلطان جائر).

ويذكر المؤمنين بماضيهم ومواقفهم السابقة ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.. فلقد سبق لهم أن خذلوا الناس يوم أحد.. وأكثروا من الفتن الداخلية (كما فعلوا يوم المريسيع وفي خبر الإفك)..

﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبروا لك المكائد والحيل.. دوروا الآراء وبحثوا في كل الوجوه: كيف يتمكنون من إحباط دعوتك وإبطال دينك.. يذكرنا هذا بأجهزة الصراع الفكري كيف درس أصحابُها الأمور وقلبوا

وجهات النظر للإيقاع بين المسلمين. فهل فعل ذلك أصحاب الحق؟ وهل قلبوا وجهات النظر للوصول إلى نصرة الحق؟! لقد بذلوا جهدهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لقد حنوا رؤوسهم وهم كارهون وظلوا يتربصون بالمسلمين الدوائر. وقد ذكر بأن عدد هؤلاء المتخلفين كان ٣٦ رجلاً.

ويذكر حال أناس من أولئك المتخلفين وكيف برروا استئذانهم:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾. وقد روى محمد بن اسحاق عن الزهري خبراً في ذلك وهو أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم وهو في جهازه لغزوة تبوك.. للجد بن قيس - أخي بني سلمة - «هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر؟» - أي الروم - فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه ﷺ وقال: «قد أذنت لك»..

﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ الفتنة هي الامتحان والعذاب.. وهؤلاء قد تخاذلوا فسقطوا في الامتحان .﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والآية ترسم المشهد وكأن الفتنة هاوية يسقط فيها المنافقون وهناك يجدون أنفسهم محاطينَ بجهنم.. ليس في الآخرة فقط وإنما في جهنم الدنيا أيضاً.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن حاتم عن جابر بن عبد الله قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا في المدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء؛ يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا.. فبلغهم تكذيب أخبارهم وعافية النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي

حسبنا للأمر حسابه من قبل وأخذنا حذرنا الذي هو دأبنا إذ تخلفنا عن القتال والخروج للغزوة. (ويتولوا وهم فرحون) بالنجاة مما أصاب المسلمين من بلاء.. لأنهم ينظرون إلى العاجلة ويحسبون البلاء شراً في كل حال ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف.. ولا يرون العواقب البعيدة ولا يدركون سنن الله.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ والله قد كتب النصر للمؤمنين ولكن بعد أن يبذلوا ويصبروا على المشقة ويتخطوا العقبات السريعة العاجلة. وبلاء الله يكون تعليماً وإعداداً للمؤمنين حتى يصلوا إلى النصر على بينة وعن جدارة بوسائل النصر ووفق سنن الله.. نصراً عزيزاً وليس رخيصاً.

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كما قال عمر لأبي سفيان بعد أُحُد (الله مولانا ولا مولى لكم) ولكن ما هو التوكل الحقيقي؟ هو أن تأخذ بالأسباب بأكثر مما يأخذ به العلماني وتلجأ إلى الله بأكثر مما يلجأ إليه الصوفي..

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ النصر أو الشهادة؟ وعجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير كما قال رسول الله ﷺ؛ فهو يتنقل بين الصبر والشكر. والمؤمن حين يجتهد ويقوم بالأسباب يطمئن إلى ربه فقضاء الله كله خير.. إنه على يقين بعلم الله وعدله ورحمته وقدرته.. أما المنقطع عن ربه فماذا ينتظر؟! ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ لأننا على يقين من سنن الله وننتظر العواقب لنا ولكم.. سواء جاءت بأحداث خارجية أو بأسباب نقوم بها بأيدينا .﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.. إنه التحدي بالنتائج والعواقب فهي الحكم بيننا.. ويا له من موقف مليء بالعلم واليقين.

٥- لن تقبل نفقاتكم

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ لماذا؟ وكيف: طوعاً وكرهاً؟ نعود إلى القاعدة: لا ينجح العمل في الدنيا ولا يقبل في الآخرة حتى يتوافر فيه: الإخلاص والصواب والمنافقون مفتقرون للإخلاص: ينفقون طوعاً ليُمدحوا ويتفاخروا.. وكرهاً: خوفاً من الافتضاح.. ولقد قال ابن آدم الأول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٥/٢٧]. والتقوى هي: خشية في القلب وصواب في الفهم والاختيار وتنفيذ عملي.

وصدقُ الإخلاص موكول إلى الله تعالى وليس لإنسان أن يتهم أحداً فيه.. لكنه يستطيع أن ينقد نفسه: (ماذا أردت بهذا العمل) والميزان في ذلك: أن يستوي عنده مدح الناس أو ذمهم لأنه يريد وجه الله.. فلا يدع العمل ليرضيهم. وهذا لا يتعارض مع رضى المؤمن عن نفسه حين يعمل خيراً ولا مع شهادة الناس له بالخير. بل كلا الأمرين هامٌّ في تثبيت المؤمن ودعمه على الإقامة على الحق.

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين على سنن الله متبعين لأهوائكم. وتتابع الآيات التأكيد على ذلك: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه. ولا تكون صلاتنا صادقة إلا إذا تركنا من أجلها أعراض الدنيا وأقبلنا على الله متشوقين.. فهي الفرار إلى الله والراحة من أعباء الدنيا وصخبها.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ وكل عمل يقوم به الإنسان يعتبر بذلاً ونفقة.. لكن هؤلاء بكسلهم ونفاقهم يضيعون النفع على أنفسهم. فليس عيباً أن يرغب الإنسان في مصلحته، لكن المشكلة أن يجهل أين تكون مصلحته. والله قد جعل سعادتنا لا تتحقق إلا بالسعي لإسعاد الآخرين.

كثيرون مصابون بقصر النظر فلا يدركون نفع الإنفاق على المدى البعيد. فقد قال أحد المنافقين عن الزكاة (إنها أخت الجزية)!! ولا يدرون أنها تبني لنا ولأولادنا أمة متحابة متضامنة محصنة من الأحقاد والحروب الطبقية، كذلك لا يدركون حاجتهم إلى الصلاة بحسبانها إعادة شحن للإنسان بالطاقة ومصدراً للطمأنينة بالتواصل مع الله القادر على كل شيء والذي هو رحمن ورحيم بعباده.. ولهذا فهم متكاسلون محرومون..

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ والناس منذ القِدَم يتعلقون بالمال والبنين (زينة الحياة الدنيا) وهما بمصطلح العصر: القوة الاقتصادية والتعداد السكاني. والخطاب هنا ليس للنبيِّ وحده فما كان النبي ليغتر بالمال والبنين. وإنما هو خطاب للناس جميعاً.. فكم تزلزلنا القوى المالية والعسكرية عند أعدائنا.. وكم نتعجب ممن أعطوا هذه النعم وهم يسيئون التصرف بها. بينما يُمتحن الصالحون بالضنك.. وكل ذلك بلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥] و ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢].

إن هذه النعم الكبيرة جعلها الله نقماً عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ إنهم يتعبون في جمعها وتنميتها وحمايتها.. ويتعبون في تربية الأبناء وتدبير شؤونهم.. ويأرقون الليالي وهم يفكرون بالجمع والصيانة والسيطرة على الناس.. أما أولادهم فهم ثمار الفكر المادي الانتهازي الذي يؤثر مصلحة العاجلة.. والآباء هم أول من يجني الشوك والعلقم من ثمار هذه التربية المشوهة ..﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وإرادة الله هنا سننية.. فهم أرادوا العاجلة وأرادوا البخل والكسل.. فالعاقبة طبيعية.. ومن زرع شراً حصد شراً (هل يُجنى من الشوك العنب!!) ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ زهق السهم: إذا سقط دون الهدف. أي يهلكون قبل الوصول لأهدافهم. وبعضهم قال:

تزهق النفس تخرج من الجسد بصعوبة .﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يموتون على الكفر.

٦- يحلفون بالله إنهم منكم:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾،

والفرق: وهو الخوف الشديد الذي يفرق بين القلب وإدراكه. فهم في خوف وقلق من الفضيحة.. وفي خوف من المجهول لأنهم لا رب لهم يركنون إليه.. أو يطمئنون إلى سننه. بينما المؤمن في أشد حالاته يفر إلى ربه ويلجأ إليه فيشعر بالسكينة والأمن والرضى لقضاء الله فيه.

ويرسم لهم صورة ساخرة: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

المدَّخل: على وزن مفتعل من الدخول، وهو السرب في الأرض يدخله الإنسان بمشقة. والجماح والجموح: السرعة الشديدة التي تَعْسُر مقاومتها. ها أنت ترى لقطة فريدة لأناس مرعوبين يتطلعون في كل اتجاه بحثاً عن فُرجة يفرون إليها وينحشرون بها.. إنهم هاربون من أحد يطاردهم.. فمن يطاردهم؟! إنه الفزع الداخلي في نفوسهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٤] فهم في ركض ولهاث..

٧- يلمزون في الصدقات مع بيان مستحقيها:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الهمز: هو الاستهزاء باستعمال الإشارة.. وربما هو الطعن في الرجل في غيابه. بينما اللمز هو النقد والسخرية بالألفاظ. وقد تعرض النبي ﷺ

للنقد والسخرية واللمز.. من ذلك أنه ﷺ كان يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال ﷺ: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي فأضربَ عنقه فقال ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(١).

لكن المشار إليهم هنا في هذا الحديث ليسوا من المنافقين وإنما هم الخوارج والمتشددون والحرفيون في فهم الدين؛ فهم ليسوا خبثاء لكنهم محدودو التفكير لم يستوعبوا مقاصد الدين ولا يملكون المرونة للتعامل مع الواقع ضمن روح الشريعة.. إنهم نصوصيون.. بل هم متشبثون بقسم من نصوص بتروها عن أصولها.

أما هؤلاء الذين تذكرهم الآية فهم فريق من المنافقين يغضبون إن لم يكن لهم نصيب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

لو أنهم فعلوا ذلك.. ويترك الجواب لفهم القارئ؟.. (وهو من البلاغة) ولنا أن نتخيل منزلة هؤلاء.. وحالة الرضى التي تملأ حياتهم بالهناء.. وما أحوجنا إلى من يذكرنا بالمواقف الإيمانية عندما نصاب بالإحباط والسخط أمام بعض ما يصيبنا.. لأننا بشر من لحم ودم والشيطان يتربص بنا مستعيناً بكل ما في التراث الشعبي من أفكار سلبية مثبطة (من مثل قولهم: يطعم الحلاوة لمن ليست له أسنان - من لم يكن له حظ لا يتعب ولا يشقى) لابد أن نتذكر سنن الله في نتائج الأعمال في الدنيا.. وأن العاجلة زائلة وما عند الله خير وأبقى. وأن الله لا يخلف الميعاد.

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري.

ويأتي الرد عليهم ببيان أين توضع الصدقات في الآية التالية التي اعتبرت النص الوارد في مصارف الزكاة بدليل التعقيب ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾. ولابد أن نذكر قبل الدخول إليها أن قوام الحياة في النظام الاقتصادي الإسلامي هو العمل. وعلى الدولة أن توفر فرص العمل لكل قادر عليه؛ إذ لا حقَّ له في الزكاة.. وإنما هي فريضة تحقق التكافل بين القادرين والعاجزين تتولى الدولة جمعها وتوزيعها.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ من هو الفقير؟ ومن هو المسكين؟

جمهور العلماء على أنهما صنفان مختلفان، وقد اختلفوا في تعريف كل منهما، وأيهما أسوأ حالاً..؟

نرجع إلى المعنى اللغوي: الفقير: عكس الغني، وهو محتاج إلى المساعدة لعدم وجود ما يكفيه، وأصلها في اللغة: الكسير الفقار ومن يشتكي عموده الفقري، ومنه الفاقرة وهي الداهية أو المصيبة تكسر فقار الظهر.

وأما المسكين: فهي من مادة سكن، والسكون قلة الحركة. ولهذا قال بعضهم: إنه الفقير الذي لا يسأل. وفي الصحاح: المسكين: الفقير، وقد يكون بمعنى الذلة والضعف. وقال الفيروز أبادي: المسكين من أذله الفقر أو غَيْرُه من الأحوال. قال ابن عرفة: فإن كانت مسكنته من جهة الفقر حلت له الصدقة، وإلا لا تحل له. والأرجح: أن المساكين من جعلتهم مسكنة الفقر أقل اضطراباً فيه وأكثر تحملاً وسكوناً، ولعل الفقر لم يصل بهم إلى الدرجة التي لا تطاق ولا يمكن إخفاؤها؛ وربما دل على ذلك قوله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢/٢٧٣]. وفي لفظ «ولكن المسكين الذي لا

يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»(١) أما الحديث: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» فقد ضعَّفه النووي وقال عنه ابن الجوزي: هو موضوع. وخطأه السيوطي. والمعروف أنه إن ذكر المساكين في القرآن فإن الأمر يعم الفقراء وكذلك إن ذكر الفقراء فالأمر يعم المساكين.

﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهي إشارة إلى صرف رواتب منها لكل من اشتغل في مؤسسة الزكاة بحيث شغلته عن تحصيل رزقه وإطعام عياله. وقد روى عمر أنه عمل في الزكاة على عهد رسول الله ﷺ فأعطاه منها فقال: إنما عملت لله فقال ﷺ: «إذا أُعطيت شيئاً من غير أن تسأل فكُلْ وتصدق»(٢).

ونلاحظ أن الزكاة لا تجوز لآل محمد ولا لبني هاشم ولا لغير المسلم، هكذا قال الفقهاء. ومسألة غير المسلم تذكرنا أن عمر فرض لعجوز ذمي فريضة من بيت مال المسلمين، فهل هذا من الزكاة؟ أم هو ضمان اجتماعي لكل فرد في الدولة الإسلامية؟

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ استمالة لقلوبهم إلى الإسلام أو لكف شرهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم ضد العدو. وهو نصيب أوقفه عمر في زمن حكمه لأنه رأى أنه لم تعد للمسلمين حاجة إليه فقد أعز الله الإسلام والمسلمين.. وهذا من اجتهادات عمر الجريئة التي تدل على ربط الحكم بمقاصد الدين. ويمكن لهذا السهم أن تتجدد الحاجة إليه بحسب ما يرى علماء الأمة من حاجات مستجدة. ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي معاونة المكاتبين من الأرقاء على التحرر. ويقاس على ذلك فدية الأسرى. ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الواقعين تحت وطأة الدين.

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أحمد والشيخان.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو باب واسع يشمل مع الجهاد الدعوة إلى الله والدعاية للإسلام بكل أساليب العصر وفتح المدارس لتحصين شباب الأمة بالعلم.. وإنشاء المصانع لتشغيل العاطلين ورفع مستوى الاقتصاد. إنه بذل المال في كل مصلحة للأمة من شأنها أن تعلي مقامها وتغري الآخرين باعتناق الإسلام.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ المسافر المنقطع في أرض غريبة ولو كان في بلده غنياً. واشترطوا أن يكون سفره في طاعة أو في غير معصية على الأقل. وبذلك ينال المسلم الضمانات المادية أينما ارتحل في ظل دولة الإسلام.

هذه الأنواع الثمانية تدخل تحتها كل حاجات الفرد والأمة. ومطلوب من الدولة المسلمة أن تنظم شؤون (مؤسسة الزكاة) وتفعلها فهي أفضل نظم (التأمينات الاجتماعية) لأن الغني يدفعها عن طيب خاطر والفقير ينالها دون أن يدخل في دوامة (روتين المعاملات).

والجمعيات الخيرية الآن في كثير من الدول الإسلامية تقوم بمهمة توزيع الزكاة والصدقات. وهو أمر حسن وإن كان العمل فيها يجري بشكل تقليدي ولم يتطور إلى إنشاء مصانع لتشغيل العاطلين ومدارس لتعليم الجاهلين الفقراء.. وقد انبثق منها مؤسسات جديدة من مثل (صندوق العافية) و (حفظ النعمة) صارت تقدم خدمات للمرضى وتوزع الفائض من البضائع والمأكولات.. وتقوم بعمليات (القلب المفتوح).. هذا كله جيد.. ولكن لم يفعَّل نظام الزكاة كما ينبغي.. ولو حصل لسد حاجات المسلمين والمواطنين.

ويأتي التعقيب جازماً حاسماً: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فالله يعلم ما يصلح الفرد والمجتمع وقد أحكم لكم النظام حين أمركم بالزكاة ففيها العلاج للغني والفقير. وسيحاسبكم على التقصير.

٨- يؤذون النبي:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

يتابع في فضح أعمال المنافقين وكيف يبحثون عن فرصة لإيذاء النبي ﷺ بالطعن في أخلاقه العظيمة وهو الذي شهد له سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]، أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين وهو الذي قال لهم: إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه فأنزل الله فيه: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.

وروى السدي أنه اجتمع ناس من المنافقين - وذكر من أسمائهم - فقال بعضهم: (إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا) فنزلت الآية. وقولهم (أذن) هو تسمية الشخص باسم الجارحة للمبالغة في وصفه بوظيفتها وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه كأنه كله أذن سامعة كقولهم للجاسوس: (عين). وهم يقصدون انتقاص النبي ﷺ بأنه لا يميز فيما يسمع بين ما يعقل وما لا يعقل وهذا من صفات الساذج.. ولا ننسى أن من أكبر عيوب الملوك والرؤساء: سرعة الانخداع بتودد المنافقين وتصديق الكذب والنميمة وتقريب المنافقين وإبعاد الناصحين.. ولم يكن سماع النبي ﷺ من هذا النوع، وإنما هم ينطلقون من منطلق ثقافي خاطئ يدل على أن الحاكم لا يجوز له أن يسمع آراء الناس وشكاويهم.. إنها ثقافة الاستبداد.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾.. كأن النبي ﷺ كان يتصف بالاستماع التعاطفي.. يسمع لهم ويتعامل معهم على ظاهرهم. بل ويتألم من أجلهم ويستغفر لهم لعلهم يثوبون إلى الله. هذا القلب الكبير النبيل كان يشفق حتى على المنافقين ويمنحهم الفرصة والتعاطف، وشتان بين هذا الفعل

النبيل وبين السذاجة والانخداع.. فهو كما قال ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[(١)] صلوات الله وسلامه عليه في حسن معشره.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ آمن له: مال إليه وائتمنه. فالنبي ﷺ يتعامل مع من حوله بالحب والتعاطف ويلتزم بما يخبره الله ويأمره في التعامل مع الناس.. كما يؤمن للمؤمنين فيسمع أخبارهم ويصدق نواياهم لكنه يختار أفضل أسلوب لعلاج قضاياهم.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ كما قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[(٢)] للجميع.. لكن لا يستفيد منها إلا المؤمنون..

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولم يحدد في الدنيا أم في الآخرة؟!

وقد هدد الله المنافقين في سورة الأحزاب ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٠-٦٢].

إن حبل الكذب قصير ولابد أن تجري عليهم سنة الله فيفتضح أمرهم.. وسيعرفون بسيماهم.. وإن لغة الجسد أوضح من كل كلام كما يقرر الباحثون الآن.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ وقد تقدم حلفهم أنهم لو استطاعوا الخروج إلى تبوك لخرجوا. والله يكذب دعواهم؛ ونتعجب من جرأتهم في حلف الأيمان واستهتارهم بمقام الله.. ومن الناس من يحلف الأيمان

---

(١) ضعفه المنذري وصححه السيوطي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصححه السيوطي.

لأتفه الأسباب؛ والتوجيه القرآني يعلمنا الأدب مع الله ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٤].

ونشعر من الآية أنهم أحسوا بقرب الفضيحة فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين ليرضوهم ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لكنهم لا يؤمنون أن الله ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ١٩].

ونلاحظ في الآية أنه سبحانه قال: ﴿يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل (يرضوهما)؟ إن الله سبحانه قد ضم رضاه إلى رضى رسوله ﷺ في كلمة واحدة مفردة حتى ندرك أن إرضاء النبي هو إرضاء لله وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ استفهام للتوبيخ.. وما زالت الآيات تضم الرسول إلى الله.. وأما المحادة: فهي مفاعلة من الحد وهو طرف الشيء كالمشاقة من الشق: وهو الجانب ونصف الشيء المنشق. وكلاهما بمعنى المعاداة (من العُدْوَة) وهي جانب الوادي. فكأن كل طرف في حد وشق وعدوة. والمنافق يصل إلى هذا المستوى خلافاً للعاصي الذي يزل أحياناً بارتكاب بعض المعاصي لكنه لا ينتهي إلى هذه الغاية في البعد عن الله ورسوله. فليس في الآية حجة لمن يكفرون العصاة ويقولون بخلودهم في النار.

﴿خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ في المجتمع المؤمن النظيف أكبر الخزي أن يفتضح الكاذب المنافق الذي يمكر بالحق وأتباعه.

ولهذا ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾

في قلوبهم شيء من الإيمان يجعلهم خائفين من نزول سورة تفضح ما هم عليه. والتعبير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لم يقل (عليك) يا رسول الله.. يصور الأمر كفضيحة تسقط على رؤوسهم. فهم في رعب دائم يجعل العذاب مسلطاً عليهم من داخل أنفسهم.. بينما الكافر لا يتعرض لهذا النوع من العذاب لأنه لا يخشى الفضيحة.. وعذاباته من نوع آخر.

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ إشارة إلى سخريتهم وإيذائهم للنبي والمؤمنين.

٩- وقاحتهم في التبرير:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ من مثل قول بعضهم: (نحن نمزح).. وآخرون يروون النكات التي تحوي التجديف وتنافي الأدب مع الله. وقد شهدنا في مستهل عام ٢٠٠٦- أن مجلة في الدنمرك نشرت صوراً كاريكاتورية ساخرة عن النبي ﷺ وتبعتها في ذلك كثير من الدول الأوربية.. مما أثار حفيظة المسلمين في كل مكان.. فسارت المظاهرات.. وأعلن كثيرون مقاطعة البضائع الدنمركية.. والعجيب أنهم يتمسكون بقداسة حرية الرأي.. ولا ينتبهون إلى أنهم بعملهم هذا انتهكوا حرية الرأي عند (الآخر).. أما إن تصدى أحد للتشكيك بـ (المحرقة) اليهودية على يد النازيين.. فيا غارة الله.. وحدث - في الشهر الثاني من العام نفسه - أن أحدهم فعل ذلك فحوكم في محكمة وصدر الحكم عليه بثلاث سنوات سجناً..!! وهو ما يدفعنا إلى التساؤل: لماذا هذا الإجماع على إيذاء المسلمين؟! ألأنهم ضعفاء؟ أم لأنهم قدموا صورة مشوهة عن الإسلام نفر منها الجميع؟! أم هو الخوف من أن يكتسح الإسلام القوي بمبادئه السمحة ساحتهم فيحرمهم من امتيازاتهم؟! أم الخوف من

(الإرهاب) الذي ألصقه بعضهم بالإسلام؟! هذه أمور تستحق التأمل لنعرف كيف نعالج نفور الناس ثم ندعو إلى الله بيسر وسلام.. وأما في الماضي فقد سخر المنافقون من خروج النبي ﷺ لقتال الروم.. واعتذروا عن سخريتهم - عندما عوتبوا - بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾.. والخوض يستعمل فيما كان بالباطل لأنه مأخوذ من الخوض في البحر أو الوحل مع التعرض للخطر.. وما أعجب جرأة أهل الباطل حين يخوضون فيما لا تحمد عقباه.. بينما يجبن أهل الحق أحياناً عن الإقدام على نصرته.. هل لأن الخوض في الباطل أسهل ولا يُفطن إليه؟!

إن قولهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ دليل ضدهم، إذ لا يصدر عن نفس ذاقت حلاوة الإيمان وجديَّته.. إن الدين يحدد الهدف والطريقة للحياة فكيف يكون مادة للعب والخوض والاستهزاء؟! ولا يجوز للمسلم أن يشهد مجلساً فيه استهزاء بآيات الله ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ٤/١٤٠] إلا إذا كان محاوراً يبتغي تصحيح المفاهيم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ التردد والتقلب.. ساعة على الإيمان وأخرى على الكفر.. فما فائدة الاعتذار؟ إنه مجرد كلام عند هؤلاء القوم.. ولهذا فهو مرفوض.

ويمكن أن نفهم من الآية: قد أظهرتم الإيمان فقُبل منكم ظاهركم.. لكنكم عملتم أعمال الكافرين فكيف يقبل منكم اعتذاركم..؟ ومع ذلك يلوِّح الله لهم بالتوبة عسى أن يعودوا:

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.. وقد تاب عدد منهم من مثل مخشي بن حمير الذي قال لأصحابه عندما استهزؤوا: (لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن) فقال ﷺ لعمار بن ياسر «أدرك القوم فإنهم

قد احترقوا فسلهم عما قالوا..» فجاؤوا يعتذرون فأنزل الله ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ وكان مخشي هو الذي عفا الله عنه فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً.(١)

ويتوعد المصرّين على النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ والتهديد بعذاب الدنيا والآخرة. وهنا أتوقف قليلاً لأقول: لابد من التوازن في الحديث عن الترهيب والترغيب بحيث لا نقع في استرخاء الأمن ولا في شلل الخوف والرعب. ولقد بالغ رجال الدين في أوربة القرون الوسطى في الحديث عن الله المنتقم الجبار.. وعذبوا وأحرقوا كل من سأل وتشكك وحاول أن يفهم فهماً جديداً.. فهرب العلماء والأدباء والمفكرون من (إله جبار منتقم) وقالوا بأن الدين أفيون الشعب.. ونافق كثيرون إيثاراً للسلامة. ووصل بهم الأمر إلى إنكار الأديان وعزلها عن الحياة وتبني (العلمانية). أما في عالمنا فقد أصبح تصورنا عن الله مشوهاً لا يثمر علاقة حميمة وإيجابية مع رب كَرَّم الإنسان ووعده بالعون على الخير والمغفرة.

١٠- من صفاتهم:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

في الآية إشارة أولى إلى وجود نساء منافقات وإن لم نعرف في الأخبار المروية أياً منهن مما يدل على قلة عددهن وضآلة خطرهن.. ويمكن أن يكون دورهن (من وراء الكواليس) - كما يقال - ولعلها إشارة إلى من سيظهرن في المستقبل.. وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يوحي بأن

(١) أخرجه ابن إسحاق.

ثقافة النفاق تجمعهم.. فلهم أسلوب في التفكير والتعامل مع الأحداث.. يتبنون أسلوب المداهنة ولا قدرة لهم على الإيمان بمبدأ يعيشون من أجله - اللهم إلا المصالح العاجلة - وثقافة النفاق يمكن أن تورَّث للأبناء كما أن ثقافة الإيمان تثمر أجيالاً مؤمنة ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٤]. وهو أمر يحتاج منا إلى الوعي والانتباه؛ فالميراث الثقافي يصبغ اللاوعي عند الإنسان ولابد من التصدي له إن كان سلبياً.. بينما يسهل ويسرع عملية البناء إن كان إيجابياً. كذلك نتذكر قول الله عن المؤمنين والمؤمنات: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وهذا يختلف عن ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ فالولاء علاقة حب وإخلاص وتعاون على البر والتقوى بين المؤمنين والمؤمنات.. بينما المنافق لا يحمل ولاء لأحد.. وإنما يتلون ويتقلب من اليمين إلى اليسار بحسب ما تلوح له المصالح العاجلة.

وتذكر الآية لهم ثلاث صفات تمثل علامات فارقة يختصون بها:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

١- ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾: هناك منكر شرعي ومنكر عقلي ومنكر اجتماعي. أما المنكر العقلي: فهو ما تستنكره العقول الراجحة والفطر السليمة. فإن عدنا إلى مقاصد الدين رأينا أن المنكر العقلي ينضم إلى الشرعي. (مثلاً: مخالفة إشارات المرور - ومخالفة توصيات الطبيب في الدواء والحمية).

أما المنكر الاجتماعي فهو ما تعارف عليه الناس (على ألا تخالف أمر الله) مثلاً: الاتصال الهاتفي بعد الحادية عشر مساء يخالف العرف في بلدنا.. بينما هو طبيعي في السعودية مثلاً وخاصة في رمضان - وكذلك كشف الوجه طبيعي في سورية بينما هو مستنكر في السعودية. وكل

بلد لها أعرافها عند الولادة والزواج والوفاة وأساليب التعزية. ولا بأس بمراعاة العرف الاجتماعي إن لم يسبب ضرراً فردياً أو اجتماعياً.

كان المنافقون يأمرون بالمنكر: بالبخل وترك الجهاد والإعراض عن طاعة الرسول. والمنافقون الآن يأمرون بالسكوت عن الحق ومدح المسؤولين وقبول الرشوة والتحايل على القانون..

٢- ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: وهي حركة رمزية للدلالة على البخل وكراهية الإنفاق بكل أنواعه. ولابد أن نلاحظ أثر الحركة في النفس: فالقبض انقباض وتشنج في النفس.. فلا تتعب العضلات وحدها وإنما الأعصاب والنفس (لاحظ التقطيب في الوجه وأثره على الإنسان وعلى من حوله) بينما بسط الكف وبسط الوجه استرخاء جسماني ونفسي.. وهو علاج نفسي يعلمه المختصون لمرضاهم..

٣- ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: لا يذكرون الله أثناء أعمالهم اليومية.. ولا يخطر في بالهم أنه يراهم.. ولا يراعون مرضاة الله في خياراتهم.. وكل ما يشغل بالهم هو أهواؤهم. ويأتي الجزاء من نوع العمل ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ وبالشقاء الإنسان حين ينساه ربه ويتركه لأهوائه وأوهامه..

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قد يقال صفة رابعة للمنافقين (الفسق). وقد نقول هو حكم يطلقه الله عليهم.. بأنهم خارجون عن درب الإيمان. وأمام هذه الصفات السلبية يتوعدهم الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ﴾ وهنا يجمع بينهم وبين الكفار كما ورد في سورة أخرى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٠].

﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ فيها من الجزاء ما يكفيهم عقاباً في الآخرة.. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة. وقد ورد وصف لبعض عذابهم في الآخرة في سور أخرى ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: ٥٧/١٣-١٥].

١١- أنهم لا يعتبرون بمن سبقهم:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أنتم مغترون بقوتكم وكثرة أولادكم ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.. إن التاريخ خير معلم.. والقرآن أول كتاب يعطي للتاريخ قيمة ويعتبره مرجعاً وشاهد عدل.. فمنه نتعلم سنن الله في حياة الأمم.. إذ إن السنة: أن يُفعل في الثاني كما فُعل في الأول.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تنعموا بنصيبهم وكان حظهم الدنيوي هو أقصى ما يفكرون فيه ولم تكن لهم تطلعات شريفة وسامية ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: ٤٧/١٢] أما المؤمن فحياته لها هدف سامٍ: الخلافة في الأرض لإعمارها وإقامة العدل وإحقاق الحق.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ يكرر زيادة في التأنيب ويبين كيف تتطابق صفات وأعمال المنافقين وعبيد الدنيا عبر العصور (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)...

لكنكم أجدر بالعقاب منهم لتوافر الهداية لكم ولوجود النبي القدوة بين ظهرانيكم.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ انغمستم في الملذات وخضتم في حمأة الباطل واقتحمتم المعاصي بلا تهيب ولا تردد .﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أرادوا الدنيا فخسروا الدنيا والآخرة. ومعنى الحبط: أن تأكل الناقة من نبات سام فتسمن ويغتر بها صاحبها لكنها تموت فجأة.

لقد كانت أعمالهم الدنيوية على غير سنن الله فجاءت ثمارها النكدة.. وأما أعمالهم الدينية فكانت رياء فصارت هباء منثوراً لأنها مقطوعة عن الله.. ولهذا يأتي التعقيب ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.. الآيات تدفع القارئ دفعاً إلى دراسة التاريخ.. فهو حقل الدراسة ومنه تستخلص سنن الله وقوانينه.

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

عجباً لأمر هؤلاء.. ألا يتساءلون عمن ساروا قبلهم في الطريق نفسه أين هم وماذا حلَّ بهم؟

كان لكل قوم منهم مفسدة من المفاسد ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ عبدوا آباءهم وأسلافهم (التقليد والآبائية).

﴿وَعَادٍ﴾ إرم ذات العماد الذين طغوا في البلاد.. عبدوا القوة واستكبروا في الأرض..

﴿وَثَمُودَ﴾ غرتهم قوتهم الزراعية والعمرانية.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين عبدوا النجوم والأصنام وادعى فيهم نمرود الألوهية.

﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾ قوم شعيب مارسوا الغش في البيع والفساد في الأرض.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ جمع مؤتفكة: من الائتفاك وهو الانقلاب والخسف. وهم قوم لوط الذين مارسوا الانحراف والشذوذ الجنسي.. فقلبوا الأمور (عاليها سافلها) في نفوسهم ابتداء فجاء العقاب مناسباً لهم ..﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ في الماضي كانت المعجزات هي الآيات ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أما الآن فإن آيات الآفاق والأنفس هي البينات. وكل شيء من حولنا بدأ ينطق بلسان مبين.. حتى الأرض الآن ﴿تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٤]

وحين نتأمل في سورة القمر كيف يستعرض مصارع الأمم السابقة ثم يسأل ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٣]؟ ثم يأتي الاحتمال الثالث ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٤]؟ ندرك أن أساليب التفكير هي ذاتُها التي فكر الناس فيها في الماضي وحتى الآن.. إن الناس لا تستفيد من التاريخ لأنهم يظنون أنفسهم - شكلاً ثانياً - لا تسري عليهم السنن والقوانين الإلهية.. إنهم لا يؤمنون أصلاً بسريان السنن على حياة الأمم، ويظنون أنَّ مكرهم المتطور أو كثرتهم وشدة بطشهم يمكن أن تنجيهم.. لكن رد الله جاء سننياً واقعياً ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٥] حدث هذا في الماضي.. وسيحدث في الحاضر والمستقبل. والويل لمن لا يعتبر.

إن معرفة الماضي تعيننا على فهم مشاكل الحاضر والتخطيط السليم للمستقبل. يقول محمد إقبال في ديوانه (الرموز): [ما التاريخ يا غافلاً عن نفسه؟ أتراه قصصاً وأحاديث وخرافات؟ إنه الذي يعرفك نفسك ويبصرك طريقك.. إنه حرارة الروح وأعصاب المِلَّة (أي يجعلك تتحمس للأوامر لأنك فهمت حكمتها، والأعصاب هي التي تقوم بإيصال الأوامر للأعضاء)، إنه المِسَنُّ الذي يشحذك كالخنجر ثم يضرب بك في هذه

الدنيا. أحكم تاريخك تحكم نفسك وصل بيومك أمسك. إن حالك يطلع من ماضيك، ويشرق من حالك آتيك. فإن تُرِد الحياة الخالدة فلا تقطع سلسلة هذه الثلاثة. إنما الحياة موج هذا التسلسل].

ويقول ابن خلدون في مقدمته عن التاريخ: هو [في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعدَّ في علومها وخليق) وينتقد المؤرخين السابقين الذين جمعوا الأخبار (وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها؛ فالتحقيق قليل.. والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل.. والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل.. فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات والآثار] وهكذا نجد أن ابن خلدون هو أول من جعل التاريخ علماً وليس مجرد أخبار وقصص. ثم إنه حَكَّم السنة والقانون في قبول الخبر.. فاعتمد نقد الخبر من حيث الدراية بدل التركيز على السند والرواية الذي شغل الباحثين القدماء.

إن القرآن يقول لنا ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٢٠] وغيرها كثير.. لأن أمراض الإنسانية لا تعالج ما لم ندرس ماضيها وتاريخها.. وكيف تطورت الأمور.. وكيف وقعوا وكيف خرجوا ..﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فلا أحد يظلمك إن لم تسمح له أنت بذلك.

١٢- المؤمنون:

مقابل حديث الله عن المنافقين يذكر المؤمنين وبعض أوصافهم وما ينتظرهم من ثواب.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إنها علاقة الولاء المليئة بالحب والتناصر والتعاون.. يتحدث ستيفن في كتابه (العادات السبع) عن التكاتفِ على أنه العادة السادسة التي تأتي ثمرة لما قبلها من عادات - وخاصة التفكير في المنفعة للجميع - لكن كلمة ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ هي أعمق من التكاتف.. إنها ربما تعني: التكاتف + الحب في الله. والحب في الله ليس مجرد صداقة.. أو أي حب للآخر المختلف.. فقد ذكر الله هذا النوع عندما وصف حب الصحابة للآخر المختلف ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٩] إن هذه الآية تصف حب الداعي ورحمته بالآخرين.. ومهارة التعبير عنه للآخر يؤثر في نجاح الدعوة.. أما الحب في الله فهو نوع آخر.. فيه الإيثار والسعي في خدمة الأخ وإسعاده ..﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].. كيف يكون الذل مع الأخ المؤمن؟! إنه النهوض في حاجاته والتلاحم معه في حزنه وفرحه وشد أزره في الملمات والدعاء له بظهر الغيب وأن تغفر له إن أخطأ معك - وهو أكبر دليل على أنك تفكر فيه وتحمل همه - هذه الأعمال المنبثقة من قلوب صافية مخلصة.. تستحق ثواباً خاصاً وعد الله به.. فمن السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله «رجلان تحابا في الله

اجتمعا عليه وتفرقا عليه».. إنها واحة ظليلة يأوي إليها المؤمن في الدنيا - حيث يجد النصرة والدفء النفسي - وفي الآخرة حيث عطاء الله الذي لا يوصف.

أما المنافقون فقد قال عنهم قبل قليل ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ فهم من طينة واحدة لكنها بلا كيان ولا شخصية وإنما هي ﴿بَعْضٍۚ﴾..!! وأين ذلك من علاقة الولاء؟ والآية هنا تصفها على أنها الصفة الأولى للمؤمنين.

٢- ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو موضوع كبير يتعلق بسلامة الأمة.. فهو جهاز التصحيح والصيانة فيها على أن يتم بشروطه التي اقتبستها من أبحاث ابن تيمية إذ يقول:

١- العلم قبل الأمر ٢- والرفق معه ٣- والصبر بعده.

ومسألة العلم هامة جداً: إذ عليك أن تحيط بالأمر: أسبابه ونتائجه.. جذوره وأصوله؛ وكيفية غرسه في النفس بأفضل أسلوب يؤدي إلى الرسوخ.. ثم عليك إدراك فقه الأولويات بحيث تبدأ من القواعد الأساسية.. ثم إذا أمرت بمعروف فليكن أمرك بمعروف.. ثم اصبر على ما يصيبك وأنت تتصدى لعملية الإصلاح في الأمة..

٣- ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مقابل أن المنافقين ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾.. لأن روح الصلاة ذكر الله في القلب أولاً.. ويحدد فيها (الإقامة) أي أداؤها على أحسن وجه.

٤- ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: مقابل أن المنافقين يقبضون أيديهم.. علماً بأن المنافقين يصلون ويزكون ولكن ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.. إن هذه العبادات إن لم تنبع من القلب ولم تؤد إلى طهارته فهي مرفوضة من الله.. بل تكون سبباً في غضب الله لما يرافقها من كذب ونفاق.

٥- ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: وقد تكررت الإشارة في القرآن إلى أن الصفات الثلاثة الأخيرة تستوجب نوال الرحمة من الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ لا يمتنع عليه تحقيق شيء من وعده.. وحكيم أمر بما يناسب حياة الناس ويحقق لهم الرحمة.. ويضع عطاياه في المكان المناسب.

ثم يذكر بشيء من التفصيل ما وعدهم الله من الثواب ترغيباً وإيناساً لهم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ وقد ورد في الأحاديث أن الله يطلع على أهل الجنة فيسألهم: هل أزيدكم.. فيتساءلون.. وماذا أكثر من ذلك؟ فيقول (أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[(١)].

١٣- جاهد الكفار والمنافقين:

وهنا يجمع الله الفريقين على صعيد واحد في المعاملة في الدنيا وفي الآخرة .﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

قد نتعجب من الأمر في الآية.. إذ لا تأمر بالحزم فقط.. وإنما بالغلظة..!! لكن حين نتذكر شمائل النبي ﷺ ربما ندرك بعض المعنى.. فلقد كان رسول الله ﷺ بشوشاً طلق الوجه مع معظم الناس.. حتى إن عائشة رضي الله عنها تذكر أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة»؛ فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه. فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله؛ حين رأيت الرجل قلت

(١) رواه الشيخان.

كذا وكذا ثم انبسطت إليه؟! قال ﷺ: «يا عائشة متى عهدتني فاحشاً؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»(١).

وفي الحقيقة أنه من أصعب الأمور أن تعرف متى تكون ليناً رحيماً ومتى تكون حازماً شديداً ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩]... وخاصة في مجال التربية. إذ إن من واجب المربي أن يحاور ويقدم الأدلة على ضرورة القانون - أو القواعد السليمة مثل تنظيف الأسنان - لكنك بعد ذلك تذكرهم بحزم بضرورة الالتزام. وهذا يذكرنا بموضوع الحكمة فهي القدرة على وضع الأمور في نصابها.. إذ إن لكل موقف حكماً يناسبه.. وهو أمر يتعلمه الإنسان بالممارسة ووزن العواقب.

وهؤلاء المنافقون قد كادوا للنبي ﷺ والمؤمنين وكانت لهم أعمالهم المشينة.. مما اقتضى أمر النبي بجهادهم والغلظة في معاملتهم.. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان. والمقصود بالكفار هنا المحاربون. وسيأتي أنَّ من جهاد المنافقين حرمانهم من الخروج مع النبي للقتال ومن صلاته على جنائزهم. وهي عقوبة تأديبية فعالة: أن يحرم المنافق من المشاركة في أداء الواجب.. ويحرم من التكريم.

ولابد أن نتذكر: أن علماء الملة قد اتفقوا على أن المنافقين كالمسلمين بأحكام الشريعة؛ فلا يقاتلون إلا إذا أظهروا الكفر أو تمردوا على الإمام أو بغوا على جماعة المسلمين. والأوامر الإلهية في التعامل معهم تتراوح ما بين الإعراض عنهم ووعظهم والشدَّة في محاسبتهم... إلى حدِّ القتال.. فإن كان المنافقُ فيه بقية خيرٍ تأثر من الإعراضِ والجفاء في المعاملة وحاسب نفسه.. ووضع الحرب في ظرف يحتاج إلى مجرد

---

(١) متفق عليه.

إعراض كمن يأخذ عقاراً لخفض الضغط وهو يعاني من انخفاض ضغطه..

وصاحب المنار يقف عند الآية ويقول: إن فيها تعليماً للرؤساء بالسياسة الحكيمة [إن معاشرة الرئيس - من إمام أو ملك - لمنافقي قومه بمثل ما يعاشر به المخلصين منهم، فيه توطين لأنفسهم على النفاق.. إن هذه المعاملة مفسدة لأخلاق الدهماء ومثيرة لحفيظة المخلصين الفضلاء، وكم أفسدت على الملوك الجاهلين أمرهم وأضاعت ملكهم] وأكبر مأساة يعاني منها الحكام فقدان القدرة على تمييز المنافقين ممن حولهم.. هؤلاء يزينون لهم كل عمل يقومون به، ويقطعون الصلة بين الحاكم وشعبه، إذ إنهم يوحون إلى الحاكم أن الناس في أعظم سعادة تحت ظل حكمهم. يحجبون عنهم كل المآسي والمعاناة التي يعاني منها الناس.. مثل هؤلاء الحكام مغفلون ولا يستحقون أن يحكموا؛ إذ كان من الفروض فيهم أن يتحسسوا أحوال الناس بأنفسهم، وقد عرف في تاريخنا بعض الحكام الذين كانوا يتنكرون ويندسون بين الناس لمعرفة أحوالهم.

١٤- من أعمال المنافقين:

تستأنف الآيات الحديث عن أعمالهم التي استحقوا عليها الجهاد بغلظة...

١- ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

يشعرنا ظاهر الآية أن بين الكفر والإيمان كلمة..!! لأنها انعكاس لما في القلب من فكر.. ولم تحدد الآية ما هي كلمة الكفر التي قالوها، وقد سبق أن قالوا ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾.. ولقد قالوا كثيراً خلال مسيرة النبي ﷺ وكفاحه في المدينة من مثل قول ابن أبيٍّ بعد غزوة بني المصطلق (سمِّن كلبك يأكلك.. لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل). والمنافقون يكثرون الحلف ويستهينون باسم الله.. إن المنافق يعلم إنه

كذاب فيحاول أن يدعم موقفه بالحلف.. أما الصادق فلا يشعر بالحاجة إلى الحلف.. ولابد من تأديب أنفسنا على توقير اسم الله، وأبناؤنا يتلقون ذلك منا.

٢- ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهو اغتيال الرسول ﷺ في العقبة منصرفه من تبوك. وقد ذكر خبر ذلك ابن القيم في زاد المعاد: (ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة قال: رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق. فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أُخبر خبرهم فقال: «من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فإنه أوسع لكم» وأخذ رسول الله ﷺ العقبة وأخذ الناس ببطن الوادي إلا النفرَ الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم. وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه. وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها؛ فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم.. وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه محجن واستقبل وجوه رواحلهم فضربها بالمحجن، وأبصرَ القومَ وهم متلثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر (أي إنه ازدحام حدث صدفة وهم ملثمون توقِّياً للغبار) فأرعبهم الله سبحانه وتعالى حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس.. فقال ﷺ لحذيفة: «هل عرفت من هؤلاء الرهط أو الركب أحداً»؟ قال حذيفة: (عرفت راحلة فلان وفلان).. قال ﷺ «فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها».. فسألاه: ألا نضرب أعناقهم.. فرفض النبي ﷺ ذلك.. وسماهم لهما وقال اكتماهم).

والصحيح في عدد هؤلاء المنافقين ما رواه مسلم عن عمار عن رسول الله ﷺ قال: «إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط»..

نتأمل الخبر:

١- الرسول ﷺ علم بمكرهم فأحب أن يعطيهم فرصة عسى أن يغيروا رأيهم ولم يفضحْهم على الملأ.. - وذلك حين أمر الناس أن يسلكوا بطن الوادي -.

٢- كما أنه ﷺ أراد أن يبعد الناس عن الحادثة لحصر الخبر، وحرصاً على سلامة القوم من الاقتتال فيما بينهم.

٣- طلب من حذيفة وعمار أن يكتما أسماءهم.. وفي ذلك أدب كبير؛ إذ لم يفضحهم؛ وكرمٌ وتسامحٌ مع متآمرين!! ولعل في ذلك ترغيباً لهم بالتوبة خاصة وأنهم لم يوصموا من الناس بالنفاق بعد.

٤- حرص النبي ﷺ على اجتناب مواضع التهم حتى لا يعطي فرصة للإعلام المضاد أن يشوه صورة الإسلام والنبي ﷺ بأنه يقتل أصحابه.. ولابد للداعي أن يحذر كثيراً في هذا المجال؛ لأنهم يحاربون الأفكار بتشويه سمعة الدعاة إليها. ولا ننسى اتهام عائشة رضي الله عنها بالإفك لغفلة بسيطة بدرت منها.

وقد كتب المرحوم مالك بن نبي كتاباً كاملاً في هذا الموضوع (الصراع الفكري في البلدان المستعمرة) حاول فيه أن يبين لنا بعض طرق الخبثاء في الطعن بسلوك الأشخاص وتشويه الأفكار.

والنص القرآني يعجب من هذه الخيانة التي انطوت عليها صدورهم.. فما الذي أغضبهم وأثار حقدهم؟! ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ ما من سيئة قدمها لهم الإسلام فينقموا على رسوله.. اللهم إلا

أن يكون الغنى الذي تفضل الله به عليهم..!! ومع ذلك يفتح لهم أبواب التوبة:

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.. وهو تذكير عام لكل الناس «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب (إلى الله وأستغفره) في اليوم مائة مرة»[1].. وإن من يعجز عن الاعتراف بأخطائه يعجز عن التوبة.

والمسلمون يكررون ألفاظ التوبة والاستغفار لكنهم لا يعرفون كيف تكون التوبة الحقيقية. ونحن حين نفشل نلوم الآخرين ونلوم الأقدار.. ولا نبحث عن الأخطاء فينا. مما يجعلنا محرومين من تصحيح الأعمال والوصول إلى الحقيقة؛ كما يحرمنا هذا من الصحة النفسية وذلك بأن نتقبل أنفسنا على أننا بشر نخطئ ومن ثَمَّ نتقبل الآخرين.

و (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون).

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فهو خير لأرواحهم إذ تشعر بالعودة إلى الله والقرب منه. وخير لعقولهم إذ تكشف الخطأ؛ وخير لنفوسهم إذ تتحرر من الشعور بالذنب وتستعيد احترامها لذاتها. وخير لأعمالهم لأن التوبة تصحيح في المسار يعجِّل في الوصول إلى الهدف. وخير لحياتهم بين الناس لأنها ترمم العلاقات وتجدد الأخوة بالاعتذار.

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فعذاب الدنيا هو القلق والنفاق والاضطراب النفسي ومرارة الانقطاع عن الله، وكسب عداوة المؤمنين ونقدهم والتعرض للمؤاخذة، والحيدُ عن الصراط المستقيم الذي يوصل للهدف بأقل وقت وجهد. فالعمل الخاطئ يؤتي

(١) رواه مسلم عن الأعز بن يسار.

ثماره في الدنيا حتماً ولو بعد حين. وأما الآخرة فهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من خير أو شر..

﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا أحد يحب المنافق ويرغب في موالاته ونصرته لأنه لا أمان له..

٣- ومن أعمالهم أيضاً: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

والحديث هنا عن نوع أخف من النفاق: وهو الذي يلجأ إلى الله عند العسرة والفقر ويعاهده على الشكر والطاعة إن وسع الله عليه.. فإذا أعطاه الله نكص على عقبيه ونسي وعوده.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾ وهي لام القسم تكرر في الفعلين وتضاف نون التوكيد الثقيلة لتأكيد العهد.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فكأنهم تعمدوا الإعراض .﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

أعقبه الشيء: جعله عاقبة أمره وثمرته ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فقد بلغوا المنتهى الذي لا رجاء معه في التوبة.. وفي الآية ذكر سببين من أخص صفات المنافقين: إخلافُ الوعد والكذب. مع ملاحظة أن الوعد كان عهداً وقسماً مع الله تعالى. وعبر عن الإخلاف بالفعل الماضي إشارة إلى حادثة وقعت؛ بينما عبر عن الكذب بالمضارع ﴿يَكْذِبُونَ﴾ دلالة على الاستمرار. ومن سنة الله تعالى في هذا الإنسان أن أعماله ترسخ في قلبه النفاق أو الإيمان بحسب نوعها.

والنفس البشرية ضعيفة وشحيحة إلا من عصم الله. والمؤمن يراقب نفسه باستمرار ويروضها على البذل في سبيل الله؛ وهو مطمئن إلى رزق ربه ويأخذ بالأسباب والسنن. بينما الآخر مرعوب من الفقر: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ

يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٦٨] ولا ننسى أن أول خطيئة ارتكبها ابن آدم كانت ناتجة عن البخل والشح (لأنه قرب إلى الله أسوأ ما عنده).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ علّام: صيغة مبالغة من العلم.

وأما الخبر المذكور عن نزول هذه الآيات فقد اخترت إحدى الروايات عنه [(١)]:

أخرج الحسن بن سفيان وابن المنذر عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. قال «ويحك يا ثعلبة؛ أما ترضى أن تكون مثلي؟ فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال لسارت معي» قال: ادع الله أن يرزقني.. إن آتاني الله مالاً لأعطينَّ كل ذي حق حقه. قال: «ويحك يا ثعلبة؛ قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره» فقال.. ادع الله تعالى لي.. فدعا له. فاتجر واشترى غنماً فبورك له فيها.. حتى ضاقت بها المدينة فتنحى بها؛ فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل. ثم نمت كما ينمو الدود.. فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ؛ فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار. وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه فأخبروه.. فقال ﷺ «ويح ثعلبة بن حاطب». ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات وأنزل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ٩/١٠٣] فبعث ﷺ رجلين.. يأخذان الصدقات فكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجهها، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة وبرجل من بني سليم.. فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أرياني كتابكما؛ فنظر فيه فقال: (ما هذه

(١) ابن جرير الطبري في التفسير (١٤/ ٣٧٠- رقم ١٦٩٨٧)، الطبراني (المعجم الكبير) (٨/ ٢٦٠-٧٨٧٣) الواحدي في أسباب النزول ﷺ ٢٥٢

إلا جزية) انطلقا حتى تفرغا ثم مُرَّا بي. قال: فانطلقا؛ وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا: إنما عليك دون هذا (وهو الوسط) - إذ كان ﷺ يقول لعمال الصدقة «واتقوا كرائم أموال الناس» - فقال: ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي فقبلاه. فلما فرغا مرَّا بثعلبة فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: (ما هذا إلا جزية) انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: «ويح ثعلبة بن حاطب» ودعا للسلمي بالبركة وأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾.. فسمع بعض من أقارب ثعلبة فأخبره فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي؛ فقال ﷺ: «إن الله تعالى قد منعني أن أقبل منك» فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه. فقال ﷺ: «هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني».. ثم أتى أبا بكر في خلافته فلم يقبلها منه.. ثم أتى عمر أمير المؤمنين فلم يقبلها منه.. ثم هلك في خلافة عثمان.

نقف مع الحادث: ١- النبي ﷺ هنا عامل ثعلبة بحسب الآية ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ ولم يقبل تظاهره بالتوبة.. ولم يتعامل معه على ظاهره كما كان يفعل مع سائر المنافقين. فكأن الحادث خاص وضَّح الله فيه عدم صدق ثعلبة في التوبة.

٢- نحن على ثقة بأن الصادق لن يظلمه الله وإن عاقبه في الدنيا.. ولو كان ثعلبة صادقاً في توبته لسلك وجوه الخير المفتوحة في كل مكان.. وباب الله لا يغلق. لكن نحس من الخبر أن ثعلبة كان يريد أن يرد اعتباره في مجتمع حيوي يصبح المتخلف فيه عن الواجب منبوذاً.

٣- ما نوع هذا العقاب؟ إنه عقاب نفسي.. حرمان من أداء الواجب، وقد طبق هذا العقاب مع عدد من المنافقين ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ ومع عدد من المؤمنين - مثل الثلاثة الذين خلفوا كما سيأتي في الآيات اللاحقة - وهذا العقاب لا يؤتي ثماره إلا مع نوعية

معينة من الأفراد وفي نوعية معينة من المجتمعات.. فالمجتمع الحيوي المؤمن يكون الامتياز فيه لمن يبذل ويجتهد أكثر.. وللذي يملك ضميراً حياً يتألم من الحرمان من أداء الواجب. إن مثل هذه العقوبات إن وضعت في مكانها المناسب تصبح مفيدة جداً لأنها تعطي القوة للضمير الإنساني، وتجعل الرقيب الداخلي هو أساس الاستقامة وفعل الخير. ومن هذه العقوبات ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٤/ ٦٣] إذ فيها إعطاء فرصة لمراجعة النفس وتأنيب الضمير.

تحدث مالك بن نبي - رحمه الله - عن شيء من ذلك في كتابه (بين الرشاد والتيه) في فصل (الأخلاق والثورة) عن كاسترو وكيف يدين الحافز المادي في الإنتاج ويعطي الأولوية للحافز الأخلاقي:

[هذا الدرس يتضمن جانباً يهم العالم كله، ألا وهو الثقة في القيم الأخلاقية ومنحها الأولوية في الإنتاج وفي درجة الالتزام في الحياة السياسية.. ولنتأمل على سبيل المثال هذا الدرس في إحدى قضايا العمل الإنتاجي: إن العامل قد يتغيب من دون عذر عن عمله فما هي عقوبته؟ إنه لا يجازى بحسم من تموينه ومن أجرته، ولكن يفرض عليه عدد من أيام تغيب أخرى.. فالجزاء يقوم هنا على قاعدة أن اللولب النفسي ذو فعالية أكبر من اللولب الاقتصادي في حياة الفرد. ولكن هل تصح هذه القاعدة من دون قيد أو شرط؟ إننا لا نتصور أثرها إلا في مناخ أخلاقي حقيقي تكوِّنه الثورة وتحافظ عليه كرصيد أساسي لها.. كذلك في مثل المناخ الذي نشعر به في قصة المخلّفين في القرآن] ويقول كاسترو في خطاب له عندما قرر سياسية التقشف في استهلاك البترول بسبب الحصار الاقتصادي الأمريكي: (إنه لا يليق بكرامة هذا الشعب أن يبقى دائماً يطلب العون من الآخرين). إن إحياء كرامة الإنسان وتفعيل ضميره لا يتم غالباً بالمنح

المادية، بل في أن يدرك أهمية دوره وعمله ويتذوق حلاوة أن يكون منتجاً معطاءً).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ ذلك هو الرصيد الذي تبنى عليه الأخلاق والثورة الأخلاقية في الإسلام.

٤- ومن أعمالهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾.

اللمز: هو السخرية باللسان. والمطوعين: أصلها المتطوعين. والتطوع ما زاد على الفريضة. وكان المنافقون قبل ذلك قد انتقدوا النبي ﷺ في قسمتها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أما هنا فهم يسخرون من صدقات الفقراء من المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فقد تصدقوا بما في طاقتهم.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ فالجزاء من جنس العمل؛ بل أكثر من ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لنفاقهم.

أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود البدري قال: لما أُمِرْنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه. فقال المنافقون: إن الله غني عن صدقة هذا وما فعل الآخر هذا إلا رياء. فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ ومعنى نتحامل: أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة. أو تحامل في الأمر تَكَلَّفَهُ على مشقة. ونجد في الحديث كيف أنه لا ينجو من حِدَّةِ لسانهم أحد لا المكثر ولا المقل..

وهكذا التافهون لا ينجو من نقدهم أحد ولهذا قالوا قديماً: (إرضاء الناس غاية لا تنال). والمؤمن لا يحتكم إلى رأي الناس في أفعاله وإنما

يرجع إلى مقاصد الدين ويدقق في عواقب الأعمال، يحاكم نفسه على النوايا ويزن العواقب القريبة والبعيدة كيف جاءت فيعدِّل.

والتوجيه النبوي يحض على ألا يحتقر الإنسان من المعروف شيئاً مهما كان قليلاً.. ومن لا يَجُدْ بقليل لا يَجُدْ بكثير.. ولقد «سبق درهم مائة درهم» و «اتقوا النار ولو بشق تمرة». المهم هو تربية النفس وتعويدها على العطاء. ثم تعليم المؤمن أن الأعمال الكبيرة هي مجموعة من الأعمال الصغيرة يتعود المؤمن على بذلها..

ويعقب على أعمالهم هذه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، والعدد هنا يستعمل بمعنى الكثرة وليس للتحديد.. فمهما أكثرت من الاستغفار لهم فلن يغفر الله لهم. وليس في ذلك استهانة باستغفار النبي ﷺ - الذي كان رحيماً بالجميع ويرجو هدايتهم - ولكنه تعليم للنبي ﷺ ولنا جميعاً بأن مفتاح التوبة بيد الإنسان وأنه لا يستطيع أحد أن ينفعه إن لم يرد هو أن يتوب ويصحح.

وفي سورة النساء نبهنا الله إلى شروط التوبة الصحيحة ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ٤/١٧-١٨]. ولقد كانت لهم فرصة طيبة لو أنهم ندموا فعلاً على أعمالهم وجاؤوك مقرين بذنبهم طامعين في استغفارك كما أخبرنا في الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٤/٦٤] لكن القلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد يصعب تطهيره.. وقد يصبح ميؤوساً منه كما يقول الله عنهم هنا

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.. هذا حكم الله.. أما نحن فلا نستطيع أن نحكم على إنسان بأنه ميؤوس منه.. فالله أعلم وهو الذي يحاسب.

١٥- كيف يعامل المتخلفون عن الجهاد:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

فرحوا بقعودهم في بيوتهم مخالفين أمر الله ورسوله. لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من أجر عظيم؛ مما يجعل عدمَ القعود والراحة خسارة كبيرة. وكلمة ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تلقي ظلال الإهمال.. كما لو كانوا متاعاً قديماً يهمل ويترك.. بينما تدل (خلاف) على مخالفة الرسول ﷺ وتركهم أمرَه. فكأن الآية جمعت بين السبب والنتيجة (عمل العبد وعمل الله).

﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما يؤثر كثيرون في عالمنا الراحة على التعب والبذل في بناء كيان الأمة. والسبب أنهم مصابون بقصر في النظر فلا يدركون أن تعب البذل أسهل من عذاب عواقب الاسترخاء في الدنيا.. ثم حساب الله لهم في الآخرة على تخليهم عن الأمانة التي هي: الاستخلاف في الأرض. ولا ننسى التنبيه المتكرر لنا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهو الهدف الأسمى الذي ينبغي أن تنصرفَ إليه نوايانا.. وهو أمر يحتاج منا إلى تمحيص مستمر.. (ماذا أردت بعملي..؟ وأي الخيارين يرضي الله أكثر..؟)

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾.. وكما قال الشاعر:

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسرٍ من التعب

إن القعود والتخلف لا يناسب كرامة الإنسان، فالكفاح أصيل في كيان الإنسان يأبى أن تكون حياته كسائر الحيوانات ..﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو إدراك الموضوع بدقائقه.. فلو أدركوا سنن الأنفس لعرفوا أهمية الصعوبات في تحريك فكر الإنسان وما ينتج عن ذلك من رقي وإبداع. وقد تحدث علماء التاريخ والاجتماع عن أهمية وجود العقبات تحدياً يستنهض الفكر الإنساني لإبداع حلول.. وعندها تبدأ الحضارة في الصعود. أما ضعاف الهمة فلا يفقهون ذلك.. بل يظنون أنهم لا يستطيعون الحركة حتى تزول العقبات كلها.. ودائماً يعلقون فشلهم على الكيد الخارجي والظروف الصعبة.. ولهذا يسقطون في الامتحان.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.. اللهم الطف بنا وتجاوز عن تقصيرنا..

إن هؤلاء عندما تخلفوا ظنوا أنهم خدعوا الرسول ﷺ والمؤمنين.. كانوا يسخرون ويضحكون.. لكن من يضحكْ أخيراً يضحكْ كثيراً. ومهما ضحك هؤلاء وظنوا أنهم مستمتعون مرتاحون.. فإن العواقب ستبكيهم بكاءً كثيراً.

كان عيسى (عليه السلام) يعظ الناس ويذكرهم بالعاقبة النهائية (هناك يكون البكاء وصريف الأسنان) (متى الفصل ٨/ ١٣). فما أشد ما ستأتي به العواقب.. إننا نرى ذلك على المستوى الفردي: في الوالدَيْنِ اللّذينِ آثرا الراحة والاستمتاع على التعب في تربية أولادهم وتعليمهم قيم الحياة.. كيف تأتي النتائج..؟

وعلى مستوى الأمم التي تسترخي وتغفل عن تراكم الأخطاء وقد تعطل جهاز الصيانة فيها (وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أو بمصطلح العصر: المعارضة السلمية التي تجتهد في الإصلاح) يقول ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً»[١].. وقد وصف في بعض الأحاديث كيف تأتي الفتن - وهي عواقب - كأمثال الليل المظلم.. يظهر النفاق.. وترفع الأمانة.. وتقبض الرحمة.. ويتهم الأمين ويؤتمن الخائن.. (كما يروي الحاكم عن أبي هريرة).

﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ ..﴿وَلْيَبْكُوا﴾ إنه أمر بمعنى الخبر.. فهو أمر كوني يجري بسنن الله وهو ما يؤكده التعقيب ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾. ثم يبين الله ما يجب معاملتهم به في الدنيا:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾.

فالعقوبة هنا كما ذكرنا سابقاً: الحرمان من كرامة أداء الواجب وإسقاط الاعتبار في المجتمع. ولا ننسى أن العرب في عصر أوج الحضارة اعتبرت أهجى بيت قيل - وذلك في زمن عمر بن الخطاب - هو قول الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وكما قال الزبرقان - المهجو في الشعر:- (يا أمير المؤمنين أولا تبلغ مروءتي إلا أن أطعم وأكسى؟!)

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد ارتكبتم السبب ﴿فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ فتحملوا هذه النتيجة ..﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾: الذين تخلفوا أو خُلّفوا.. أو بمعنى الفاسدين، إذ يقال: خلف اللبن: تغير، وخلف فوه خلوفاً: تغيرت رائحته (كما يحدث لفم الصائم).

وإجراء آخر: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ من

(١) متفق عليه.

هؤلاء الذين عرفك الله بهم. وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث (وقد رواه أبو داود وغيره) وقد حرم المنافقون من هذه الكرامة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فلا يجوز أن يعاملوا معاملة المؤمنين لا في حياتهم ولا عند مماتهم. وهو أمر خاص بالنبي ﷺ الذي أطلعه الله على حال كثير منهم، أما نحن فلا علم لنا بالقلوب والنوايا، والأصل أن يصلى على كل من مات وقد شهد الشهادتين في حياته. ومن المدهش أن النبي ﷺ حرص على عدم فضحهم ولم يحدد لأصحابه أشخاصهم.. وكان يستغفر لهم..

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

ما القصد هنا بـ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾؟ هل اختار الله لهم الكفر والمعصية؟!

بل إنها إرادة سننية.. فلقد اختاروا لأنفسهم درب النفاق والانتهازية.. ويربُّون أولادهم على هذه القيم السلبية.. وسيكونون أول من يتجرع ثمارها النكدة.. وسيفتقدون الإخلاص والإيثار في معاملتهم.

وقد نغتر أحياناً بالقوة العددية والاقتصادية - عندنا أو عند الآخرين - ولكن هل يستوي الخبيث والطيب؟ لا يمكن ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٠] ولابد من الانتباه الدائم إلى النوعية قبل الكمية..

ونتذكر هنا أنه قد مر معنا مثل هذا التنبيه والتذكير بهذا الشأن. الآية ٥٥ جاءت تعقيباً على كراهيتهم للإنفاق والبذل، وأما هنا فإنه يتحدث عن المتآمرين على النبي ﷺ.. فكأن الله سبحانه يقول لنا: انظروا كيف يتطور النفاق إلى أسوأ باستمرار.. فقد انزلقوا من البخل إلى التآمر على قتل النبي ﷺ.. وهكذا ينساق المنافق في الدرب المتدني الذي اختاره دون أن يحاول التصحيح.. كما يُذلَّل الصعود للمؤمن حين يختاره..

إن جوهر الإنسان فكره وعمله وعليهما تترتب دنياه وآخرته. فلا تغرنَّك الأموال والأعداد الكثيرة. وما أصعب أن يصبح الأولاد - الذين هم أفلاذ الأكباد - سبباً للعذاب.

وقد وردت أحاديث حول هذه الآيات. منها ما رواه أحمد والبخاري عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه.. فلما وقفَ قلت: أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا.. - أعدد أيامه - ورسول الله ﷺ يبتسم. حتى إذا أكثرت قال: «يا عمر أخِّر عني إني قد خُيِّرت: قد قيل لي استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة.. فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه.. فعجبتُ لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل. وفي رواية - في البخاري ومسلم - أن ابنه عبد الله بن عبد الله جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر.. إلخ.

نفهم من ذلك أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك قبل النهي رحمة بأمته وإكراماً لأقربائهم المؤمنين. فلما نزلتِ الآية ترك الصلاة عليهم. أما نحن فلا بد لنا من الصلاة على كل من مات مظهراً الإسلام وأمره إلى الله.

لكنني أتأمل في تربية النبي ﷺ لأصحابه على حرية الفكر والمعارضة.. وقدرته على سماع النقد.. ولهذا كان الصحابة مجتهدين مبدعين.. خلافاً للتربية المشيخية التي تسود في عالمنا.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي أصحاب القدرة على الجهاد بأموالهم وأنفسهم. هؤلاء بدلاً من أن يتقدموا الصفوف كما تقتضيهم القدرة التي وهبها الله لهم - حين يدعو داعي الجهاد - يتخاذلون ويعتذرون ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قاموا بالسبب - وهو التخاذل - فجاءتهم النتيجة - وهي طَبعُ الله على قلوبهم - والطبع على القلوب مثل الختم عليها كما قالت الآية ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤] وإن امتلاء القلب بالمعصية يحول بينه وبين قبول الحق والخير ..﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون سنن الله في الحياة. (إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة؛ وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقة تخاف من ظلها وتفرق من صداها ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٤] [١]).

١٦- المؤمنون الطائعون وجزاؤهم:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

إنها صورة وضاءة الإيمان والجهاد تعرض الآن مقابل صورة الذل والنفاق.. إنهم المؤمنون الذين نهضوا بتكاليف العقيدة وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود، وبذلوا ما يملكون من طاقات فكرية ونفسية وبيانية وما يملكون من وقت ومال لأداء دور الخلافة التي كلفهم الله بها ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) من فصل (ضريبة الذل) في كتاب (دراسات إسلامية) - سيد قطب

﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فلا نجاح من دون إخلاص وعلم وعمل - وهي العناصر الثلاثة للتقوى -

في الآية حصر بأن هؤلاء لهم الخيرات وهم الناجحون فقط. فإذا وجدنا صورة الواقع مختلفة فعلينا أن نبحث عن المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله.. وليست النتائج قاصرة على الدنيا.. بل تأملوا ماذا أعد الله لهم في الآخرة ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ فالنجاح الحقيقي في ذلك اليوم.

١٧- التمييز بين المتخلفين لعذر والمتخلفين القادرين:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ وهنا يبين حالَ الأعراب خاصة بعد أن بَيَّن حال منافقي الحضر في المدينة.

﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾: الذين يعتذرون سواء كان لهم عذر أم لم يكن. ولها قراءة ثانية (المعْذِرون) والكلمة تتضمن جميع الأصناف: من كان له عذر حقيقي ومن كان كاذباً ومن كان عذره لضعف همته.

وهناك طائفة أخرى تذكرها الآية ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قعدوا عن القتال وعن المجيء للاعتذار ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا التخصيص ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يفتح أملاً وباباً للتوبة.. والفرصة موجودة لاجتناب غضب الله طالما فيك أنفاس تتردد..

أما أصحاب الأعذار الحقيقية فهم ثلاثة:

١- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ من لا يملكون قوة بدنية للجهاد..

٢- ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ أمراضاً مؤقتة أو مزمنة.

٣- ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ وقوله: ﴿يَجِدُونَ﴾ تفيد أن عليه أن يبحث حتى يجد.

ونفي الحرج عن هؤلاء يذكرنا بمقاصد الدين؛ فقد أراد الله بأوامره ونواهيه رفع المشقة والحرج عن الناس. وهذا العذر يزول إذا كان للدولة ميزانية جيدة تزود بها المجاهدين المتطوعين.

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا توافر الإخلاص (الإرادة) ولم تتوافر القدرة.. فلا مؤاخذة في تلك الحالة. أما إن كانت الحالة مجرد تبرير وتذرع بفقدان القدرة.. فالإرادة معدومة.

﴿نَصَحُواْ﴾: في اللغة يقولون نصحَ العسل ونضحَ إذا كان خالصاً مصفى. ونصح الخياط الثوب إذا أتقن خياطته ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً. ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهم مخلصون يقومون بما يقدرون عليه من بذل لأمتهم. وقد نتساءل كيف يذكر الإحسان هنا؟ وهل يقدر الضعفاء على الإحسان؟ إنها لفتة هامة للضعفاء ولنا جميعاً بأننا نملك من نعم الله كثيراً مهما افتقرنا.. فبعضٌ يملك سعة الصدر وآخر عنده علم يمكن أن ينفع الآخرين به وثالث يملك كلمة طيبة.. فالكل قادر على الإحسان؛ وهذا جابر يقول: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم (رواه البخاري ومسلم)؛ فالنصح لكل مسلم هو أنموذجُ من ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ومن المحسنين.. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. فهو إتقان العمل.. وهو عنصر الجمال في الثقافة الإسلامية - كما يقول مالك بن بني - لأنه حرص على أداء العمل على أحسن وجه .﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ لأنهم لا يتركون ثغرة تمكن الآخر من انتقادهم.. ولهذا يتمتعون بحماية الله إذ يلتزمون بسننه.

والإحسان أكبر من النصح وهو شامل للأمور الحسية والمعنوية. ومالك بن بني تحدث عنه حين فصل في عناصر الثقافة الأربعة: الأخلاق - الجمال - المنطق العملي - الصناعة. وقال: إن الثقافة الإسلامية أعطت الأولوية للأخلاق بينما الغربية أعطتها الجمال. لكنه يطالب بالجمع بين

(المبدأ الأخلاقي) و(الذوق الجمالي) - الذي يجعله مقابل الإحسان- ونفهم من حديثه أنه يرد الخلل في أي ثقافة إلى التفريق بينهما.

ومن المؤسف أن المؤرخ الغربي (ديورانت) كثيراً ما كان يقرر في كتابه (قصة الحضارة) أن الدين والفن (أي الجمال) متعاكسان.. كما يقرر تعاكس الدين والعلم.. ولعله كان متأثراً بالنماذج السيئة التي قدمت الدين على هذه الصورة.. بينما نجد في القرآن كيف تبدو الأخلاق هي الأجمل والأنفع: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٠] ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٥] ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩] ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

إن رؤية السلوك الذي ينبع من هذه الوصايا القرآنية يخلق إحساساً بالجمال ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤] وهل هناك أجمل من إنسان يملك غضبه ويعفو عمن أساء؟! ومع أن الله يعطي الأمان لهؤلاء ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ لكنه يعقب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.. لأن الكمال في الإنسان مستحيل، لكن المحسن يتدارك تقصيره مع الله بالاستغفار؛ ومع الناس بالاعتذار.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ الآية هنا ترسم صورة من صور الجمال المعنوي.. صورة الرغبة الصحيحة في الجهاد والألم

الصادق للحرمان من نعمة أدائه.. إنهم جماعة من المؤمنين الفقراء يدخلون في عموم الآية ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ وكان الطالب لدابة يركبها يقول لمن يطلب منه (احملني). وقد وردت أحاديث في هؤلاء منها: عن ابن عباس: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين فجاءت عصابة من أصحابه منهم: عبد الله بن مغفل المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاء وعزَّ عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدوا نفقة ولا محملاً فأنزل الله عذرهم. (أخرجه ابن مردويه وابن جرير). وفي روايات أنهم يسمَّون البكائين. والآية لم تحدد الوسيلة بل عممت (ما أحملكم عليه).. مما يدخل المراكب المتطورة في ذلك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ الموصل إلى المؤاخذة والمعاقبة بالحق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هؤلاء يملكون القدرة لكن الإرادة انعدمت عندهم.. فلما اختاروا التخاذل جاء عمل الله فيهم (الطبع)، ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي الآية ٨٧ - قبل قليل - ذكر المعنى نفسه ولكن عقب عليه ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾. والفقه هو العلم بدقائق الأمر. وفي هذا التكرار تأكيد على ضرورة فهم سنن الله في الأنفس، وكيف ترتبط الأعمال بالعقائد والسجايا والأخلاق.. وهؤلاء لا يعلمون السنن ولو كانوا من حملة الشهادات.. ولو كانوا يتكلمون ويتشدقون بالمعلومات. لأن للعلم مراحل لابد من استكمالها؛ فالفكرة كالبذرة لابد أن تنمو حتى تسيطر على الوجدان ثم تسيطر على العمل وتظهر آثارها. يقول صاحب الظلال: (إن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر وتطبع على القلوب والعقول.. ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل وتشد العضل وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة؛ وتدرب الطاقات البشرية

على العمل وتشحذها.. وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة يُحْرَمُها طُلاب الراحة والسلامة الذليلة).

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ وهذا من إنباء الله لرسوله والمؤمنين بما سيكون من أمر هؤلاء بعد الرجوع من الغزوة؛ فالآيات نزلت أثناء العودة منها. وهنا تأتي توجيهات للنبي عن كيفية الرد عليهم:

التوجيه الأول: ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لن نصدقكم أو نطمئن إليكم.. فالإيمان ثقة واطمئنان.

﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ والعمل هو الذي سيدل على الحقيقة، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إذ لا تكفي صورة الأعمال في الدنيا ولابد من أن يحكم في صدقها وجودتها الله تعالى. أما نحن فنحكم بحسب الأعمال الظاهرة ونكل النوايا إلى الله.

هؤلاء المتخلفون سيصل الأمر بهم إلى درجة ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ فلا يتعرضون إلى لوم أو عقاب ويحافظون على ماء وجوههم في مجتمع مؤمن مجاهد. وهنا يأتي استدراك بـ

التوجيه الثاني: ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ لا إعراض عفو وصفح ولكن إعراض إهمال واجتناب.

﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ معنوي.. فالنفوس المليئة بالنفاق والكذب مليئة بالقذارة ..﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ كانوا يظنون أن أعمالهم كسب لهم لكنها أوردتهم المهالك. ويكرر مرة أخرى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ وهو أسلوب مدهش في تقرير خطر هؤلاء حتى

يشعر المؤمنون بأن الله يحترم اجتهادهم وقرارهم.. لكن علم الله أدق وأوسع وعلى أساسه يصدر الحكم عليهم. ولابد أن نقف مع الآية لنتأمل بعض إيحاءاتها:

١-إن التوجيهات القرآنية تترك مجالاً لإعمال الفكر والترجيح والاختيار، فإما مجابهتهم أو الإعراض عنهم. وهذا الأسلوب القرآني في التوجيه يرفع الإنسان إلى أحسن تقويم؛ فهو يحرك عقله ويشعره بالكرامة والثقة بأنه قادر على اختيار الأُسلوب الأفضل لكل ظرف. أما رسول الله ﷺ فقد أخذ بالتوجيه الثاني - الإعراض - وكأنه كره أن يُعرِّض اسم الله للامتهان.

٢-هناك أناس يعيشون حالة الخلل الداخلي حتى إنهم يستمدون توازنهم من كلام الناس وآراء الناس، والمنافقون قد أصيبوا بمرض في القلب والنفس من هذا النوع.. فهل يمكن مساعدة مثل هؤلاء الأشخاص على الشفاء والعودة إلى الصحة النفسية..؟! لأن السواء النفسي ينبع من تقدير الإنسان لنفسه وقدرته على المحاكمة الموضوعية بغض النظر عن رأي الناس.

٣-من المؤكد أن الأمل في الشفاء يجب أن يكون موجوداً.. لكن الصعوبة بالنسبة إلى المؤمنين هي: كيف نجمع بين عدم الرضى عن أعمالهم.. وبين الرغبة في الإنقاذ؟! وكيف نتصرف حيال أعمالهم؟ إن الأمر يحتاج إلى علم و(دراسة جدوى) فقد يكون الإعراض مناسباً لموقف، بينما قد تكون الموعظة تناسب موقفاً آخر.. ولا بد من دراسة الدوافع والخلفيات وراء المواقف والأعمال. وخبر حاطب بن أبي بلتعة خير دليل على ذلك؛ فلقد عفا عنه النبي ﷺ بعد أن علم أن دوافعه - من إرسال خبر إلى قريش عن تجهيز النبي ﷺ لغزو مكة - هي حماية أهله في مكة من غدر المشركين.

٤-إن أساليب النبي ﷺ مع المنافقين ومع الناس عامة مفيدة جداً لنا.. لكن هذا لا يمنع من أن نطلع على أساليب جديدة في العلاج النفسي ونجتهد ونتأمل في تجارب الآخرين.

المقطع الخامس الآيات [٩٧-١١٠]

تصنيف المجتمع المسلم بعد تبوك

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ
ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم
بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ
ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ
نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ
سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى
ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ

عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ٩/٩٧-١١٠].

ويبدأ بالحديث عن الأعراب وطبيعتهم ثم عنِ المنافقين والمؤمنين من الأعراب. ثم يصنف المجتمع كله إلى أربع طبقات. ويختم بالحديث عن فئة معينة من المنافقين لخطورة سعيهم في مسجد الضرار.

١- طبيعة الأعراب:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الأعراب اسم جنس لبدو العرب. ويصفهما بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة وفي ذلك إشارة هامة إلى أثر البيئة في الإنسان:

أ- كفارهم ومنافقوهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر، بسبب ظروف حياتهم الخشنة وما تنشئه من جفوة وقسوة. ٢- ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو محرومون من العلم لعدم شهودهم وغياب حضورهم. وكأن أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه ﷺ كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله ويشهدون سنته في العمل به. وكان ﷺ يرسل العمال إلى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن ويحكمون بين الناس بالسنة.. وهؤلاء الأعراب حرموا من ذلك فاكتسبوا هذه الصفات بسبب ظروف بيئتهم - لا لضعف أفهامهم - ولعزلتهم عن الأحداث.

يقول رسول الله ﷺ: «من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن

أتى السلطان افتتن» (الإمام أحمد) وعن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. قالوا: لكنا والله ما نقبل. فقال ﷺ «وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» (رواه مسلم).

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي فإنّ الله لم يبعث منهم رسولاً وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٩].. والبدو لا يشكلون مجتمعاً ذا شأن وإنما هم أفراد مترحلون. والأعراب مأمورون بالهجرة لأجل العلم ونصرة الأمة. وقد نهى رسول الله ﷺ أن يرجع المسلم من المدن إلى البادية لأن الإسلام دين علم وحضارة ولا يصلح البدو لإنشاء حضارة إلا إذا علموا وحضروا.. ولابد من العودة إلى البادية لتحضيرها. والناظر في خريطة العالم الإسلامي يرى أن البادية تزداد اكتساحاً للأرض فيها.. ويتحدث مالك عن مشكلة التراب في كتابه (شروط النهضة) فيقول: إنها (مأساة دامية إذ تموت الأرض الخضراء عن أهلها وتتركهم يتامى بين أيدي الصحراء. ماذا فعل سكان الأرض أمام هذا الغزو؟ وقفوا منه موقف الضعيف الجبان.. لقد فر ساكِنُ البادية ذلك الرحالة.. فهو الآن تائه بين الصحراء وبين المدن التي ترفضه أو تبتلعه حيث تجعل منه إنساناً منبوذاً.. وظاهر أن سبب الأزمة جوي ناشئ عن قلة المطر وهي تتسبب في جفاف القشرة الخصبة من الأرض فتذروها الرياح وتكفنها الرمال. وبدهي أنه لا حل لهذه الأزمة غير الشجرة، ولن يتحقق لنا مثل ذلك النصر على الصحراء إلا إذا انتصرنا على أنفسنا الخاملة الكسول؛ لأن القضية لا تتطلب شجرة واحدة بل مئات الملايين.. ولنا في دول أخرى أسوة حسنة فإنها قد تعرضت لمثل هذه المحن فواجهتها بكفاح وعبقرية.. ففرنسة عام ١٨٥٠ قامت بغرس الأشجار في الناحية

الجنوبية الغربية من بلادها حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطي والمستنقعات الضارة تهدد صلاحية وصحة أهلها.. ولكن وقف سكان تلك المنطقة بهمة وصبر يوقفون الرمال عند حدها. وقضوا عشرين سنة يسدون الطريق على الرمال من مدينة بوردو إلى مدينة بياريتز فانتصروا على الرمال.. وكانت نتيجة انتصارهم أبعد مما كانوا يتوقعون فأصبحت بما تمتعت به من الأشجار الكثيرة ذات حركة اقتصادية ممتازة؛ إذ أصبحت أول منتج في العالم لزيت التربنتين المستخرج من تلك الأشجار وأصبحت ملجأً صحياً للمرضى من جميع أنحاء العالم..).

وما يحدث في غوطة دمشق وغيرها من الأماكن الزراعية مأساوي.. فالناس يقطعون الأشجار ويحولون البساتين إلى أبنية وعمارات تحت ضغط إغراء المال، والناس يتركون البادية والقرى ويتكاثرون في العاصمة. وتحدث أزمة السكن وأزمة المواصلات والتلوث.. وأزمة الماء.. فتأمل الفارق بين نهي الدين عن العودة إلى البداوة.. وبين ما يحدث الآن من تحويل المدن إلى صحارى؟ وتحوُّلِ سكانها إلى (أعراب)..؟ ولقد بشر النبي ﷺ بعهد للعرب تستصلح فيه البوادي «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»(١).

في بلدي سورية نظام يفرض (خدمة الريف) على خريجي الجامعة.. بحيث يفرض على من يتخرج من الجامعة أن يشتغل في الريف سنتين - في التخصص الذي درسه - كذلك يوجد قانون يحمي الأراضي الزراعية من أن تتحول إلى عمارات من الإسمنت وفق نسبة معينة من المساحة.. وهي أنظمة جيدة لو أعطيت حقها من التفعيل.. لكن الناس يحتالون عليها ويتنصلون من الالتزام بها.. ولابد من عمل دورات للتوعية بأهمية مثل هذه

(١) مسند الإمام أحمد.

مثل هذه الأنظمة.. ثم لابد أن ترسل دفعات متتالية من الشباب إلى القرى والبوادي لرفع مستواها إن كنا نريد مستقبلاً أفضل.. بينما نجد الذين يتخرجون من كلية الزراعة يتوظفون ويجلسون في المدينة وراء المكاتب.. بل إن معظم خريجي الجامعات لا يعملون بتخصصهم ولا يستفيدون مما تعلموهُ في الجامعات.

وهنا تبرز أهمية الثقافة البيئية، وتصرفاتنا تدل على أننا مفتقرون إليها.. نحن أنانيون ولا نحب بلدنا ولا نحسب حساباً للمصلحة العامة ومصلحة الأجيال القادمة؛ وهذا أبعد ما يكون عن الإسلام. وكلنا نقول: (ما بيطلع بيدنا شيء ولا دخل لنا فيما يحدث).. لكن أيعجز أحدنا أن يزرع شجرة أمام باب داره أو في الفناء أو الشرفة..؟ أو على الأقل أن يعلم أولاده ألا يتلفوا النبات في الحدائق والطرقات..؟! ألا نرى كيف تستصلح إسرائيل كل أرض تضع يدها عليها وتحفر آبار المياه والبترول؟.. هل خرجت باستطرادي هذا عن الموضوع؟ وهل القرآن للتبرك فقط؟ إننا ننتكس إلى البداوة في ترابنا وفي عزلتنا.. فنحن لا نشهد ولا ندرك إضافات العصر.. ولهذا لا قدرة لنا على المشاركة مع العالم في صنع القرار.

ويعقب تعالى على ذلك بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأحوال عباده وحكيم في توجيهاته التي تهدف إلى تطوير الإنسان.

٢- صنفان من الأعراب:

ويعجل بذكر المنافقين منهم إلحاقاً لهم بمنافقي المدينة الذين كانت الآيات تتحدث عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ ينفقون مكرهين.. يدفعون الزكاة ويساهمون في تجهيز الغزوات لكنهم يعدون ذلك غرامة وخسارة يؤدونها كارهين ولا يرجون ثواباً عليها في الآخرة.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي نوائب الدهر التي تدور بالناس ﴿عَلَيۡهِمۡ

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾ تحتمل معنى الدعاء، أو الخبر بحقيقة حالهم وسنة الله فيهم؛ وقديماً قالوا: (على الباغي تدور الدوائر). وكلاهما واحد؛ لأن الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كمضمون الدعاء.. فهو وفق سنة الله واقع.

وتقديم الخبر ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يفيد الحصر.. فعليهم وحدهم الدائرة السيئة تحيط بهم من دون المؤمنين، لأن المؤمنين لا يأتيهم من عواقب في الدنيا والآخرة إلا ما فيه خير لهم (١). انظر مثلاً في الآية السابقة كيف يعرض العواقب ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾.

والصورة المرسومة في الآية: كأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم.. مؤثرة وواقعية؛ لأن الإنسان قبل أن يتصرف يملك مساحة واسعة من الاختيار والتمييز.. لكنه بعد أن يمضي في طريق السوء تأتي العواقب حتمية لا فكاك منها.. وحتى التوبة لا تعفيك من عواقب الدنيا لكنها تمنحك العفو من الله في الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يعلم ما يسرون من نجوى بينهم وما يسرون من نوايا في قلوبهم. وبذلك يحاسبهم.

أتمنى أن نقف لتحليل هذا الموقف ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾.. لماذا يصل الإنسان إلى هذا المستوى من الحقد حيث يتمنى للآخر أن تقع عليه المصائب؟!

-قد يكون الدافع هو الحسد من جاهل لا يعرف أسباب التقدم ولا

(١) وفقاً لما جاء في الحديث «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير» (رواه مسلم) فهو يتقلب بين حالين جيدين: الشكر والصبر.

يؤمن بالسننية. فهو يرى أن كل ربح يحصل عليه الآخر منتزعاً من نصيبه هو.. وهو ما نسميه (نظرية الندرة) بينما مفهوم (الوفرة) يدرك أن خير الله كثير ويمكن أن يربح الجميع ولا يخسر أحد.. بينما قانون الحاسد: يخسر هو لأربح أنا. وكثيراً ما يتصف الطغاة بهذه الصفة؛ فهم يسعون للتفرد بالسلطة والغنائم لأن فكرهم قائم على نظرة أحادية (أنا لا أربح ولا يثبت كياني إلا إذا تحطم الآخر).

-وفي المقابل هناك الضعيف المقهور الذي أكره على التنازل والتصفيق للمتسلط.. وهو ضمنياً يؤمن بالمنطلق نفسه الذي يتعاكس مع عقلية الوفرة.. وهي مأساة الاستكبار والاستضعاف التي يعاني فيها كل العالم. فكيف نعالج هذه الأمراض كي نرفع مستوى التطور الإنساني؟ إنه أمر يستحق جهود العلماء والمصلحين.. ومع أنني لست في مستواهم لكنني أسمح لنفسي أن أقدم بعض الاقتراحات ..

١-إعطاء التعليم عناية أكبر وتخصيص ميزانية خاصة له. وخاصة في جانب العلوم الإنسانية.. فكما تُجنّدُ وسائل متعددة للقضاء على الأمية (في القراءة والكتابة) فلا بد من جهود كبيرة ووسائل متنوعة لمكافحة الأمية في فهم سنن الحياة.. ومتابعة كل المستجدات في سنة تطوير الشخصية الإنسانية.

٢-تعميم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] وترسيخ ثقافة الإقناع بدلاً من الإكراه؛ لتحرير الإنسان من القهر والاستضعاف ومن الطغيان ونكران الآخر.

٣- تربية الأبناء على الحوار والإقناع والمساهمة في صنع القرار بدلاً من الأوامر؛ فإن هذا من شأنه أن يعطي السواء النفسي للحاكم والمحكوم. فلا يبقى الأبناء يتربصون غفلة من آبائهم لكي ينطلقوا وراء

هواهم، ويخف الضغط النفسي عند الناس فلا يحقدون على حكامهم ولا يدعون عليهم أو يتربصون بهم الدوائر.

والعالم العربي - بل والإسلامي - مع الأسف واقع بما وصفه رسول الله ﷺ «شر الأمراء الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» وهي حالة مأساوية تسمح للدول المستعمرة بالتدخل والإفساد وإشعال الحروب الداخلية. ولن نحصل على السواء النفسي حتى نتحرر من حالة التربص وعندها نتصل بالله الذي هو (محبة).

والصنف الثاني: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ هذا الفريق يتخذ ما ينفق وسيلة إلى أمرين عظيمين: القربات والزلفى عند الله - والحصول على صلوات الرسول: أي دعاؤه لأنه كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم. يقول في المنار [ولم يثبت في النص انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وإلّا ما يكون المرء سبباً فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها] وأضيف: الانتفاع بما تركوا من علم.

ويمكن حتى الآن كسب صلوات الرسول ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦] وقد ورد أن النبي ﷺ يصلي على كل من صلى عليه. وأصل معنى الصلاة: الدعاء وأطلقت على العبادة المخصوصة من أركان الإسلام لأن روحها هو الدعاء -وهو مخ العبادة- أما الصلاة على النبي ﷺ فهي الشهادة له والثناء عليه وطلب المنزلة العالية له عند الله.

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ يجسم الله الرحمة وكأنها دار يدخلونها فتحتويهم مقابل دائرة السوء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلمون به من ذنب أو تقصير فالإنسان لا يكتمل..

ويرحمهم بهدايتهم إلى أحسن العمل، والذين عملوا ما في وسعهم يغفر لهم ويرحمهم بتخفيف عواقب التقصير.

٣- فرز مجتمع المدينة إلى خمسة:

أ- السابقون الأولون: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يبدأ من هذه الطبقة العلية في الأمة والتي عليها الاعتماد في بناء وصيانة المجتمع وهم ثلاثة: المهاجرون والأنصار - والتابعون بإحسان.

أما المهاجرون والأنصار- والسابقون منهم خاصة - فمعروف دورهم وأجرهم. لكن من المهم أن نحدد معنى (الصحبة).. فهل الصحابي منهم الذي رأى رسول الله ﷺ ولو مرة؟ في كتابه (البوصلة القرآنية) يطالب أحمد خيري العمري بإعادة النظر في هذه المسألة، لأن المسلمين يقعون في تعميمات عجيبة.. فليس المهم أن نحكم هل هم في الجنة أم لا.. وإنما المهمُّ تمييز أعمالهم حتى لا تعتبر كلها قدوة ومصدراً للشريعة. ومع ذلك فإن مدحهم بأنهم سابقون لا يعني أنهم منزهون في فهمهم وأعمالهم.

ونقف عند: التابعين بإحسان.. وما أعظم فضل الله إذ يعطينا فرصة للانضمام إلى هذا الركب المبارك.. إنهم ليسوا مجرد أتباع وإنما يختارون الأحسن.. ويتبعون المنهج ولا يتمسكون بالجزئيات وبما فات أوانه الآن.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ فما أروع هذا الشعور المتبادل مع من بيده ملكوت كل شيء.

فأي (رضى) يبدأ أولاً؟ إنه رضى العبد بأوامر ربه.. ثم يأتيه رضى الله ثمرةً لاختياره وسعيه.

فلِمَ بدأ في الآية برضى الله؟! لأن له الأولوية عند المؤمن.. وليشعرنا

بأن النتيجة تكاد تسبق السبب، والله محب لعباده ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٣٩/٧] بل يفتح لهم كل أبواب الخير.. فمن أتاه يمشي أقبل الله عليه مهرولاً ..﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢- مردة المنافقين من البدو والحضر: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ هؤلاء بعض الأعراب من قبائل مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة، ومن أهل المدينة نفسها من الأوس والخزرج.

﴿مَرَدُوا۟﴾: حذقوا النفاق حتى بلغوا الغاية في إتقانه فلا يشعر أحد بنفاقهم.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ فهم أشد نفاقاً وخبثاً من الذين قال عنهم الله ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠/٤٧] وحكمة هذا الإخفاء من الله لهم:

١-أن الله يحذرهم من الفضيحة ويعطيهم فرصة لاستدراك أمرهم وذلك رحمة من الله تعم حتى المنافق.

٢-حتى يحذر المؤمنون على أنفسهم من النفاق، ويكونوا في حالة توتر إيجابي.

٣-وحتى يحذروا في التعامل مع من حولهم فلا يوالون إلا من ثبت لهم إخلاصه.

وبذلك نجد القرآن يضع المؤمن على أول الطريق في حل المشاكل ولا يعطيه الحلول الجاهزة ولابد أن يبقى المؤمن في حالة حذر واستنفار للفكر حتى يبتكر حلولاً أفضل.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة في الحياة الدنيا بالعذاب النفسي من قلق وتردد وخوف من الفضيحة، ثم بعذابهم حين يفتضحون ويعاقبون من المجتمع المؤمن. ومرة عند الموت وضربِ الملائكة وجوهَهم وأدبارَهم.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة.

هذا الحديث عن المنافقين قد شخص لنا نوعي المنافقين: من فُضحوا بأقوالهم وأفعالهم والذين مردوا على النفاق وأتقنوه فَصَعُبَ كشف أمرهم.. وأشد المنافقين إتقاناً للنفاق أعوان الملوك والأمراء وشرهم وأكثرهم ضرراً أولئك الذين يلبسون لباس علماء الدين.

٣- والمؤمنون المذنبون: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾.

هؤلاء لا هم من السابقين وليسوا من المنافقين وإنما خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فهم في مقام الرجاء لقبول الله توبتهم إذ يعقب جلّ شأنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا النوع يمثل أكبر شريحة في عالمنا الإسلامي المعاصر وهو قابل للتطور والتزكية. فلنتوجه إلى الله مع الملائكة في استغفارهم للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧-٩].

قال بعض العلماء: إن هذه الآية ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.. هي أرجى آية في القرآن. وقال آخرون: بل أرجى آيةٍ هي قوله تعالى: ﴿قُلْ

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

ومن الطبيعي أن هذه الآيات ليست للمصرّين على ذنوبهم بلامبالاة. بل للمجتهدين في تصحيح أخطائهم. وقد وعد الله من يتبع السيئة بالحسنة بأن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]. والمؤمن يتعهد نفسه بالتوبة والاستغفار..! فهو إنسان ليس منزهاً. وعلينا أن نعي الحالات المرضية التالية:

١-الاستهتار بالذنوب والوقوع في الأماني العريضة حتى يضيع الالتزام.

٢-الازدواجية النفسية (الدكتور جيكل والمستر هايد) بحيث تفقد النفس سواءها وتصبح في حالة صراع.

٣-(كبرياء التقوى) وهي حالة من الغرور تجعل صاحبها يحتقر من حوله ويصاب بورم الذات. والقرآن يعالج النفس البشرية باستمرار حتى لا تقع في ذلك ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٤/ ٩٤] ونتذكر ما نقل من قول عيسى لمن طلب منه رجم الزانية (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر)، وقصة الزاهد والعشار حين وقفا يناجيان الله..وكان العشار نادماً شاعراً بالتقصير فهو ليس كهذا الزاهد في عبادته.. أما الزاهد فكان معتداً بعبادته.. فغفر الله للعشار ولم يغفر للزاهد. والأمر دقيق جداً في التفريق بين الغرور الذي يحمل على التحقير للآخرين.. وبين الشعور بالتميز (أو الأناقة)، إذ ما ينبغي لي أن أرضى بالمستوى الذي يرضاه عامة الناس .﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٢] هكذا قال الله لنساء النبي ﷺ.. في مجال الحث على الارتقاء والتسامي.

وكثير من الآفات النفسية والإيمانية دواؤها الدأب على طلب العلم والقراءة المستمرة ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٩٦/٣]؛ وقد فسرها النبي ﷺ بقوله: «اقرأ وارتق فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» والآية هي العلم بسنن الله. وكم نحن بحاجة إلى التواضع لنعرف حاجتنا إلى طلب العلم.. حتى نتعلم من الاستماع ومن الكلام مع الآخرين لنحمي أنفسنا من الخطأ ولننشر الخير بين الناس.. إنه الذكاء العاطفي وفن الحوار.

ولا تتم العبرة بالآية إلا بتدبر ما بعدها.. حيث نجد الحثَّ على تطهير النفس من النفاق وتطويرها.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يقول ابن جرير الطبري: سمعت الضحاك يقول في الآية: نزلت في أبي لبابة وأصحابه؛ تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته وكان قريباً من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وقالوا: نكون في الظلال والأطعمة والنساء ونبي الله في الجهاد واللأواء، والله لنوثقنَّ أنفسنا بالسواري ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله ﷺ يطلقنا ويعذرنا. وأوثقوا أنفسهم وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم.. فقدم ﷺ من غزوته فمر في المسجد وكان طريقه فأبصرهم فسأل عنهم.. فقال ﷺ: «لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين» فأنزل الله الآية.. وعسى من الله واجب، فأطلقهم النبي ﷺ وعذرهم..

وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة أن أبا لبابة وأصحابه جاؤوا رسول الله ﷺ حين أطلقوا فقالوا: يا رسول الله ﷺ هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فأنزل الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ وزاد في غيره أنه لما نزلت

أخذ ﷺ جزءاً من أموالهم وتصدق بها عنهم. و ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من دنس البخل والطمع والقسوة، وتزكيهم: تنمي نفوسهم وترفعها.

ونلاحظ أن التزكية في القرآن تسند إلى الله مرة.. وذلك من حيث إعطاء القدرة عليها في الإنسان؛ وتسند إلى النبي ﷺ من حيث كونه المربي للمؤمنين، ومن مقاصد إرسال الرسل: مساعدة الناس على أن يزكوا أنفسهم. وتسند إلى الإنسان لأنه هو الفاعل ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩١/٩].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ الصلاة هي الدعاء والاستغفار. والسكن هو تحقق السكينة والسلام النفسي؛ لأن دعاء النبي ﷺ مستجاب، ولأن المؤمن يشعر بأنه تحرر من ذنبه حين تصدق ودعا له النبي فتسكن نفسه. والصدقة المعنية هنا - على الأغلب - تعم الفريضة (الزكاة) والتطوع. وكان رسول الله ﷺ يدعو لكل من جاءه بصدقتِهِ، ولهذا قال الشافعي: السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول: (آجرك الله فيما أعطيت وبارك الله فيما أبقيت)؟

وقبل أن نترك الآية نتأمل كيف يحب الله لنا سكينة النفس وسلامها.. إن (الصحة النفسية) هي مقصد من مقاصد إنزال الدين على الناس.. وإن قصة أبي لبابة وأصحابه تصور لنا رهافة الضمير عند المؤمن ومدى شعوره بالذنب حتى إنه يعاقب نفسه.. فتأتي الصدقات مكفرات.. لتعيد إلى قلبه السلام.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم التوبة الحقيقية ويقبل الصادقين.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾؟! فلا تقنطوا من رحمة الله.. وعودوا إلى الله تتطهر قلوبكم وتتجدد حياتكم.

وفي الحديث «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة» (رواه أبو داود والترمذي). وفي الحديث وعد وتشجيع لمن نشأ على عادات سيئة يجاهدها وتغلبه.. أن يستمرّ في جهاده وتوبته حتى تنكسر العادة. ويدعم ذلك قول الله بعدها: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فالله يحثنا على الاجتهاد في العمل لتزكية النفس وتحقيق التوبة.

وتحديد الصدقات بالذات على أنها إحدى وسائل التكفير عن الذنوب جميل؛ لأن فيها فوائد كثيرة فردية واجتماعية؛ فهي تطهير للنفس من الشح والأنانية والتعلق بالمال، وتطهير للأمة من الفقر والحسد «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فصيله» (الفلو: ولد الفرس والفصيل ولد الناقة)[١].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ فالإسلام دين عقيدة وعمل يصدقها. ومحك الصدق في التوبة هو العمل الظاهر.. ومن المؤسف أن حركات الإصلاح الديني - في الغرب - فصلت بين العقيدة والعمل وأعطت الأولوية لتغيير العقائد ولا أهمية للعمل بعد ذلك - وهي أفكار لوثر - وقد وجد في التيارات الإسلامية مثل هذا التصور. لكن التفكير السليم يقول: إننا نصحح الفكر لنصحح العمل؛ لأن جذور أعمالنا هي أفكارنا وتصوراتنا. والقرآن الكريم غالباً ما يقرن الإيمان بالعمل الصالح. لأن الحالة السوية الطبيعية أن الفكر ينتج عملاً.. والعمل هو الذي يغير الواقع. ويذكرهم الله أن الأمر لن ينتهي في الحياة الدنيا.. وإنما هناك موقف أهم من ذلك كله ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ

(١) رواه الشيخان.

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيداً على أهمية العمل.. ولا ننسى أهمية النوايا؛ فهما زوجان ضروريان للقبول.

واللافت للنظر في الآية ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أن الله يضيف رؤية المؤمنين إلى رؤيته ورؤية الرسول ﷺ! أما رؤية الرسول ﷺ فقد تكون خاصة بمعاصريه.. إلا إذا وردت تأويلات أخرى للأمر.. وأما رؤية المؤمنين فتحتاج إلى تأمل وإن كانت لا تقارن برؤية الله الذي يعلم السر وأخفى، وأما الناس فلا يرون إلا الظاهر.. ومع ذلك فإن النبي ﷺ يؤكد على أهمية رأي الناس ويقول «أنتم شهداء الله» لأن العمل يفضح الفكر.. «ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوى لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان» (رواه أحمد وأبو يعلى).. ولهذا ترى الصادقين يخفون بعض أعمال البر تقرباً إلى الله، لكنهم سرعان ما يشتهرون بها. وبعض المنافقين يخفون نفاقهم لكنهم يفتضحون ويعرفون.. فالآية دالة على أن رضى المؤمنين يلي في الأهمية رضى الله ولعله يبشر برضى الله. ولهذا قال ابن عباس: (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن) إلا في زمن الانحطاط والركود حيث ينظر إلى الاجتهاد على أنه مروق من الدين.

٤- ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أرجأهم أي أخرَّهم.

وبحسب رأي ابن جرير أن الآية في الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم مثل أبي لبابة.. فجعل الناس يقولون: هلكوا إذا لم ينزل لهم عذر.. حتى نزلت ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بالأسلوب الذي يربي به عباده وحكيم في وضع الآيات والأحكام في الوقت والمكان المناسبين. لكن الفئة الأخيرة هي الأخطر ولهذا يتحدث عنها بإسهاب فقد قامت بعمل خطير في الأمة.

٥- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تذكر التفاسير أن رجلاً من أهل المدينة يقال له (أبو عامر) كان قبل الإسلام قد اجتهد في الصلاح واطلع على النصرانية حتى عرف بـ (أبي عامر الراهب)؛ فلما قدم النبي ﷺ على المدينة دعاه إلى الإسلام فأبى.. وانطلق إلى مكة يحرض الناس على قتال النبي حتى خرجوا إلى أحد، وكان يمنّي المشركين بأن أهل المدينة يحبونه ولن يلبثوا أن ينحازوا إليه إن رأوه.. فلما ناداهم يوم أحد: أنا أبو عامر الراهب.. ردوا عليه: لا أنعم الله عليك يا فاسق.. وكان هو الذي حفر الحفر يومها فوقع النبي ﷺ في إحداها. ثم إنه انطلق إلى هرقل الروم ومكث عنده يحرضه على قتال المسلمين، وكانت له مراسلات مع منافقي المدينة حتى أوحى إليهم أن يتخذوا لهم مركزاً يرسل إليهم فيه.. فبنوا مسجد الضرار قريباً من مسجد قباء وجاؤوا إلى النبي طالبين منه أن يفتتح الصلاة فيه، وكان يتجهز للخروج إلى تبوك، فاعتذر بأنه على سفر.. فلما اقترب من المدينة عند عودته من تبوك جاءه جبريل فأخبره بحقيقة هؤلاء ومسجدهم فأرسل النبي ﷺ من هدم ذلك البناء(١). ولابد أن الأمر قد التبس على بعض ضعاف الإيمان وقد خفي عليهم مقصد المنافقين..

والآية هنا تعطف قصة هؤلاء على من أرجأ الله الحكم في أمرهم مما يدل على شيء من الارتباط.

وقد روي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف - وهم أصحاب مسجد قباء - عمر بن الخطاب في خلافته بأن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم فقال: (لا ولا نعمة عين.. أليس بإمام مسجد الضرار؟) فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي؛ فوالله

(١) صفحة ٤١ الجزء ١١ تفسير المنار - رشيد رضا

لقد صليت بهم والله يعلم إني لا أعلم ما أضمروا فيه؛ ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً. فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه[1]. نستوحي من الخبر مدى انخداع الناس بهم وشدة مكرهم.

فإن عدنا إلى الآية نجد أنها تحدد أربعة أغراض لهم قصدوها في هذا البناء:

١-﴿ضِرَارًا﴾ لمضارة المؤمنين؛ فمكانه قريب من مسجد قباء وفي ذلك مضارة لاجتماع المؤمنين في قباء.

٢-﴿وَكُفْرًا﴾ تقوية للكفر: كأن يمكنوا المنافقين من ترك الصلاة والتناجي بالكفر والشر بعيداً عن الأعين.

٣-﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن من مقاصد الاجتماع للصلاة التعارف والتآلف لجمع كلمة المؤمنين. وقد يؤدي الإكثار من بناء المساجد إلى تفريق الجماعة ولذا يستحب الاجتماع في الجمع والأعياد في مسجد كبير أو مصلّى. وبناء المساجد لا يكون قربة إلى الله إلا إذا احتاج المؤمنون إليه.

٤-﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي تهيئة مكان مرصود لمن يأتي محارباً للاجتماع والكيد.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي الخطة التي تفوق غيرها في الحسن.. وقد زعموا أنهم أرادوا الرفق وتيسير الصلاة على جماعة من الضعفاء والمصابين بعجز.. (والله يشهد إنهم لكاذبون) وهو أمر لا يقدر على التنبؤ به وإثباته إلا الله. وتستمر الحملة على المسجد وأصحابه:

---

(١) صفحة ٣٨ الجزء ١١ تفسير المنار - رشيد رضا

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ وفسر ابن عباس القيام هنا بالصلاة. «المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه» ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ تستحق منا التأمل.. الأساس والأركان هو التقوى.. كيف؟ أسس على الإخلاص لله وعلى البعد عما يغضبه وعن كل ما يسبب الأذى للمسلمين.

والإشارة في الآية غالباً إلى مسجد قباء، وقد ورد تكريم خاص لهذا المسجد في أحاديث من مثل قوله ﷺ «صلاة في مسجد قباء كعمرة»(١).

وفي روايات أخرى عن أحمد ومسلم أن النبي ﷺ قال عن هذه الآية «هو مسجدكم هذا» أي المسجد النبوي..

لكن الأمر عامٌّ في كل مسجد وفي كل بناء أو مشروع.. فلابد أن تكون الأهداف منها مرضاة الله.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ يصف المسجد بصفة أهله في مقابل أهل الضرار. والتطهير صيغة مبالغة تشمل النفس والبدن ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية.. كالمتخلفين الذين تطهروا بالتوبة والصدقات. ويظهر أثر حبه تعالى في المحبوبين من عباده في أخلاقهم وأعمالهم «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...».

وحين نتأمل الأحكام البسيطة التي تفرض على كل مسلم نجد أنه ليس على وجه الأرض دين أو منهاج يجعل الإنسان بنظافة المسلم الذي يغتسل ويطهر ثيابه ويتوضأ في اليوم ما لا يقل عن ثلاث مرات.

روي أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا؟» قالوا: نتوضأ

(١) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية وصححه.

للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال: «فهل مع ذلك غيره»؟ قالوا: إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال «هو ذاك فعليكموه» (رواه ابن ماجه) ولا ننسى حال العرب قبل الإسلام في هذه المسألة. كما لا ننسى ما هو عليه الآن العالم الإسلامي من بعد عن النظافة حتى صار مرتعاً للأمراض. وفي المقابل نجد الذين أصيبوا بالوسواس في الطهارة يعقدون الأمور على أنفسهم بينما الإسلام يسر.. يرفضون الرخص (كالتيمم) ولا يرون الدين إلا من خلال أبحاث الطهارة والنجاسة. لكن التطهر النفسي يمثل مقصداً هاماً في الدين يطلق عليه (التزكية) وتأتي كثير من الأوامر الإلهية لتحقيقه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠].

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.. إن الله يعلم أن محبته هي أكبر ما يطمح إليه المؤمن.. ولهذا يربط الأوامر بمحبته. وفي الحديث القدسي «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ»[١] وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحبَّ إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد» (قال الترمذي حسن، وقال عنه إنه من دعاء داود).

وإن الإنسان إذا أحب شخصاً بحث عن الأشياء التي يحبها المحبوب كي يحققها له فكيف بمن يحب الله؟ ولنا أن نتذوق حلاوة الإيمان والمحبة التي يُمتع بها من يترك أمراً طلباً لرضى الله.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فهل من مجال للمقارنةِ بين مسجدين أسسا على مقصدين متعاكسين تماماً..؟!

(١) رواه مالك في الموطأ.

والصورة المرسومة في الآية رائعة في بيان انهيار الأعمال التي تقام على هدف يعاكس سنن الله.

﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ حرف الوادي.. وهو جانب الوادي الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيصير آيلاً للسقوط.

وال ﴿هَارٍ﴾ الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط. وهذا التعبير يضرب مثلاً لما كان في منتهى الضعف.

نقف أمام الموضوع ونتأمل:

١-مقدار ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وضعف الباطل وزواله.

٢-وإن أوامر الله تحقق الاستقرار والثبات؛ فمن استقام عليها فقد تمسك بالعروة الوثقى واهتدى.. وأما من استمرأ النفاق والخيانة فلا أمل له في الاستمرار فهو الذي اختار الانقطاع ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣-يقول صاحب المنار عن الآية: (هذا يوافق علماء الكون أنه لا يتنازع شيئان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الأصلح منهما ويسمون هذه السنة الانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل).

٤-الآيات مرتبطة بموضوع المركزية في الحياة: أي ما هو هدفك الأساسي للحياة؟ وإن أحداث الحياة كلها تبرهن لك في النهاية أن كل شيء سراب إلا الله. تأمل في الزواج مثلاً: من يبني الأسرة على أساس التقوى ورضوان الله مقارنة بالأخرى التي بنيت على القيم الدنيوية.

فإذا انتقلنا إلى المستوى الاجتماعي نجد المجتمع الذي يبنى على الرفاهية ونعيم الدنيا كيف ينطبق عليه قول الله ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦/١٦] وقد ضرب الله لنا مثلاً ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن

رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥-١٧]. إن الناس يمكن أن يدمروا أنفسهم ويدمروا من حولهم إن لم تكن التقوى هي الأساس في أعمالهم. والدليل هو هذا الاستكبار العالمي الذي تمارسه أمريكة والذي بدأ يهدد كيانها وأمنها ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٥- وفي العالم الإسلامي أعمال كثيرة تشبه مسجد الضرار.. مثل رفع الشعارات الطنانة التي تخفي وراءها ظلماً كبيراً.. ألم يرفع صدام حسين شعار (الله أكبر) على علم العراق.. لكنه كان ينصب نفسه طاغية أوحد على بلده؟! ولقد تم تمزيق الوحدة العربية بدعوى الوطنية وتحقيق العدل. ويتقاتل السنة والشيعة في العراق الآن (٢٠٠٦) بدعوى نصرة الحق والدين..!! وبدعوى حفظ الأمن للبلاد حرمَ الناس من حرية المعارضة والتظاهر.

بل إن كثيراً من المساجد في عالمنا تشبه (مسجد الضرار).. لأن بعضهم يستغلها في الهجوم على الدعاة والعلماء المجددين وإثارة الفتن بين التيارات الإسلامية المتعددة بدلاً من إثراء الفكر الإسلامي بهذه التعددية في الاجتهاد والعمل. وبعضهم يكرسها لتعليم دين متشدد يضر بالأمة وشبابها. وبعضهم يكرس فيها الخرافة والدجل حتى يعجز الناس عن حل مشاكلهم وفهم ما يجري من حولهم وما عند الأمم الأخرى. هذا عدا المخلصين الذين ينفرون الشباب بأساليبهم في تعليم القرآن والتي أكل الدهر عليها وشرب.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

إنهم لسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله ورسوله على مقاصدهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٤] وهي حال القلق والخوف التي تلازم من أضمر شراً ..﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بالموت والهلاك. وقيل: إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم. والله عليم بحقيقة حالهم وحكيم فيما يأمر وبما يعاقب.

المقطع السادس الآيات [١١١-١١٩]

البيعة الإسلامية مع الله

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ
ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي
ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ
بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ
ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ
لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ
إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ
حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا
نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ
عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا
ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة:
٩/١١١-١١٩].

١- المؤمن باع نفسه وماله لله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾
بعد بيان حال المنافقين وأصناف المؤمنين المقصرين يتحدث الله عن الصادقين. ويا له من كرم وتلطف من الله بعباده المؤمنين أن يجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيّعان على المنافع المتبادلة؛ وهو عز وجل المالك لأنفسهم وأموالهم والغني عنا وعن أموالنا.. فما أحلى هذا الترغيب. يقول صاحب الظلال عن الآية: (إنه نص رهيب يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله.. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق) وما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة. وسلعة الله معروضة غالية.. إنها الجنة. ولقد قال الأنصار لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية: (اشترط لربك ولنفسك ما شئت) فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا (فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك) قال: «الجنة» قالوا: (ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل) [(١)].

﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ ضمن شروط القتال الإسلامي. ومعركة الحياة أكبر من ميدان قتال مسلح.. والمسلم يقاتل الشيطان ويقاوم جموح الشهوات والرغبة في الراحة والاسترخاء والمتعة و...

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ في كل الأديان السماوية. لكن الشائع بين الناس أن عيسى كان يطالب بالسلام والمحبة (أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم) فكيف نفهم الآية إذن؟

في الحقيقة إن عيسى لم يتجاوز في حياته المرحلة المكية. ولم يتمكن

(١) منقول بتصرف من البداية والنهاي ٣/ ١٦١ لابن كثير.

من إقامة مجتمع الرشد. وقد وردت عبارات في النصوص الحالية المتداولة للأناجيل تشير إلى المرحلة الثانية التي يحمل فيها السلاح بعد تكوين مجتمع الرشد.

(لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاماً على الأرض. ما جئت لأرسي سلاماً بل سيفاً) إنجيل متى الإصحاح ١٠، ٣٤.

وكذلك (ومن ليس عنده فليبع رادءَه ويشتر سيفاً) لوقا الإصحاح ٢٢- ٣٦

كما ورد فيها فيما يتعلق ببيع النفس والمال لله (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويرذل الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ((الفصل السادس / ٢٤/ متى).

(لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون. لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء.. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك) (السادس /٢٩-٢١/ متى).

(أعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلن يستحقني. من وجد نفسه يهلكها ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها) (العاشر /٣٧-٤٠/ متى).

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ وإن التاريخ ليشهد بأن وعود الله وتهديده قد تحققت لأن أحداث الحياة كلها تجري وفق سنن الله.. وهي إرادة الله التي جاءت الأوامر القرآنية متسقة ومتناغمة معها.

﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وإنما أطلق على الخبر السعيد (بشرى) لأن الفرح تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها. وهل في الحياة ما يفرح المؤمنَ أكثر من أن يبشر بالجنة؟!

يروى عن جعفر الصادق أنه قال: (ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها).

أقف عند الآية لأتأمل بعض النقاط الهامة:

١- تركز الآية - بعد أن عرضت الآيات السابقة الأنموذج السيّئ للحياة وهم أصحاب مسجد الضرار - على الأنموذج الإيماني وهو الذي باع نفسه وماله لله. وكل من يجب أن يدعى (مؤمناً) عليه أن يتأكد.. هل مركزيته لله؟

٢- عظمة فضل الله على المؤمنين في هذه البيعة؛ إذ يعرض علينا أن نبيعه ما يملك (أنفسنا وأموالنا) ويعطينا الجنة.

٣- مرة أخرى أقف عند القتال وهل هو المطلوب الآن من المؤمن للوصول إلى الجنة؟!

(١) لابد أن نذكر أولاً أنه يمكن أن يكون القتال سبباً لدخول النار «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[١] وهو قتال الفتنة والحروب الداخلية. وهو ما أشار إليه أحد الصحابه حين سئل عن تخلفه عن موقعتي الجَمل وصفين: (قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنتم تقاتلون لتكون فتنة).

(٢) لا قتال قبل إيجاد مجتمع الرشد.. لأنه لا يمكن أن يتحقق مجتمع الرشد باستعمال القوة والإكراه.. وإنما يثمر الأمر تخلصاً من مستكبر أجنبي إلى مستكبر عربي.. ومن طاغية عربي إلى حضن دولة مستعمرة. وكل التجارب من حولنا تؤكد ذلك.

---

(١) متفق عليه.

(٣) القتال ليس أمراً فردياً كإقامة الصلاة. وإنما هو أمر اجتماعي يستنفر له الحاكم وينظم شؤونه.

(٤) كان القتال ضرورياً في مراحل تاريخية سابقة لكنه الآن في طريقه إلى الزوال؛ وتبقى أساليب الكفاح الأخرى في سبيل الله أي لمنع الظلم وتحقيق العدل. ولابد أن نعترف بأنه لا يتقاتل الآن إلا الجهلاء المغفلون بتغرير من الخبثاء المستغلِّين.

(٥) تعرضت هذه الآية في تراثنا إلى الفهم الخاطئ؛ فقد أطلق الخوارج على أنفسهم لقب (الشُّراة)؟! لأنهم ظنوا أنهم طبقوا الآية وباعوا أنفسهم لله. والذي قتل علي بن أبي طالب - منهم - كان يصلي قيام تلك الليلة في المسجد ويقرأ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٧] ويقف ويكرر.. حتى ظنه الإمام علي نسي التتمة فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٧].. فما أفظع أن تعتقد أن من يخالفك في الرأي كافر مهدورُ الدم!! وذلك (إشكالية) نعاني منها وتتسبب في انفجار المشهد الدموي المروع في عالمنا؛ بل في العالم كله..

(٦) وأخيراً أقول: إن القتال وسيلة وليس غاية في حد ذاته؛ والوسائل تتغير حين يأتي ما هو أفضل منها.. كما حصل في تطور وسائل النقل ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ١٦/ ٨].. لكنها الآن لم تعد وسائل ناجحة للركوب.

٢- صفات أصحاب البيعة:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

يذكر ربنا في الآية سبعَ صفات، اثنتان منهما مزدوجتان: الراكعون الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

أ- التائبون: ما معنى التوبة؟ تاب مثل ثاب: أي عاد. فالتوبة في حقيقتها حركة فكرية وسلوكية من موقف خاطئ إلى صواب. فهي عودة إلى الله والحق، وهي حركة تطور دائم؛ إذ يكشف الإنسان باستمرار فهماً أفضل وسلوكاً أكثر جدوى للوصول إلى أهدافه. ولقد قال القدماء (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) لأنه مجرد كلام بينما التوبة حال تعيشها النفس وليست مجرد مقال. والتوبة ثمرة للسواء النفسي ابتداء لأنه لا يقدر على التوبة إلا من تقبل نفسه على أنه إنسان معرض للخطأ ومن لا يبصر خطأه كيف يتوب؟ وهي ثمرة لنمو المعرفة ثانياً ولن يترك الإنسان سلوكاً فاشلاً إلا إذا اكتشف أُسلوبا أنجح وأفضل.

ولذا أقول: إن التوبة هي جوهر التغيير النفسي ومن ثم الاجتماعي ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١٣/١١] كأن نتوب من أُسلوب المطالبة بالحقوق وندخل في أُسلوب أداء الواجبات. أو أن نتوب من مفهوم (إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب).. أو أن نتوب من (الآبائية) لنبتكر أساليب أفضل في الفهم والتعامل.

٢- العابدون: نتذكر هنا ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦].

ونلاحظ هنا ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ مفردها (عابد) من (العبادة).. بينما (العبيد) مفردها (عبد) من (العبودية) فمما لا شك فيه أن في العلاقة مع الله مطلوب منا الأمران، لكن مقام (العابد) أكرم من مقام (العبد) وكأن العابد يتوجه إلى الله بمحض إرادته فيطيعه ويؤدي العبادات له.. وفي القرآن نجد هذا التكريم للمؤمنين (عباد الرحمن). وللعبادات الإسلامية أثر كبير في

تزكية الفرد وتطهير المجتمع، وهي تقوم بشحن المؤمن بالإخلاص فلا يفتر حماسه في طلب العلم والعمل به باستمرار «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره وكثرةُ الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط... فذلكم الرباط» (١).

٣- الحامدون: ومهما أصيب المؤمن في الدنيا فإنه يبقى له في حياته من النعم ما يملؤ النفس امتناناً وحمداً لله.. لو انتبه إليها.. إن لطف الله وعطاءه عظيمان. أتذكر هنا عروة بن الزبير كيف قطعت يده من مرض أصابها.. ثم أُخبر أن فرساً رمحت أحد أبنائه فقتلته. فقال: الحمد لله.. لئن أخذت عضواً لقد تركت أعضاء، ولئن أخذت ابناً لقد تركت أبناء.. إن هذه الصفة تتعاكس مع التشاؤم والإحباط.. لأنها القدرة على رؤية نصف الكأس الملآن ..﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤].

٤- ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: وفيها آراء عديدة.. منهم من قال: هم المهاجرون.. ومنهم من قال: المجاهدون. ومن قائل: هم المتنقلون في طلب العلم. ويميل صاحب الظلال إلى أنهم المتفكرون في خلق الله وسننه.

وفي المنار يقول: هم السائحون في الأرض يجوبون الأقطار لغرض صحيح من علم أو عمل للنظر في خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار تطبيقاً لأمر الله ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٩] أي تأملوا كيف بدأ الخلق، كيف تأتي عواقب الأفكار والأعمال في الأمم.. أما قولهم (السائحون الصائمون) فلا يصح رفعه إلى النبي ﷺ. ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن القرآن قد مدح المؤمنات في سورة

(١) رواه مسلم.

التحريم بأنهن ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٥] وقد حاول المفسرون أن يؤوِّلوا الكلمة بشكل يتنصلون به من المعنى الأساسي فقالوا: هن الصائمات أو المتفكرات في خلق الله.. وهي محاولات لتبرير حبس المرأة في البيت.. ونفي إمكانية (السياحة) لها. بينما القرآن يسوي بين الجنسين في الواجبات الدينية والأوصاف الإيمانية.

٥- ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾: فقد صارت هيئات الصلاة سمة من سماتهم لشدة حرصهم عليها.. ولهذا يرى أثر السجود في جباههم. ويحشرون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء وعلى وجوههم آثار السجود. وقد وصف الله محمداً وأصحابه في سورة الفتح ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩].

٦- ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: وهنا تنتقل الصفات إلى الإيجابية مع المجتمع.. بينما كانت الصفات السابقة تحقق بناء الذات التي تتمتع بالأمن والصحة النفسية.. وبحسب ما يقول ستيفن كوفي في (العادات السبع) إن العادات الثلاث الأولى (كن مبادراً - ابدأ والمنال في ذهنك - ابدأ من الأهم ثم المهم) تحقق للإنسان النصر الشخصي.. وبعدها تبدأ العادات التي تحقق التكاتف مع الناس.

وفي مجتمع لا يحكم بشرع الله ينبغي أن نبدأ من المنكر الأكبر الذي هو الشرك (الخلل في الأولويات).. إذ لا يمكن تصحيح المسار أو بعض التفصيلات على الطريق ما لم يكن الهدف من الحياة صحيحاً ومتفقاً عليه.

وموضوع الأمر والنهي حساس ومهم في صيانة الأمة من التهالك في دروب الانحطاط.. لكنه قد ينقلب من عمل إيجابي يحقق الصيانة إلى صفة

سلبية تمزق أوصال الأمة إن افتقر إلى العلم والفنية.. فيتحول إلى نقد لاذع يزرع النفور ويغذي البغضاء. ولعل تأمل العادات الرابعة والخامسة عند (كوفي) تلقي بعض الأضواء الكاشفة والمفيدة في هذا المجال: ٤- فكر بأُسلوب نربح معاً. ٥- استمع وافهم الآخر أولاً كي يفهمك. ٦- التكاتف والتعاون. فإذا تأملنا هذه الخطوات الثلاث في مجال (الأمر والنهي) وجدنا أنه يجب أن تتأكد من نفسك أولاً أنك لا تريد الانتقاص من الآخر أو إهانته وإنما تريد أن يربح الجميع.. وعندها عليك أن تسمع وجهة نظر الآخر وتفهم موقفه وظروفه وكأنك في مكانه.. ثم انقل وجهة نظرك للآخر بالحوار المحترم.

ثم قدم المساعدة على التغيير واستفد أيضاً من ميزات الآخر وعندها يتحقق التكاتف (وهو النصر الجماعي)؛ إننا مطالبون بالتغيير (من رأى منكم منكراً فليغيره) على أن نتعلم كيف نغير.. فنبدأ من أنفسنا (وعندها نصبح قدوة مؤثرة في الآخرين) ثم نتقن التواصل مع الناس بأن نمنح الحب الصادق والرغبة في الخير للآخر؛ ثم نحسن الاستماع والفهم ثم نستخدم قدرتنا في الإقناع ثمَّ في التعاون على التغيير.

وإننا ندرك الآن أن أبحاث تطوير الشخصية ودورات التنمية البشرية كلها تنطلق من قانون التغيير الذي نص عليه القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١٣/١١].. ولا بد من أن ننكب على مثل هذه الأبحاث إن كنا حريصين على الارتقاء بالنفس وبالأمة كي نتصف بأوصاف المؤمنين ونحظى برضى الله. يقول مسلم تسابحجي في إحدى مقالاته في مجلة (تواصل): (حتى توصل شخصاً إليك، عليك أن تبدأ من حيث هو لا من حيث أنت).. أي أن تعرف أين يقف وماذا يريد وما يعاني من مشاكل.

ومن الضروري أن نتأمل الأخطاء التي حدثت في التاريخ في هذا المجال.. فالمحاولات العنيفة في التصحيح (من مثل ما فعله الخوارج) أدت إلى نزيف مستمر في جسد الأمة.. مما جعل العلماء في تاريخنا يُحرِّمون الخروج على الحاكم.. لكنهم لم يؤكدوا في المقابل على الجهر بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١/١٢] الذين يستخرجون القانون من الأحداث. ومن المؤسف أن المؤرخين غير المسلمين الآن هم أولو الأبصار الذين يرون العبر.. فلقد تحدث ويلز عن فشل الثورات العنيفة في التغيير (ليس في مستطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أي شيء ثابت لم يقتل تفكيراً قبل ذلك ولم يفهمه العقل العام.. والمحافظة في الثبات على القانون وعلى خطة مرسومة أشد ضرورة في أزمان الثورات منها في أيام الهدوء العادية؛ لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بغاية السرعة في أزمنة الثورات إلى مجرد تخاطف تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرة المحتالين[(١)]) وإننا لنجد في أحداث التاريخ دائماً الأخطاء الثلاثة التي ذكرها ابن تيمية: تخطئ جماعة وتبدأ بخرق سفينة الأمة - فتسكت عنها طائفة (ويكون هذا من ذنوبهم) وتنكر طائفة إنكاراً منهياً عنه (بالعنف). إن التغيير بالقوة سهل ويعطي نتائج سريعة لكنها سطحية شكلية لا جذور لها.. بل قد تعطي ردود فعل عكسية على المدى البعيد. أما التغيير الفعلي فيحتاج -على الأقل- إلى صفات ثلاث: القدوة- الحب- القدرة على الإقناع. ولا بد من بناء الذات على التحرر من الإكراه أولاً فلا تخضع لأحد ولا تحاول إخضاع أحد بل تتحمل نتيجة ذلك وهو طريق الأنبياء ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١٩/٩٦]. ولا فائدة من الإلزام إن لم يتحول إلى التزام.

---

(١) راجع الجزء الرابع من معلم تاريخ الإنسانية في تعليقاته على الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية في روسية.

٧- ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾: وهو وصف جامع للتكاليف عامة وللمنهيات خاصة. والعبارة جميلة.. إنها تشبه دين الله بالأرض المحاطة بحدود لحمايتها وصيانتها من العبث ودخول الفساد إليها. وهي بحاجة إلى جهود المؤمنين ليقوموا بحراسة هذه الحدود ولا يسمحوا بخرقها حتى لا تستباح الأرض ويفقد العيش الآمن الرغيد فيها. وننتبه إلى الخطاب القرآني الذي يحدد إجراءين ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩] أي يمكنك أن تتحرك بحرية ضمن المساحة المحدودة شريطة ألّا تخرج منها و ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ٢/١٨٧] لأن مجرد الاقتراب يوقعك تحت جذب التيار. مثلاً عند الحديث عن الطلاق والمخالعة يقول تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩] بعضهم يحرم على المرأة أن تطلب الفراق من زوجها (وأنها لن ترح رائحة الجنة) لكن الآية هنا تقول إن المخالعة هي للحفاظ على حدود الله والطلاق والخلع هما داخل المساحة المسموحة وليست خروجاً على الحدود. بينما يتحدث الله عن العلاقة الزوجية أثناء الاعتكاف ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ٢/١٨٧] لأن الاقتراب في مجال الشهوات خطير.

وبعد عرض هذه الصفات السبع يقول ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا يحدد بأي شيء يبشر المؤمنين مما يجعل البشارة عامة بأجر الدنيا والآخرة والفلاح فيهما معاً. صحيح أن تحقيق هذه الصفات متعب ويحتاج إلى جهد ودأب وصبر.. لكن النتائج ستكون عظيمة ووفيرة.. فبشرهم بذلك لتشد من أزرهم وتستنفر طاقاتهم.

٣- النهي عن الاستغفار للمشركين

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ويأتي النفي هنا بمعنى النهي وهو أبلغ. فليس من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم. وإن من يعلن كفره لا يجوز الاستغفار له. لكن عليكم الدعاء له بالهداية .﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ ولما قال نوح عن ابنه ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ١١/٤٥] قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ١١/٤٦].. والحكم هنا يقدم برهاناً على صدق (مركزية الإيمان) عند المؤمن .﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ متى يحدث ذلك؟ عندما يموتون على الكفر والمعصية.

وهنا نسجل فكرة هامة، إذا كان الناس يتجمعون على القرابة والعصبية فإن المؤمنين يتجمعون على العقيدة و الفكرة وهي أرقى أنواع الروابط.. وأفضل الصلات بين الناس هي الأخوة في الله.. وفيها تحدث أرقى المعاملات الإنسانية وهي ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٥٩/٩] الإيثار.

يذكر أن الحجاج الطاغية كان يلاحق العالم سعيد بن المسيب. فلما دخل الحارس لاعتقاله من مجلسه.. انبرى كل واحد في المجلس يقول: (أنا سعيد) .

وتذكر في التفاسير قصة وفاة أبي طالب وكيف صده رؤساء قريش عن كلمة التوحيد فقال ﷺ: «والله لأستغفرن لكَ ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ وأنزل مخاطباً رسول الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] وَرَدَ هذا الخبر عند البخاري ومسلم، لكن هل هذا هو سبب نزول الآيات؟ فالسورة مدنية بينما وفاة أبي طالب كانت في مكة.

وثبت أن النبي أتى قبر أمه فبكى.. فسئل عن ذلك فقال «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ » (أخرجه الحاكم عن ابن مسعود).

وتعددت الروايات في استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولي قرباهم من المشركين تأسياً به ﷺ حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا عن ذلك.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وذلك عندما طرده أبوه فقال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٧] قال ابن عباس: (لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فعندها تبين أنه عدو لله) ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ الأواه: الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله. (وهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل) والحليم: من لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش. ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني واتقاء العجلة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ أي ما يتركونه ويبتعدون عنه. وهنا يطمئن الله النبي والمؤمنين إلى عدم مؤاخذته لهم عن إستغفارهم السابق لذويهم؛ أما الآن فقد نزل النهي ولا بد من الالتزام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

كان عبد الله بن مسعود يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول: (فمن استطاع منكم أن يغدو عالماً أو متعلماً فليفعل ولا يغد لسوى ذلك؛ فإن العالم والمتعلم شريكان في الخير. أيها الناس إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ فقد بين لكم ما تتقون). (أخرجه ابن المنذر). ويعقب الله على كل ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لا تحزن من كفر الأقرباء.. ولا تيأس من موتهم على ذلك ولا تظنن أنك قد فقدت أولياءك بموتهم فالله هو الولي النصير ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويمكن أن نعمم: لا تيأس حين ترى الموت النفسي في الأمة.. ولكن حاول أن تعمل على إحيائها. ولا تنس ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧/٥٧] فالبذور تكون موجودة في باطنها وإن خفيت علينا.. فإن قام الإنسان بسنن الزراعة فإن النبتة الضعيفة الغصن تشق الأرض و تخرج للنور رغم الرياح والأعاصير.

٤- توبة الله على النبي والمؤمنين والذين خلفوا:

الآيات تتابع في موضوع التوبة ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ يمكن أن تكون الآية مرتبطة بما قبلها.. فقد تاب عليه من الاستغفار لمن لا يستحق.

ويمكن أن تكون إشارة إلى عفوه جل وعلا عن النبي حين أذن للخوالف الذين اعتذروا عن عدم خروجهم ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ وهو رأي ابن عباس.

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ العسرة: الشدة والضيق. قال جابر بن عبد الله: عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء .﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أولئك الذين تثاقلوا

عن الخروج من غير نفاق في قلوبهم وإنما ترددوا في الخروج.. ثم ثبت الله قلوبهم. وخبر أبي خيثمة معروف في السيرة.. إذ تأخر عن النبي في الخروج إلى تبوك. فعاد يوماً إلى بستانه فوجد زوجتيه.. كل واحدة قد أعدت له متكئاً وأبردت له من الماء والفاكهة. فقال: رسول الله في الحر وأنا في هذا النعيم.. والله ما هذا بالنصف.. جهزوا لي راحلتي، فانطلق حتى أدرك النبي ﷺ في الطريق.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: العناية بالضعيف والعطف عليه. و الرحمة أعم وتشمل الكل.

ثم يعطف على تلك التوبة توبته على الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. والخبر يرويه كعب بن مالك فيقول: (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في تبوك حين طابت الثمار والظلال وتجهز ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد.. وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت.. فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروجه ﷺ فطفت بهم أحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء. فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه (أي في الكذب) فأجمعت صدقه.. وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم يجلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له. وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، فجئته؛ فلما سلمت عليه تبسم تبسم

المغضب ثم قال تعال. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال ﷺ: «أمَّا هذا فصدق فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما كنا علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون؟ فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى كدت أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم... فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت.... ونهى رسول الله عن كلامنا من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما ردَّ علي السلام.. ففاضت عيناي وتوليت.. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام - من التجار - يقول من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً

من ملك غسان -وكنت كاتباً- فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسِكَ، فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إنه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها؟ قال: لا، بل اعتزلها.. وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك.. فقالت امرأة هلال لرسول الله ﷺ: إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك. قالت: والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك. فقلت: لا أستأذن وأنا رجل شاب.. فكمل خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. ثم صليت صلاة الفجر، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت.. سمعت صوت صارخ ينادي بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا...

وركض رجل إلي فرساً.. وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني التوبة. حتى دخلت المسجد. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله

فقال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت: أمسك سهمي بخيبر.. يا رسول الله؛ إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت... والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فقال عنهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾. (الحديث مروي عند أحمد والبخاري ومسلم).

تعليقات على الخبر: لا بد من وقفة متأنية أمام هذا الحادث والأسلوب النبوي الفريد في علاج الضعف الإيماني الذي أصاب هؤلاء.. وكيف استطاع أن ينتشلهم من سقطتهم ويرفعهم إلى الأعلى من جديد.

١-لم يكن هؤلاء الثلاثة من المنافقين بدليل قول كعب: (لم أتخلف عن غزوة غزاها قط إلا في تبوك غير أني تخلفت في بدر.. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام) ثم بدليل اعترافه الصادق بالتقصير. إذن: فالمؤمن يمكن أن يصاب بالاسترخاء والتقصير.. ولا بد من علاج هذه الحالات؛ كل حالة بما يناسبها.. وعلاج النبي كان شديداً لأن الحالة كانت في مجتمع مسلم.

٢-يقول كعب: (والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ.. فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى مالم ينزل فيه وحي من الله) في تلك المرحلة كان ضمير المسلم هو صاحبَ السلطان وتلك ميزة مرحلة الصعود في الخط البياني للحضارة.. حتى صار كعب حين يخرج لا يرى في طرق المدينة إلا المنافقين.

٣-ويقول: (وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إن أردت).

نرى بوضوح كيف أن الاستمهال يمكن أن يعوق أي إنجاز. وأن التأجيل يسبب التراخي ويعطل العمل. التأجيل يراكم الأمور ويجعلها

صعبة التحقيق. وأعظم إنجاز هو القيام بالواجبات اليومية والمداومة عليها، تلك التي تصنف في مساحة الأعمال الهامة لكنها غير عاجلة. قرأت مرة تعريفاً للنجاح (هو أن تغلق باب مكتبك في نهاية يوم العمل وعلامات الرضى والسعادة تعلو وجهك لأنك أتقنت عملك الذي يفيد كل من حولك).

٤-كان النبي ﷺ يسأل أثناء الغزوة: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجل من بني سلمةِ (حبسه برداه والنظر في عِطْفَيه) فقال له معاذ بن جبل: (بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً) فسكت رسول الله ﷺ.

نستنتج من ذلك: اهتمام الرسول ﷺ بأصحابه حين يسأل عنهم.. ولا يتسرع في الطعن. أما المؤمنون فهم نوعان؛ نوع يتسرع بالإدانة.. والثاني ينتحل الأعذار لأخيه.

٥-جاء المعذرون إلى النبي وجعلوا يحلفون له ويعتذرون (وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله) هذه سياسة النبي ﷺ مع المنافقين: يقبل منهم علانيتهم ويترك سرائرهم إلى الله. وهو درس لنا بألا نأخذ الناس بالظنون.. ربهم أعلم بهم وهو من يحاسبهم. بل إنه ﷺ استغفر لهم وذلك من رحمته بالناس وحبه لهدايتهم.

٦-أُسلوب مقابلة النبي لكعب (تبسَّم تبسم المغضب ثم قال لي: تعال «ما خلفك» إنه لا يتسرع في التوبيخ، بل يستمع لحجة المتهم وأعذاره.

٧-نُعجب بيقين كعب بأنه لن ينجو بالكذب مع أنه يعترف بأنه (أعطي جدلاً) يمكِّنُهُ من انتحال الأعذار وقد وصف الله الإنسان ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٤] يدافع عن نفسه وينتحل الأعذار.. لكن بهذا يكذب على نفسه ويضللها ويحرمها من الاعتراف والتوبة والتصحيح.

٨-قول النبي ﷺ «أما هذا فقد صدق» يكشف عن معرفة النبي ﷺ بكذب المنافقين.

٩-نجد في الخبر كيف أن أهل كعب وعشيرته كانوا يحاولون الضغط عليه كي يرجع ويعتذر ويكذب.. ويقدمون له حجة تستحق التفكير (لقد كان يكفيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ) حتى إنه همَّ أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيكذب نفسه..! مما يكشف عن مدى تأثير الأهل والناس على الإنسان وخاصة في الإغراء بالمخالفة. وعلينا أن نحذر (نصحهم) لأنهم يؤثرون النجاة العاجلة على ما هو خير وأبقى.

١٠-ما الذي ثبَّت كعباً على صدقه؟ سأل: هل لقي هذا معي أحد؟ فذكروا له رجلين صالحين قد (شهدا بدراً، لي فيهما أسوة). هنا نتبين أهمية ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٥] فمن المهم أن يجد الإنسان من يتفق معه ويؤازره. وما أعظم تأثير القدوة في الثبات على الحق.

١١-وكانت العقوبة من النبي ﷺ سابقة تاريخية لم يحدث مثلها قبل ذلك.. المقاطعة من المسلمين ثمَّ مع الزوجات. فهي:

أ- عقوبة من جنس العمل: حذفتم أنفسكم من الجهاد معنا وأداء الواجب ونحن نحذفكم من التواصل الاجتماعي.. لقد اخترتم الاعتزال فعيشوا مرارته.

٢- عقوبة نفسية لا تطال المال والجسد وإنما تؤلم النفس وتجلو عنها وهم الفردية والأنانية حتى تستيقن ألّا غنى لها عن إخوانها في الدين وأن عليها أن تلتحم معهم وتشاركهم همهم وجهادهم.

٣- مثل هذه العقوبة لا تصلح مع كل الناس ولا في كل الظروف وإنما مع النخبة.

١٢-وكانت استجابة المسلمين لأمر النبي عجيبة في دقتها.. (فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لي في نفسي الأرض) حتى إن كعباً يأتي ابن عمه وأحب الناس إليه فيسأله ويستحلفه - ثلاث مرات - (هل تعلمني أحب الله ورسوله؟) فقال (الله ورسوله أعلم) فينقلب باكياً.. حتى إن بعض الباحثين سمَّى هذا الحكم (الزنزانة المتنقلة) لأن الأرض ضاقت عليهم بما رحبت.

١٣-نتأمل قول كعب حين كان يصلي قرب النبي ﷺ في المسجد (فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني) فكأنه كان يقول له: (أحبك ولو عاقبتك.. أنا قلق عليك لكنني أريد طهارتك وتوبتك) وهو أمر هام جداً في التربية: ألا يخلو إيقاع العقوبة من الإشعار بالحب.. وحذار من مشاعر الكره والانتقام.. فإنه يقطع التواصل ويستثير العناد.. ويشعر المذنب بالظلم.. وهو خراب للنفوس.

١٤-إدراك كعب - حين تأتيه رسالة فيها دعوة من ملك غسان أن يأتيه ويقيم عنده معززاً مكرماً.. أنه امتحان من الله فيرمي الرسالة في النار.. فهو مصمم على الانتماء إلى المجتمع المؤمن.. إنه يعرف ما يريد.. وقد حدد أولوياته وأدرك طريقه إلى الله ورضي بالعقوبة ليتطهر.

١٥-كذلك نستنتج من ذلك: سرعة المنافقين في نقل الأخبار إلى العدو المتاخم (ملك غسان) - ومن المعروف أن الرحلة إلى الشام كانت تستغرق قريباً من شهر - فالفتن كانت قوية ومحبوكة وتستخدم لها أسرع ما يمكن من وسائل. لكن الشخصية المؤمنة كانت متينة البناء.

١٦-ونجد صدق المحبة في نساء هؤلاء الثلاثة.. فهن ملتزمات بأمر النبي ﷺ لكنهن راحمات لأزواجهن.

١٧-لكن كعباً يأبى عليه ضميره أن يتمتع بهذه الرخصة طالما أنه شاب قادر على خدمة نفسه..

١٨-وتأتي لحظة الفرج بعد أن وصلت المعاناة إلى القمة. ونجد فرحة المسلمين بتوبة الله على أخيهم لا تقل عن فرحته. فأحدهم يركض بفرسه ليبشره.. والثاني يقف على تل وينادي بالبشرى بأعلى صوته. وكعب يخلع ثوبيه ويهديهما لمن بشره - وهو لا يملك سواهما عندها - والناس في الطريق كلهم يسلمون ويهنئون.. ذلك هو الجسد الواحد المتماسك.. ورسول الله يبرق وجهه من السرور.

١٩-فرحة كعب بالتوبة.. خر ساجداً عندما سمع المنادي ووهبه ثوبيه.. ثم ينوي أن يتصدق بماله كله فيأمره النبي ﷺ بأن يمسك منه ما يكفيه نفقته؛ فالإسلام دين واقعي لا يريد للإنسان أن يكون فقيراً ولا ذليلاً. ومن المفيد أن نتساءل: ما الذي يفرحنا نحن أو يحزننا؟ وهل نفرح برضى الله كفرحة كعب؟! ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ١٠/٥٨] إنها الأولويات التي تؤكد صحة التوجه.

٢٠-يقول كعب: (فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني) فكان كعب لا ينساها له.. من أسباب القدرة على التأثير في الناس: القدرة على المشاركة الوجدانية لهم (الذكاء العاطفي).

٢١-يلخص كعب لنا تجربته: (إنما أنجاني الله بالصدق) فالنجاة في الصدق. والأخلاق هي طريق النجاح في الحياة.. وهو ما تتحدث عنه الأبحاث المعاصرة في مجال تطوير الشخصية.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال كعب: وكنا خُلِّفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ فهو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له (أحمد والبخاري ومسلم).

﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

نلاحظ تكرار موضوع التوبة في الآية: تاب (ماضي) يتوبوا (حاضر ومستمر) التواب (صيغة مبالغة من اسم الفاعل) فالتوبة عنصر أساسي في حياة المؤمن وهي طريق الارتقاء.

ولن أدع الغزوة قبل أن أعرض بعض اللقطات الوضيئة التي ذكرت في السيرة:

خرج علية بن زيد - أحد البكائين - من الليل فصلى من ليلته ما شاء ثم بكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس فقال رسول الله ﷺ «أين المتصدق هذه الليلة؟» فلم يقم أحد. ثم قال: «أين المتصدق؟ فليقم» فقام إليه فأخبره فقال ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت لك في الزكاة المتقبلة» (ابن إسحاق) خبر عجيب لكنه مليء بالإيجابية.. فمهما كانت ظروفك صعبة ومواردك قليلة فإن بإمكانك أن تقدم شيئاً نافعاً.

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه وقد قارب عددهم ثلاثين ألفاً من أهل المدينة ومن قبائل الأعراب من حولها. وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية من غير شك ولا ارتياب منهم: كعب بن مالك ومرارة وهلال.. وأبو خيثمة وعمير بن وهب الجمحي.. وتخلف عبد الله بن أبي مع طائفة من المنافقين.. ثم مضى رسول الله سائراً فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم» وتلوَّمَ أبو ذر على بعيره - أي انتظر عليه - فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً. ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال ﷺ: «كن أبا

ذر» فلما تأمله القوم قالوا: هو والله أبو ذر فقال ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» (ابن إسحاق).

وقد خرج نفر من المنافقين مع النبي وحاولوا الإرجاف وزعزعة الصفوف وهموا بالفتك بالنبي فحماه الله منهم.

ويتحدث عبد الله بن مسعود: (قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وإذ هو يقول: «أدنيا أخاكما» فدلياه إليه فلما هيأه لشقه قال: «اللهم قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه» يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. قال ابن هشام: إنما سمي ذا البجادين لأنه كان يريد الإسلام فمنعه قومه وضيقوا عليه حتى خرج من بينهم وليس عليه إلا بجاد - وهو الكساء الغليظ - فشقه باثنين فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى ثم أتى رسول الله ﷺ فسمي ذا البجادين. هذا رجل فارق قومه وتحدى العقبات حتى التحق برسول الله ﷺ مجاهداً، تدركه منيته فيقوم رسول الله ﷺ وصاحباه على تجهيزه وحفر قبر له. فتأمل رسول الله ﷺ في جوف الليل وقد نزل الحفرة يتلقى جثمان الرجل بيديه الشريفتين ويضجعه على شقه ثم يدعو الله له «اللهم إني راض عنه فارض عنه» فأي شيء أعظم من هذا؟! يرحمك الله يا ابن مسعود.. كلنا نتمنى أن نقول كما قلت: يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة.. بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أعظم رعايتك لأصحابك.. كلهم يكفونك هذا العمل لكنك تتولى القيام به بنفسك إكراماً وتعليماً.. فهل تجدون مثل هذا المعلم؟!) (١).

(١) صفحة ٦٢٢ من كتاب هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي - حنان اللحام.

في هذه الأخبار نرى أن:

١- مستوى الطاعة عند المؤمنين كان عالياً جداً.

٢- مستوى التقوى عند الذين تخلفوا من المؤمنين كان عالياً.

٣- الصدق ركن أساسي من أركان التقوى والآية تربط بينهما. وهو ما نلاحظه في الآية التالية:

٥- دعوة إلى الصدق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ فما هي التقوى؟ قال علي بن أبي طالب: هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل و القناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل. ويقول أبو يزيد البسطامي (من أئمة المتصوفة): هي التورع عن كل ما فيه شبهة. والمتقي هو من إذا قال.. قال لله وإذا عمل عمل لله. وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر.

ويقول ابن مسعود عن ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٢] أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

وعن أنس: لا يتقي المرءُ الله حق تقاته حتى يخزن لسانه.

وعن ابن عباس: أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. (هذه التعريفات منتقاة من كتاب: التقوى لصلاح الدين مارديني).

يحضرني الآن في مجال محاسبة النفس ما ذكره مسلَّم تسابحجي في محاضرة له:[١]

(١) بتاريخ ٣/ ٩/ ٢٠٠٥ في المستشارية الإيرانية.

(حدث أنَّ ابناً أوصل أباه بالسيارةِ إلى موعدِهِ، وذهب على أن يصلح السيارة ثمَّ يعودَ إلى أبيه، فلما وصل إلى المصلح سأله: كم يحتاج الإصلاح من وقت؟ فأجاب: ساعتين.. ذهب الابن لبعض شأنه وغفلَ عن موعده مع أبيه.. ولمّا عادَ مُحْرَجاً بعد أربع ساعات وجد أباه على غاية من القلق...! سأله أبوه: لماذا تأخرت؟ قال الابن: المصلح تأخر في إصلاح السيارة. سكت الأب وأطرق قائلاً: لكنني اتصلت بالمصلح منذ ساعتين وقال: إن السيارة جاهزة!! توقف مسلَّم عن إكمال القصة وتساءل: لو كنت في مكان الأب ماذا تفعل؟ ثم تابع بعد أن سمع بعض الأجوبة: أمّا الأب فقال لابنه: إنني متألم جداً من نفسي يا ولدي؛ فلا بد أنني أخطأت معك كثيراً حتى اضطررتَ للكذب علي.. وسأعاقب نفسي بأن أعود ماشياً إلى البيت لأعطي نفسي الفرصة لاكتشاف مواضع الخطأ، واذهب أنت بالسيارة.

أعود إلى التقوى لأنها وصية الله تعالى لجميع خلقه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٣١] وهي خير الزاد ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧] وهي المقياس الذي وضعه الله تعالى ليزن به البشر ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]. عن أبي هريرة قال ﷺ «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا إني جعلتُ نسباً وجعلتم نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم

فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان. فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم. أين المتقون؟» (رواه البيهقي).

وتأتي آية البر في سورة البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧] لتحدد صفات معينة تعقب عليها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

فكأن الآية تشرح كيف يكون المرءُ صادقاً ومن المتقين تنفيذاً لآية التوبة هنا. وحين نستقصي الآيات التي تتحدث عن المتقين في القرآن نجد فيها عشرين صفة: ست منها تتعلق بالإيمان؛ وأربع منها تتعلق بإقامة الفرائض و أدائها؛ وعشرٌ باقيةٌ صفات سلوكية أخلاقية. وهي مرتبة عالية؛ لكن الأعلى منها هو (الإحسان) وميزات التقوى عظيمة منصوص عليها في القرآن الكريم: فهي سبب حب الله ومعيته وولايته وتعليمه. وهي التي تفتح البركات من السماء على أصحابها وهي التي تحفظ من الشيطان وهي التي تكفر السيئات. وهي التي تضمن العاقبة. والصداقة فيها هي الرابحة، وهي المخرج من الضيق، وبها يأتي الرزق ويتيسر الأمر، وهي سبب قبول العمل. ولهذا تكررت أحاديث طلب النبي فيها أن يرزقه الله التقوى.. من أجملها «اللهم أغنني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجمِّلْني بالعافية».

من كل ذلك نستنتج أن التقوى هي شفافية في القلب ومعرفة لسنن الله في العقل، وعمل بذلك في الجوارح.

المقطع السابع الآيات [١٢٠إلى ١٢٩]

أهل المدينة وواجبهم

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ
ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا
نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ
وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
(١٢١) ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ
مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣) وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ
رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ
عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ
صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ
أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ
وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٠-١٢٩].

١- واجب أهل المدينة ومن حولهم تجاه هذه الدعوة:

والآيات هنا فيها عتاب ينضح بالتكريم.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾

أما أهل المدينة فهم الذين تبنوا هذه الدعوة وبايعوا الرسول وكانوا القاعدة الصلبة لهذا الدين في الجزيرة العربية كلها. وقد ألحق بهم القبائل الضاربة حول المدينة من مثل مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار. وفي هذا التكريم لهم تأكيد على حسن ولائهم و إحاطة المدينة بسور بشري راسخ لتمكين دعائم المجتمع المؤمن في وجه الأخطار.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ رغب بالشيء أحبه.. ورغب عنه كرهه. وقد جمعت الآية بينهما بإيجاز بليغ.. فالمتخلف يؤثر نفسه على نفس النبي ولا يكمل إيمان مؤمن حتى يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه.

يقول صاحب المنار بأن الآية تنسحب على كل راغب عن سنته وعن التأسي به في كل عصر. «من رغب عن سنتي فليس مني» وهذا حال أهل البدع والتقليد الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنة النبي ﷺ.

وفي الظلال يقول: (ما كان المؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله ﷺ في سبيل هذه الدعوة.. وهو يزعم أنه صاحب دعوة يتأسى فيها بالنبي ﷺ).

ويأتي التكريم والتثبيت أكثر فأكثر.. إذ يعدهم بالأجر العظيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي مجاعة لقلة الزاد ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ إذا كان هذا في الماضي يتم بالفتح والتوسع، فإن المعنى يعم الآن في دخول مجالات الرقي والتقدم.. دخول الجامعات وتولي المناصب الهامة الحساسة ومجالات الإعلام

والانترنت.. وكل من يجتهد يصل ..﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ وذلك بالحط من قيمة أعداء الإسلام وكشف جهلهم ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمطلوب منهم أن يرتفعوا إلى درجة الإحسان.. وسلم الارتقاء لانهائي.. ففي الآيات الماضية طلب منهم الصدق والتقوى.. وهنا يدفعهم إلى الأحسن ..﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢].

وفي الوقت الذي يتشككُ فيه الناس بالإحسان وعواقبه.. وأنه لا ينفع مع كل الناس فإن الله يؤكد أنه لا يضيع.. بل إن آثاره راسخة في الدنيا قبل الآخرة.. وكلنا يمكن أن يراجع حياته، ويتذكر اللحظات الصعبة التي جاهد فيها نفسه وجعلها تختار الإحسان.. وكيف جاءت النتائج البعيدة المدى أكبر مما كان يتوقع.

هل هذه التوجيهات خاصة بأهل المدينة ومن حولهم؟ الأولى أنها عامة في كل المسلمين.. ولكن الخطاب هنا موجه لهؤلاء لدعمهم وترسيخهم، فسيكونون درع الأمة في وجه الردة والفتن.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ إن كل حركة يقوم بها المؤمن يمكن أن تكون عبادة طالما أنها كانت ضمن الخطة لتحقيق رسالته في الحياة. والوادي: سيل الماء في منعرجات الجبال وخصه بالذكر لما فيه من المشقة .﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فإما أن الله ينتقي أحسن أعمالهم عند الجزاء وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٦]. أو أن الجزاء يأتي أحسن من أعمالهم.. وقد ورد مضاعفة الحسنة إلى عشرة أمثالها.. بل إلى سبعمئة ضعف (في مثل الحبة التي أنبتت سبع سنابل).

٢- النفير في المجتمع المسلم:

وهنا يبين لهم كيف ينفرون ومن يقاتلون. ويبدو أن المسلمين صاروا يتجمهرون في المدينة ويودون الخروج في كل سرية تلبية لحث الله لهم على الجهاد. فاقتضى ذلك أن يبيِّن لهم الله. فقد اتسعت رقعة المجتمع المسلم وكثر المسلمون وآن أن تتوزع الجهود في الجهاد وعمارة الأرض وباقي الاختصاصات التي يحتاج إليها المجتمع المسلم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ البيهقي فسر الآية على أنه: ما كان لهم أن ينفروا جميعاً وإنما تخرج السرايا.. فإذا نزلت الآيات وتفقه القاعدون.. علَّموا وأنذروا قومهم إذا رجعوا مع السرايا.

وبعضهم قال أن الآية نسخت ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ولا داعي للقول بالنسخ لأن الآية تستنفر لطلب العلم.

ومن الطريف أن رشيد رضا (في المنار) فهم من الآية الاستنفار للتعلم والتعليم.. فالمسلمون لما شعروا بأهمية الجهاد أشعرهم هنا بأن التعلم والتعليم جهاد.. بينما صاحب الظلال يقول: (إن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به؛ فالذين يخرجون للجهاد هم أولى الناس بفقهه بما ينكشف لهم من أسراره ومعانيه) هذا الكلام يمكن أن يفهم بشكل إيجابي إذا نظرنا إلى الموضوع من حيث جدلية العلاقة بين الفكر والعمل؛ فنحن لا نريد علماً نظرياً يحلق في الأبراج العاجية.. وإنما نريد العلم الذي ينهض بالأمة.

لكن الشباب الذين قرؤوا كلام صاحب الظلال - سواء عند هذه الآية أو غيرها -فهموا الأمر على أنه استنفار للقتال.. وأن المسلم لا يفهم دينه حتى يقاتل كل من يخالف فهمه (هو) للقرآن.

إن الآية ببساطة تقول: ما كان للمؤمنين أن ينفروا جميعاً للقتال.. إذ لابد أن ينفر منهم طائفة ليتفقهوا في الدين.. إنها أمرٌ واضحٌ بأن تتفرَّع طوائف عِدَّةٌ لتحصيل كل الاختصاصات اللازمة لحياةِ الأمة، وهنا نجد من يقول: لكن الآية حددت ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ فالعلوم الدينية فقط هي المقصودة..! ومن حقي أن أتساءل: وهل هناك علوم غير دينية؟ أليست العلوم الكونية المادية والعلوم الإنسانية هي آيات الله في الآفاق والأنفس؟ وهل تقوم للمجتمع المؤمن المعاصر قائمة إن لم يحصِّل هذه العلوم؟ وهل يبنى المجتمع على الفقه وعلوم القرآن والحديث والسيرة فقط..؟!

إن الدين هو منهج حياة.. وكل العلوم النافعة للناس هي علوم دين. ولن يكتمل معنى الآية ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إلا بهذا التعميم.. فمن أي شيء ينذرونهم وممَ يحذرون؟! هل ينذرونهم بالآخرة فقط؟ وهل على الناس أن يحذرونا نار الآخرة فقط؟

إن سفينة الأمة لا تنجو من الغرق إلا إذا تعلم الناس صيانتها وحسن قيادتها. ولابد لطائفة من المؤمنين أن يتعلموا سنن الله وقوانينه في النفس والمادة.. كي يعلموا الناس كيف يحذرون الاصطدام بسنة الله.. لابد للناس أن يمتنعوا من مخالفة السنن حتى لا يتلقوا العواقب الوخيمة.

إن منزلة المتخصصين بهذه العلوم لا تقل درجة عن منزلة المجاهدين في المعارك.. فالجميع يعملون على حماية الأمة وإعلاء شأنها.. وحماية الدين وترسيخ الخير في الحياة.. وإلا فكيف يؤدي الإنسان دور الخلافة في الأرض؟!

ويعود إلى التنبيه إلى ضرورة صيانة الأمة من عدوها المجاور المتربص:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وهذا لا ينسينا أن الخطاب للأمة المسلمة التي اختارت حاكمها المسلم الذي يتخذ قرار الحرب أو السلم... ولا ينسينا ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١]... ولا ينسينا أن الصراع الفكري الآن صار أهم وأمضى من الصراع المسلح.. إذ إن قوة العلم والتخطيط ومعرفة الآخر الآن هي التي تتحكم بالساحة. وهذا الأمر المطلق هنا في الآية ينبغي أن يقيد بالآيات التي بينت الأسباب عند هؤلاء الكفار وهو قيامهم بالغدر ونقض العهود و...

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وحين نتذكر الظروف الزمانية والمكانية لهذا التوجيه لا نستغرب.. إن الله يأمر بالغلظة مع أناس غادرين ماكرين متربصين بالمؤمنين الفرص. والأحكام تختلف باختلاف الأحوال والظروف.. ومع ذلك فإن هذه الغلظة ليست للإكراه في الدين بل لإزالة الإكراه في الدين. وهي مرهونة بشروط القتال في الإسلام: «اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» (أخرجه مسلم) كما أنه نهى عن قتل النساء ..﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحذرون من مخالفة أمر الله وسننه.

٣- تلقي الآيات من قبل المنافقين والمؤمنين:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾.

نلاحظ بوضوح نبرة الاستهزاء التي يتحدث بها هؤلاء. ويرد الله عليهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فالإيمان معرض للزيادة والنقصان.. فهل يمكن أن نحدد أساليب زيادة الإيمان؟

لاشك بأن من أهمها: تعميق الصلة بالقرآن وفهمه والعمل به ..﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] لأنهم يملكون أرضية إيمانية

ويسعون إلى الاستزادة بطلب العلم.. فالعلم والإيمان وجهان لعملة واحدة؛ ومن لا يحس بذلك فعليه أن يراجع مقدار علمه: هل هو من نوع ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٣٠/٧] لأن الله قرر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٨].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ إن نوعية الإنسان هي التي تحدد نتيجة التفاعل مع القرآن.. فهناك نظارة شخصية لكل إنسان يرى من خلالها الأمور ويعطيها تفسيره الخاص.. ولهذا يقولون: إن المتشائم ينظر إلى النصف الفارغ من الكأس بينما يرى المتفائل النصف الملآن.

ومرض القلب: هو التشوش الفكري والنفسي.. والنفاق مرض فكري نفسي يشوه النظر إلى الأمور ويجعل التفاعل معكوس النتائج.. فبدلاً من الحصول على زيادة الإيمان بالقرآن.. يزداد المنافق رجساً وانحطاطاً.. وكثيراً ما سمعت أن أناساً يتشاءمون وتنقبض قلوبهم لمجرد أن يسمعوا تسجيلاً فيه قراءة للقرآن.. لأنهم ربطوا بين القرآن والمآتم.. وبعض المنافقين سخر من الأمثلة التي ضربها القرآن (العنكبوت والذباب مثلاً) مع أنها كانت بليغة في تقريب المعاني.. فالمشكلة ليست في الحدث الخارجي.. وإنما في موقف الإنسان منه.. وحتى المصيبة تكون خيراً للمؤمن ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٤/١١] لأنه يتعلم بها مواضع الخطأ وتدربه على الصبر وترفع مستوى أدائه وتعطيه الأجر من الله. وأما الصور الذهنية الخاطئة فإنها تزيد المنافق انحداراً.. لأنه لا يريد الحقيقة.. بل يحوّل كل ما يعرض عليه إلى مادة للاستهزاء أو الجدل العقيم.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ سبحان الله العليم الخبير.. إنه يؤكد على أنَّ

هذا مصيرهم.. ولا يملك إنسان أن يطلق مثل هذا الحكم.. لكن الله وحده هو الذي يعلم حالهم ومآلهم.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

وأصل معنى الفتنة هو تعريض الصخرة إلى حرارة عالية جداً حتى يسيل الذهب منها إن كان موجوداً. والامتحان ضروري للنجاح.. ولإظهار التفوق.. ولترسيخ التعلم.. وللوصول إلى الدرجات العلى.. وضروري لكشف المنافقين والفاشلين. والمحن بالنسبة للمؤمن تحديات تحفز الذهن وتشحذ الطاقة وترسخ العلم. وصدق من قال: إن الصعوبات فرص للإبداع.. فرص لإيجاد حلول جديدة.

وأما بالنسبة إلى المنافق فهي الفاضحة في الدنيا والآخرة وهي التي تزيد من شكوكه..

و﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥] وإن فتنة الدنيا تعرض على الجميع؛ فأما المؤمن فيلتزم حدود الله ويقصد بالحلال منها وجه الله والتقوّيَ على طاعته. وأما الآخر فيغرق فيها حتى يضيع دنياه وآخرته.

وأول ابتلاء للإنسان هو اختيار الهدف السليم لحياته.. وهو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك. إنه الترتيب السليم للأولويات..

وأما الثاني: فهو حسن الاختيار للطريق الصحيح المؤدي للهدف.. وإن الاهتداء إلى الصراط المستقيم يحتاج إلى اجتهاد وبحث وتأمل في نتائج الأمور وعواقبها.. والصراط المستقيم ليس صورة جامدة قد تم إنجازها.. بل إنه متطور مع تغيرات العصر.. لأن الطرق والوسائل تنسخ دائماً بالأفضل والأنفع.

وأما الثالث: فهو مقدار الالتزام والاستقامة على الطريق.

ولابد من المراجعة والتقويم أثناء كل ذلك.. للتأكد من صحة التصور ودقة الالتزام، والعلاقةُ جدلية بين الفكر والعمل. فالعمل يصحح الفكر أيضاً. والأساليب في تطور دائم..

وربما يحس القارئ الآية بثقل الأمر.. فالفتنة مستمرة.. والعقبات تتجدد دائماً ..﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.. والآية لا تفيد الحصر بل تشير إلى الكثرة والتعدد.. لكن ينبغي أن ندرك أن حل جميع المشاكل معناه نهاية الإبداع بل ونهاية العالم. ولا حياة بدون مشاكل إلا في الآخرة.

إنها سنة الحياة التي تأسن الحياة بدونها.. وإن العليم الحكيم يمتحن ويبتلي لأنه يعلم سبحانه مفاتيح إبداع الإنسان.. وكل من يفرط باستخدام طاقاته وتشغيل مواهبه فقد رسب في الامتحان.. فليست المشاكل هي التي لا تقبل الحل.. وإنما موقفنا منها.

والفتن تأتي متدرجة كما أخبرنا النبي ﷺ إذ يظن المؤمن أنها شديدة فيقول (هذه مهلكتي)ثم تنجلي ويأتي غيرها أقوى منها فيقول (هذه.. هذه).. وكما يقول غاندي (آخر إغراءات الشيطان أقواها). مما يجعل المؤمن في حالة توتر دائم؛ هي الحالة المثالية للإبداع والإنجاز.. بعيداً عن الاسترخاء والترهل. وهذا هو أهم ما تشعرنا به الآية: احذر وكن جاهزاً.. الفتن متتالية فلا (تسترخِ على مجاذيفك)

لنتأمل مثلاً قدرتنا على ضبط الغضب.. إننا نتصور أننا من أحسن الناس خلقاً ولكن الظروف والناس يخرجوننا عن طورنا..! والامتحان هو: كيف تكون ردة فعلنا على الاستفزاز؟! ولقد قالوا: (لا يظهر حسن خلقك إلا بسوء أخلاق الآخرين من حولك).. وفي أبحاث التنمية للشخصية يذكرون أن الحرية هي المسافة بين المؤثر (الذي هو استفزاز الآخرين لك) والاستجابة (التي هي ردة فعلك وسلوكك الذي تقوم به)؛

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله كيف كان حلمك يسبق غضبك. والأخبار الواردة في السيرة كثيرة في هذا المجال.. مِنْ مثل ذاك اليهودي الذي قال: عرفت كل علامات النبوة في محمد ﷺ إلا واحدة: (لا يزيده جهل الجاهلين إلا حِلْماً) فعقدت بيعاً مع النبي ﷺ على أن يسلمني إياه في وقت معين ودفعت له الثمن، ثم أتيته قبل أن يحين الأجل فجذبت رداءه وقلت له بغلظة: أعطني مالي يا محمد فإنكم والله يا بني عبد المطلب قوم مطل. والنبي ينظر إلي ساكناً. فقام عمر مغضباً وقال: والله لولا أن أسبق رسول الله لقطعت عنقك، أتقول هذا لرسول الله؟ فالتفت النبي إلى عمر باسماً وقال: أنا وهو كنا بحاجة إلى قاضٍ أفضل منك يأمرني بحسن الأداء ويأمره بحسن المطالبة. اذهب يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعاً لأنك روَّعته فقال اليهودي: إني لأشهد إنك رسول الله(١).

وقفت عند تحديد المرات ﴿مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ هل يمكن أن نقول عنها بأنها: التوفيق بين الأمور التي تظن أنها متناقضة؟ مثلاً: يمتحن المرء: هل يكون باراً مع أبويه؟ ومع أولاده: هل يربي بشكل جيد؟ ويمتحن هل يكون رئيساً جيداً مع العمال والموظفين؟ وهل يكون مرؤوساً جيداً مع رؤسائه في الوقت نفسه؟ مثلاً: خالد بن الوليد كان قائداً فذاً للجيش، فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب عزله خوفاً من أن يفتن الناس فيه.. فتقبل الأمر بكل رضى وعاد جندياً بسيطاً تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح.

هذا فهم وصلت إليه وتبقى الآية مفتوحة للاجتهاد والفهم إلى يوم الدين.. ولا أدعي أنني فهمت كل المغزى.

---

(١) الخبر في معجم الطبراني الكبير والرجل هو زيد بن سعنه

والمهم في الأمر أن الله جعل الفتنة هي سنة الحياة لأنه يريد الخير بعباده.. حتى يتوبوا ويتذكروا..

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وهذا شأن المنافقين.. إنهم لا ينتفعون بشيء.. وحتى آيات الله تزيدهم رجساً. ولقد سبق أن وقفت على بعض معاني التوبة وكيف أنها حركة ارتقاء تصاعدية.. لأنها تصحيح مستمر.. ولا ننسى أن النبي ﷺ كان يستغفر ويتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة.. وهي إشارة رائعة إلى الارتقاء التصاعدي. والتذكر: هو حالة اليقظة من الغفلة.. فهو منتبه إلى سنن الله ويعرف كيف تجري الأمور وكيف تكون العواقب. وهذا الترتيب: التوبة ثم التذكر نفهم منه أن الإنسان يعاني ويخطئ حتى يكشف القانون وعندها يعود عن خطئه ويتوب.. ثم عليه أن يتذكر هذا القانون في الحالات التالية. فكأن الآية تقول:

هناك معاناة لكشف القانون (التوبة).. ثم معاناة لتعميمه على الحالات المماثلة (تذكر) ويرسم القرآن للمنافقين صورة ساخرة مليئة بالجهل والضعف:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ إنها لوحة دقيقة الملامح نرى فيها أشخاصاً باهتي الألوان ينظرونَ إلى بعضهم نظرات مليئة بالمكر والتآمر.. نظرات تتساءل متربصة: هل يراكم من أحد؟! ثم يتسللون وينسحبون متخفين.. يتسللون ويهربون من العلاج الذي كان يمكن أن يشفي مرض قلوبهم ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢].. إنهم يسمعون السورة ويرفضون التفاعل معها..

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ تحتمل الخبر عن حالهم التي وصلوا إليها بحسب سنة الله في الهداية. فمن أعرض أعرض الله عنه. وتحتمل الدعاء

عليهم.. أو إصدار الحكم المناسب عليهم.. والسبب ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق للأمور.. ومجالات الحياة متعددة وكلها تحتاج إلى فقه.. فكما أن هناك فقهاً للعبادات يدخل الباحث فيه إلى تفاصيل أحكام العبادات.. فهناك فقه للحياة.. وفقه للدعوة.. وفقه للتواصل الإنساني.. فقه للصحة النفسية للإنسان.. وفقه في تطوير المجتمع وصيانته.. والمسلمون مطالبون بكل أنواع الفقه.. إن أرادوا أن يؤدوا دور الخلافة في الأرض؛ ذاك الدور الذي خصَّ الله به الإنسان دون سائر خلقه. و(من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح) ومن جهل سنن الله في الحياة شقي وسبب الشقاء لمن حوله.

٤- صفة الرسول وتوجيه له، وتذكير للمؤمنين بنعمة إرساله لهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إما أنها إشارة خاصة إلى العرب وفضل الله عليهم بإرسال نبي منهم يعرف حاجاتهم وما يتعرضون له من ضرورات.. أو (من الناس) فتكون عامة بتذكير الناس بأن ما جاء به دين صالح لحياتهم فهو إنسان استطاع أن يسمو ويطبق أوامر القرآن.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يحمل في نفسه قلباً كبيراً يحس بآلامكم ويحرص على سلامتكم .﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ نتأمل هذا التكريم العظيم لشخص النبي ﷺ إذ يصفه الله بصفتين من صفاته ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه الصفات كلها هي من أعظم مؤهلات القيادة.. وهو واحد منهم يحس بآلامهم ومشاكلهم ويسعى للتخفيف عنهم. وفي آية أخرى يقول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] ويقول النبي ﷺ عن نفسه: «أنا رحمة مهداة» وهي رحمة مبذولة للجميع.. لكن لا يقبلها إلا المؤمنون ولهذا جاء التخصيص هنا.

ويضرب النبي ﷺ لأصحابه مثالاً عن رحمته وإشفاقه على الناس «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها.. وهو يذبهن عنها.. وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي»[١] وفي يوم الفتح قال لأهل مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» دون أن يشترط عليهم الدخول في الإسلام أو أي شرط آخر.. ولقد كان ﷺ يجوع مع أصحابه - بل كان يجوع أكثر منهم - ولا يرضى أن يتفرد عنهم بطعام. ولن ندرك عمق الوصف في الآية ما لم نتأمل حياته العملية مع أصحابه في كتب الحديث والسيرة. ويكفي أن نتذكر أن الله تعالى قال له عن الكفار ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وذلك لغلبة الرحمة على قلبه وسجاياه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ وهو توجيه للنبي ولكل الدعاة من بعده.. ونرى فيه قواعد هامة:

١-ابذل جهدك وأدِّ واجبك كأحسن ما تطيق ولا عليك من النتائج. ومن بذل واجبه فلابد أن ينال حقه ولو بعد حين.

٢-﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ه.. أنا راضٍ بقانون الله ومطمئن إلى إرادته.. فالله يريد بعباده الخير واليسر والهداية. هذه الآية ليست مجرد كلمات يرددها الإنسان بلسانه.. بل هي حال من السكينة والاطمئنان يستمتع بها من تمعن في مقاصد الدين وترسخت في أعماقه. ولهذا تؤكد الآية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ .

٣-في الآية احترام للإنسان وحريته في الاختيار.. وهؤلاء لهم الحق في أن (يتولوا) ويعرضوا وليس لك أن تتصدى لهم وتقاوم حقهم في الاختيار.

---

(١) رواه مسلم.

٤-والآية تهمل موقفهم.. وتلتفت إلى تقوية موقف المؤمن.. وهو الأُسلوب الصحيح في العلاج.. فليست العلة في المعرضين وكيدهم.. وإنما هي في ضعف الفهم والالتزام عند المؤمنين.. وحين يقوى الحق حتى يظهر وينكشف.. يزول الباطل ويتنحى جانباً ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

٥-ولا تنس أن الله ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فلا يقدر أحد على إبطال إرادته وسننه.. فهو المتمكن في القوة والسلطان رغم إعراض المعرضين وكفر الكافرين.. وهل يقدر أحد على الفرار من المآل إليه؟!

٦-المعنى الحقيقي للتوكل: هو الأخذ بالأسباب واللجوء إلى الله. وهو الوسط بين الخطأين: التواكل (أي ترك الأخذ بالأسباب) أو تأليه السبب والانقطاع عن الله. أي بين تعطيل السبب أو تأليهه.

وقد ورد في فضل ختام هذه السورة:

-عن أبي الدرداء مرفوعاً قال ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم - سبع مرات - كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» (رواه ابن السني).

-وعن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣-١٧٤] (رواه البخاري).

هذا الختام الهادئ الخاشع للسورة جدير بالتأمل..

فلقد كانت آيات السورة شديدة حامية.. نجوب فيها وسط حالة الطوارئ المليئة بالقلق والمخاطر.. لقد عشنا معها جولات مليئة حافلة

بالاستنفار.. وإذا بالسورة تعود بنا في الختام إلى أجواء الهدوء والرحمة بعيداً عن مخاطر الطوارئ.. وكأنها توحي لنا أن: لا تُراعوا فإن الأمة تتجاوز هذه الحالة المؤقتة (حالة الطوارئ).. وها هي ذي تعود إلى نهج ربها ورعايته وتركن إلى حماه - على حداء نبيِّها - فلقد علمها ربها كيف تبني أمة الرشد بـ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦] وكيف تؤسس دولة القانون بـ ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].. وأمةُ الرشد سرعان ما تتغلب على المخاطر وتخرج سالمة من حالة الطوارئ.. ناعمة تحت ظلال التوحيد والتوكل.

في الختام أقول

بعد هذه الرحلة الشيقة مع هذه السورة العظيمة..

أعترف بأنني لأول مرة أنتبه إلى المغزى الكبير من تخصيص سورة طويلة لموضوع التوبة تحمل هذا العنوان. أما وقد عرَّفنا التوبة على أنها حركة تصاعدية في الارتقاء الإنساني المستمر.. فإنه لَيجدرُ بنا أن نتذكر أن المساحات التي تناولتها السورة لا تنحصر فقط في العلاقة مع الله.. بل إنها عالجت العلاقات الإنسانية.. وتوسعت في عرض صور ونماذج من العلاقة مع الآخر. كلها قابلة للتطوير والارتقاء.

إن التوبة هي السر الخاص بهذا (الخلق الآخر) الإنسان. وهي مصدر تميزه عن سائر الخلق. فلقد أعطاه الله جهاز التمييز الذي يمكنه من الارتقاء المستمر.. وزوده بأول تجربة في الخطأ والتوبة منه في ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢١].. فالاجتباء اصطفاء وارتقاء.. ولا يتم هذا إلا بالتوبة.

ولهذا أقول: إن التوبة هي أعظم أداة معنوية تمنح الإنسان طهارة متجددة وارتقاء مستمراً.. ولهذا كان النبي ﷺ يستغفر ويتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة..

وهذا من أهم ما كشفته لي دراسة سورة التوبة.

فالحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

فله الفضل في كل ما نقدم من خير.. ومنه القبول

حنان لحام

ربيع الأول ١٤٢٧هـ/ نيسان ٢٠٠٦م

فصل عن النسخ في القرآن

أردت أن ألحق بتفسير هذه السورة بحثاً عن الناسخ والمنسوخ في القرآن لكثرة ما تحدث الناس حول هذا الأمر.. وخاصة قولهم عن الآية الخامسة منها إنها آية السيف وقد نسخت كل آيات الصبر والعفو والتسامح..

وأقول ابتداء إنني أنصح القارئ الكريم بقراءة كتاب (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم) للأستاذ عبد الرحمن حللي، وخاصة ما جاء في الصفحة (١٤٧) منه عن (مناقشة مقولة النسخ في الآيات) لما فيه من تحليل مفيد.

وإنني لأعجب من جرأة من زعم بأن الآية الخامسة من سورة التوبة قد نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية مما قبلها..!! كيف تأكد من زمن نزول كل آية؟ وهل يضمن أن يكون قد نزل بعدها ما يأمر به الله بالوفاء بالعقود والتعامل بالحسنى مع الآخر..؟

فمن المعروف أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن وتفتتح بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ٥/١].. إن دعوى النسخ هذه خطيرة لأنها تطال روح الدين ومقاصده.. فرسول الله ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١).

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما زعم بعضهم من نسخ عدد من آيات الأحكام.. لارتفع عدد المنسوخ إلى مئتين وربما أكثر.. فهل يقبل بذلك عاقل؟!

في غمرة تساؤلاتي عثرت على كلام في تفسير المنار عند الآية ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠] التي يرى بعض المفسرين أنها نسخت بآية المواريث، أنقل بعضه: (وقد توسع الأستاذ الإمام هنا في الكلام على النسخ.. وملخص ما قاله أن النسخ في الشرائع جائز موافق للحكمة وواقع، فإن شرع موسى نسخ بعض الأحكام التي كان عليها إبراهيم، وشرع عيسى نسخ بعض أحكام التوراة، وشريعة الإسلام نسخت جميع الشرائع السابقة؛ لأن الأحكام العملية التي تقبل النسخ إنما تشرع لمصلحة البشر، والمصلحة تختلف باختلاف الزمان. فالحكيم العليم يشرع لكل زمن ما يناسبه. وكما تنسخ شريعة بأخرى يجوز أن تنسخ بعض أحكام شريعة بأحكام أخرى في تلك الشريعة. فالمسلمون كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس في صلاتهم فنسخ ذلك بالتوجه إلى الكعبة وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين. ولكنَّ هناك خلافاً في نسخ أحكام القرآن ولو بالقرآن، فقد قال أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المفسر الشهير: ليس في القرآن آية منسوخة. وهو يخرج كل ما قالوا إنه منسوخ على وجه صحيح بضرب من التخصيص أو التأويل. وظاهر أن مسألة القبلة ليس فيها نسخ للقرآن، وإنما هي نسخ لحكم لا ندري هل فعله النبي ﷺ باجتهاده أم بأمر من الله تعالى غير القرآن؟ فإن الوحي غير محصور في القرآن [يعلق في الهامش: يرجح الثاني قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] فهي بجعل الله تعالى ولكنها ليست في القرآن]. ولكن الجمهور على أن القرآن ينسخ بالقرآن بناء على

أنه لا مانع من نسخ حكم آية مع بقائها في الكتاب يعبد الله تعالى بتلاوتها وبتذكر نعمته بالانتقال من حكم كان موافقاً للمصلحة ولحال المسلمين في أول الإسلام، إلى حكم يوافق المصلحة في كل زمان ومكان فإنه لا ينسخ إلا بأمثل منه.. واتفقوا على أنه لا يقالُ بالنسخ إلا إذا تعذر الجمع بين الآيتين من آيات الأحكام العملية وعلم تاريخهما، فعند ذلك يقال إن الثانية ناسخة للأولى. وأما آيات العقائد والفضائل والأخبار فلا نسخ فيها. ونسخ السنة بالسنة كنسخ الكتاب بالكتاب. بل هو أولى وأظهر، وكذلك نسخ السنة بالكتاب كما في مسألة القبلة ولا خلاف فيهما، ومن قبيل هذا نسخ الحديث المتواتر لحديث الآحاد. وأما الخلاف القوي فهو في نسخ القرآن بالحديث ولو متواتراً، أو نسخِ الحديث المتواتر بأخبار الآحاد. والذي عليه المحققون الأولون أن الظن - وهو خبر الآحاد - لا ينسخ القطعي كالقرآن ولا الحديث المتواتر. والحنفية وكثير من محققي الشافعية صرحوا بجواز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة، لأن النبي ﷺ معصوم في تبليغ الأحكام؛ وذهب آخرون ومنهم الإمام الشافعي كما في رسالته المشهورة في الأصول بأنه لا يجوز نسخ حكم من كتاب الله بحديث مهما تكن درجته؛ لأن للقرآن مزايا لا يشاركه فيها غيره... ولا أعرف لأبي حنيفة قولاً في هذه المسائل. والأصوليون المتقدمون من الحنفية والشافعية لا يقولون بنسخ القرآن بغير المتواتر من الأحاديث... فإن القرآن منقول بالتواتر فهو قطعي وأحاديث الآحاد ظنية.. وتمييز آخر وهو أن كل ما في القرآن وحي من الله تعالى قطعاً. وأما الأحاديث ففيها ما هو من اجتهاد النبي ﷺ وهو دون الوحي. وإن كان قد تقرر أن النبي ﷺ إذا أخطأ في اجتهاده لا يقرُّ على الخطأ بل يبين له كما في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٤٣]... ولما كان الخلاف هنا ضعيفاً جداً احتاج القائلون بنسخ حديث «لا وصية لوارث» لآية الوصية إلى زعم تواتره.. وقد علمت أن هذا غير صحيح.

وقالوا أيضاً إن السنة لا تنسخ الكتاب إلا ومعها كتاب يؤيدها، والظاهر في مثل هذه الحال أن يقال إن الكتاب نسخ الكتاب لأنه أصل.. فإذا كانت المجازفة في القياس قد وصلت إلى هذا الحد؛ وقد تجرأ الناس على القول بنسخ مئات من الآيات، وإلى إبطال اليقين بالظن وترجيح الاجتهاد على النص، فعلينا ألا نحفل بكل ما قيل وأن نعتصم بكتاب الله قبل كل شيء، ثم بسنة رسوله التي جرى عليها أصحابه والسلف الصالحون وليس في ذلك كُلِّهِ شيء يخالف الكتاب العزيز.

وصفوة القول: إن الآية غير منسوخة بآية المواريث لأنها لا تعارضها بل تؤيدها ولا دليل على أنها نزلتْ بعدها. ولا بالحديث لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب فهي محكمة وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصاً بمن لا يرث من الوالدين والأقربين كما روي عن بعض الصحابة وأن تجعله على إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فتنبذ ما كتبه الله عليك بغير عذر ولا سيما بعد ما أكده بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤١][(١)]) انتهى. وكان قد قال قبل ذلك عن هذه الآية (إن الله تعالى إذا شرع للناس حكماً وعلم أنه مؤقت وأنه سينسخه بعد زمن قريب فإنه لا يؤكده بمثل ما أكد أمر الوصية هنا من كونه حقاً على المتقين، ومن وعيد من بدله.)[(٢)] وافتتح الآية بـ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٠]. وقد أحببت أن أنقل مناقشته لدعوى نسخ آية الوصية مع أنها لا علاقة لها بموضوعنا للإفادة من منهجه في تناول موضوع النسخ. وهو ينكر أن تكون الآية التي نتأملها قد نسخت ما قبلها من أوامر بالوفاء بالعهود والعفو.. يقول (وليس كذلك بل

(١) صفحة ١٣٨ من المجلد الثاني من تفسير المنار - رشيد رضا.
(٢) صفحة ١٣٦ من المجلد الثاني من تفسير المنار - رشيد رضا.

هي من المنسأ بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم. بل ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر.. إنما النسخ الإزالة للحكم)[١]

ويتأمل الشاطبي موضوع النسخ في موافقاته. فيقول:

(النسخ إنما وقع معظمه بالمدينة لما اقتضته الحكمة الإلهية في تمهيد الأحكام، وتأمل كيف تجد معظم النسخ إنما هو لما كان فيه تأنيس أولاً للقريب العهد بالإسلام واستئلاف لهم، مثل كون الصلاة كانت صلاتين ثم صارت خمساً، وكون إنفاق المال مطلقاً بحسب الخِيَرَة في الجملة ثم صار محدوداً مقدراً،.... وأن الطلاق كان إلى غير نهاية على قول طائفة ثم صار ثلاثاً، والظهار كان طلاقاً ثم صار غير طلاق إلى غير ذلك مما كان أصل الحكم فيه باقياً على حاله قبل الإسلام ثم أزيل، أو كان أصل مشروعيته قريباً خفيفاً ثم أحكم).[٢]

وتحت عنوان (المنسوخ في الشريعة قليل) يقول: (إن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، وجميع ذلك لم ينسخ منه شيء، بل إنما أتى بالمدينة ما يقويها ويحكمها ويحصنها،... فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة)[٣].

(ولذلك قالوا في حد النسخ: إنه رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر) - والمباح بحكم الأصل والعادة الجارية قبل الشرع لا يعتبر حكماً شرعياً - (فإذا اجتمعت هذه الأمور ونظرت إلى الأدلة من الكتاب والسنة، لم يتخلص في يدك من منسوخها إلا ما هو نادر) [٤].

(١) صفحة ١٩٩ من المجلد العاشر من المرجع السابق.
(٢) صفحة ٩٦ من المجلد الثاني من الموافقات للشاطبي
(٣) صفحة ٩٧ من المجلد الثاني من الموافقات للشاطبي.
(٤) صفحة ٩٨ و ٩٩ من المصدر السابق.

وتحت عنوان: (هل تنسخ الكليات؟) يقول: (القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينات لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء، فإن كل ما يعود بالحفظ على الأمور الخمسة ثابت، وإن فرض نسخ بعض جزئياتها فذلك لا يكون إلا بوجه آخر من الحفظ)(١).

ماذا يقصد الشاطبي بالكليات؟ إنه يقول عنها القواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينات.. إنها مقاصد الدين كما يشرحها في مواضع أخرى من كتابه.. وهي خمس: حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والرزق. وكل واحدة من هذه الخمس لها ثلاث حالات: أشدها الضرورة ثم الحاجة ثم التحسين. مثلاً: أداء الصلاة ضرورة لحفظ الدين وتحتاج إلى طهارة (وضوء أو اغتسال) ولها تحسينات ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١/٧]. والشاطبي يعتبر الأخلاق من التحسينات اللازمة لحفظ هذه المقاصد الخمس. وهو ما أختلف معه فيه؛ فقد تبين لي بعد دراسة المقاصد في القرآن الكريم أن الأخلاق عنصر أساسي لتحقيق ارتقاء الإنسان الذي هو مقصد من مقاصد الدين (ارتقاء الإنسان)(٢) مصداقاً لقول النبي ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

والمهم في كلام الشاطبي أنه ينفي النسخ عن القواعد الكلية في الدين، والأخلاق جزء أساسي من هذه القواعد.. فكيف نسمح بأن يقال بكل تسرع: إن آية السيف نسخت الوفاء بالعهد والصبر والعفو والدفع بالتي هي أحسن..؟! وهي الأخلاق التي أكدها القرآن في مكة وفي المدينة..؟!

---

(١) صفحة ١٠٩ من المجلد الثاني من الموافقات للشاطبي.
(٢) راجع كتابي: مقاصد القرآن.

خذ مثلاً حديثه عن صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٨] وتأمل الآية التي تقارن بين أخلاق الكفار وأخلاق المؤمنين في سورة مدنية نزلت قبيل الفتح[1] ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٤٨/٢٦] فكيف يبرر بعض الباحثين نسخ آيات الصبر والعفو.. بأن المسلمين إنما أمروا بذلك لأنهم كانوا في حالة ضعف ولا قِبَلَ لهم بقتال المشركين..

ولهذا أُمِروا بالصبر ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/٢٤] وفسروا ذلك بأن تقوى شوكة المسلمين ويتمكنوا في الأرض، وعندها يقاتلون كل من يخالفهم في الدين.. وكأنه لم يعد هناك مبرر للصبر والوفاء و... فهل يمكن أن ترتبط الأخلاق بالضعفاء وحدهم؟

وهل يمكن للإسلام أن يكون على طريقة (تمسكنت حتى تمكنت)؟

ألا يعتبر هذا نوعاً من الخداع والنفاق؟ وما قيمة الأخلاق إن طبقها العاجز وحده؟! ونحن نعلم أن العفو لا يسمى عفواً إلا إذا كان عن قدرة على الانتقام.. أما في حالة العجز فهو الذل والمسكنة.. بينما الآيات هنا - في براءة - توضح بجلاء أنها إنذار للغادرين الناقضين وإعطاء فرصة أخيرة لهم.. كما أنها وفاء والتزام لمن استقاموا والتزموا..

أعود لأستخلص من النصوص المقتبسة السابقة (لرشيد رضا والشاطبي) بعض القواعد:

---

(١) إن حمية الجاهلية هي أن تتجاهل قيم العدل والأخلاق في مواجهة عدوك. والمؤمن قد رباه القرآن على غير ذلك.

١-لا ينسخ القرآن إلا بالقرآن.

٢-بعض العلماء أضاف: إن الحديث المتواتر يمكن أن ينسخ القرآن.

٣-آيات العقائد والفضائل والأخبار لا نسخ فيها.. وبتعبير الشاطبي: القواعد الكلية لا تنسخ.

٤-لا يقال بالنسخ إلا إذا:

أ- تعذر الجمع بين الآيتين.

ب- توفرت المعرفة بتاريخ نزول كل منهما بحيث تنسخ الثانية الأولى.

٥-الآية المنسوخة لا يكون سياقها مؤكداً بأساليب التأكيد؛ من مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٨] و ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤١].

٦-وعلى ذلك سنجد أن الآيات المنسوخة حكماً قليلة جداً في القرآن.

وأذكر مثالاً على ذلك ما أورده مناع القطان في كتابه (مباحث في علوم القرآن): من أن السيوطي قد ذكر في كتابه (الإتقان) إحدى وعشرين آية من النسخ.. سجل القطان منها عشرة..[1] فإن تأملناها وجدنا أننا لا نستطيع الجزم بالنسخ إلا في واحدة. وهي الآية التي تنص على عقوبة الفاحشة ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ

(١) راجع موضوع النسخ في الصفحة ٢٤٢ من (مباحث في علوم القرآن) لـ مناع القطان.

ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٥] فقد نسختها الآية الثانية من النور ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النور: ٢٤/ ٢].. أما باقي الآيات فيمكن الجمع بينها أو فهمها على أنها تدرج في التشريع يناسب المرحلة التربوية للمسلمين والظروف التي يعيشونها.. وفي ذلك دروس عظيمة للمسلمين بضرورة مراعاة الظروف المتغيرة.. فلكل مقام مقال.. والحلول تتحرك في مرونة لتتابع في بناء الشخصية المؤمنة.. وكلها تبقى ضمن (القواعد الكلية) أو مقاصد الدين.

ولقد عثرت على كلام جميل للدكتور محمد شريف أحمد حول هذا الموضوع أسوقه في ختام حديثي عن النسخ لأهميته:

(فالحقيقة الفطرية التي لا جدل حولها هي أنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦] وهي الموقف الذي يتأكد بنظم حاسم ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩] ذلك أن وظيفة النبي الرسول هي التذكير بالدين والدعوة إليه لا الإكراه والغلبة ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٤] ولا يصح الزعم بأن هذه الآيات التي تقيم الحرية والأمان منسوخة بآية السيف، فمن هذه الآيات إخبار من الله، ولا نسخ في الأخبار عند الأصوليين. ثم إن النسخ، على فرض وقوعه أو شيوعه في القرآن الكريم، يتم ليتأتى خير مما سبق أو مثله [1]، فهل

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٦].

يعقل عاقل أن يكون القتل أفضل من الصلح والسلام؟ أو أن يكون الإكراه أفضل من الحرية؟ إن هذه الفكرة الضالة، التي تجعل آية السيف - المحكومة في الواقع بظروفها الخاصة - هي الحاكمة والناسخة لآيات الحكمة والسلام والرحمة والحرية، هي التي ضللت المتطرفين والمنحرفين وشقت لهم مسار الإرهاب والمذابح الرهيبة ضد الأبرياء من المسلمين وغيرهم، وعرضت الدين الإسلامي السمح لتشويه عالمي، بل لحرب عالمية لا يعلم أحد مداها إلا الله)[١].

وتقول الدكتورة فريال مهنا: (لقد علم الله سبحانه عباده أن يبدؤوا أي كلام يقولونه وأي عمل يقومون به وأي نشاط يشرعون فيه بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) لأنه أراد أن يعطي الدين الإسلامي منذ بداية الدعوة سمات جوهرية لها صفة الديمومة تقوم على الرحمة والعفو والمغفرة والتسامح.. ولو أراد سبحانه أن يجعل من آيات القتال والحرابة والعنف المسلح وغير المسلح ملمحاً مركزياً من ملامح الإسلام لأمر بأن يفتتح كلامه بعبارات (بسم الله المنتقم الجبار) -(مثلاً)-.. كل ذلك يدل بما لا يدع مجالاً للاحتمال بأنه عز وجل شاء أن يجعل من قيم السلام والتسامح والتواصل والتراحم خصائص أولية ذات أبعاد شمولية تحفر عميقاً في وعي المسلم ووجدانه لأنه يرددها يومياً بلسانه وبقلبه.. وأن يجعل من قيم الصراع والقتال خصائص عابرة يضطر المسلمون إليها للدفاع عن أنفسهم.. ثم سرعان ما يكفون عن العدو بمجرد انكسار شوكته.. بل ويسعون لعقد مواثيق واتفاقات مع الذين بدؤوهم بالعدوان؛ وذلك وارد حتى في سورة التوبة التي يحتج المسايفون بها.. إن ما يدَّعونه لا يمكن أن

---

(١) صفحة ١١٩ من كتاب تجديد الموقف الإسلامي في الفقه والفكر والسياسة. د. محمد شريف أحمد.

يستقيم إلا إذا أرادوا أن ينسخوا البسملة أيضاً التي كرسها الله تعالى هوية للمسلم ومعلماً من معالم الإسلام في جميع أصقاع الأرض، وبذلك يصبحون باختيارهم خارج إطار أمة (بسم الله..»[1].

(١) هامش الصفحة ١٣١ و ١٣٢ من كتاب (إشكالية الجهاد في عصر المعلوماتية) د. فريال مهنا (سقت المعنى باختصار).

مستخلص

كتاب توفرت فيه المؤلفة على إبراز ما في سورة التوبة من مواقف حساسة لأحداث مهمة في عصر النبوة، تتالت بعد غزوة الخندق.

عملت المؤلفة في تفسيرها على تقسيم السورة إلى مجموعات، سمت كل مجموعة مقطعاً؛ فالمقطع الأول تناول الآيات [١ - ٢٨] وعنوانه ((تنظيم العلاقات مع المشركين)) في إعلان البراءة منهم وإمهالهم وإجارتهم، وخطر موالاتهم. وفي المقطع الثاني الآيات [٢٩ - ٣٥] ((تنظيم العلاقات مع أهل الكتاب بما يناسب ذلك العصر)). وفي المقطع الثالث الآيات [٣٦ - ٤١] ((أحكام وتوجيهات تتعلق بالقتال)) والأشهر الحرم والنسيء والجهاد والنصر. وفي المقطع الرابع الآيات [٤٢ - ٩٦] ((التمييز بين المؤمنين والمنافقين)) وفضح المنافقين، والمخلفون عن الجهاد. والمقطع الخامس الآيات [٩٧ - ١١٠] ((تصنيف المجتمع المسلم بعد غزوة تبوك)) والحديث عن طبيعة الأعراب ومجتمع المدينة. والمقطع السادس الآيات [١١١ - ١١٩] ((البيعة الإسلامية مع الله)) حيث بيع المؤمن نفسه وماله لله، وصفات أصحاب البيعة والدعوة إلى الصدق، والنهي عن الاستغفار للمشركين. وأخيراً المقطع السابع الآيات [١٢٠ - ١٢٩] ((أهل المدينة وواجبهم)) تجاه الدعوة، وإعلان النفير، وتذكيرهم بنعمة وجود الرسول بينهم.

وختمت المؤلفة البحث بتعليقاتها العامة على السورة وبفصلٍ عن النسخ في القرآن الكريم.

الجديد في الكتاب الإشارات الجديدة التي ضمنتها المؤلفة كتابها بروح جديدة.

Abstract

While interpreting the Qur'anic Chapter, "Al-Tawbah [Repentance]", the writer aspires to projecting the delicate attitudes towards significant incidents during the Prophetic Age, which took place consecutively after the Expedition of the Trench.

She divides the Surah into groups of Verses. Each group is called "a section". The first section involves the Verses 1-28 and is entitled "Arranging the Relations with Polytheists" according to the proclamation of disowning them, giving them protection and the risk of making friendship with them. The second section involves the Verses 29-35, entitled arranges the relations with the People of the Scripture in accordance with that time. The third section involves the Verses 36-41 and gives rules and instructions related to fight, the Sacred Months, postponement of a Sacred Month, Jihad and triumph. The fourth section involves the Verses 42-96 and sets distinction between believers and hypocrites, unmasking the hypocrites and those who lagged from Jihad. The fifth section involves the Verses 97-110. It classifies the Muslim society after Tabuk Expedition and talks about the Bedouins and the Medinite society. The sixth section involves the Verses 111-119. It discusses the Islamic pledge of allegiance with Allah so that a believer sells his soul and wealth for Allah's sake, the qualities of those who conclude a pledge of allegiance, the call to veracity and forbiddance of asking forgiveness for polytheists. Finally, the seventh section involves the Verses 120-129 and talks about the people of Medina and their duties towards the Call to Allah, declaring mobilization and reminding them of the Messenger's presence among them.

The author concludes her research with general comments on the Surah as well as a chapter on abrogation in the Holy Qur'an.